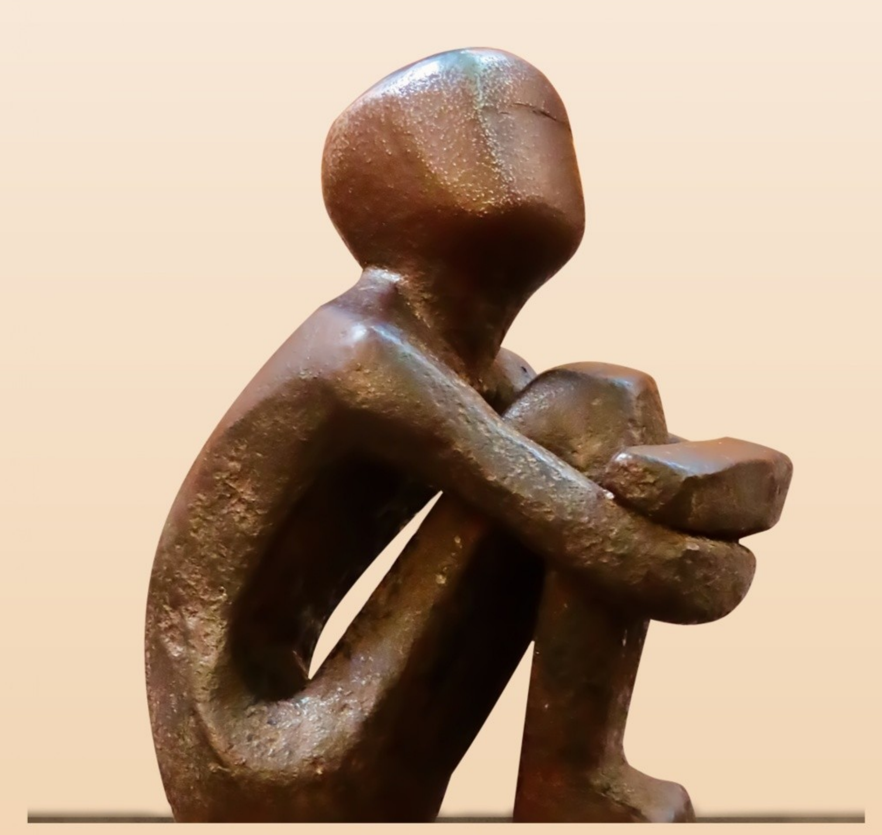
# بنية العقل السوري

## العصبية الخوف الجهل



حسن اسماعيل

# بنية العقل السوري

## العصبية الجهل الخوف

# بنية العقل السوري

## مقدمة ومدخل

### أولا

يأتي هذا البحث بعد معاناة طويلة من التفكير ومن التساؤلات الزمنية المتراكمة حول مصداقية مقولة ( ان الشعب السوري واحد ) وما تمثله من معاني التآلف والتعاون والاتفاق وأمال والآم مشتركة وجوهر تلك الأسئلة جميعها هو اذا كان الشعب السوري حقا وحقيقة هو واحد باعتباره يعيش على أرض واحدة هي وطنه وموطنه فلماذا كل هذه الصراعات التي شهدها هذا الوطن وكان آخرها وأقساها وأكثرها دموية ووحشية هو الصراع الحالي والمستمر منذ ما يقارب 13 عاما ؟

ان هذا الصراع كما غيره من الصراعات له أسبابه المباشرة وغير المباشرة وهي أسباب متنوعة كثيرة منها مايرجع للتاريخ وللجغرافية ومنها يتعلق بالظلم والآضطهاد والجور ومنهجية التفكير والوعي والأوضاع المعيشية والقائمة تتسع لكثير من هذه الأسباب غير التي ذكرناها .

ان الكثير من الدراسات والتحليلات والأراء المهتمة بالشأن السوري لم تعطي لمنهجية التفكير والوعي عند السوريين حقها باعتبارها أحد أهم الأسباب غير المباشرة للصراع السوري وهو عامل خفي باطني او لاشعوري يكمن وراء هذا العداء ويغذيه ولا يترك بذرة من الرحمة في قلوب الخصوم والمتحاربين الذين هم على استعداد لقلع الأخر من جذوره واجتثاثه فما هو هذا العامل المدمر ؟

فمنهجية التفكير و الوعي والانفتاح وتقبل الأخر يضع المصلحة العليا للوطن فوق أي اعتبار طائفي أو مذهبي أو عرقي واذا كان الوطن بخير ومتعافي فكلنا بخير والعكس بالعكس .

اذن هناك مشاكل وأعطال في بنية وتركيب العقل السوري فمن المؤكد أنه ليس سويا فلو كان كذلك لما حصل الذي حصل من هنا تأتي أهمية هذا البحث وجرأته وخطورته بسبب ما سيتم الكشف عنه من علل وخلل يعاني منها عقلنا السوري .

## ثانيا

وحينما نضع كل أسباب صراعاتنا وخيبتا ومأسينا وتخلفنا على عقلنا المريض فهذا أمر طبيعي وبديهي في مجتمعات لا زالت تنتمي الى ما يسمى بالعالم الثالث وهذه صفة أطلقت علينا ونحن نستحقها بلا شك بسبب تخلف عقلنا الجماعي عن الأخرين المتحضرين او المتقدمين علينا فما يميزنا عنهم هو التقدم العلمي والتكنولوجي والمعرفي الذي أحرزوه وكل هذا أنتجته عقولهم و ليس عقولنا والفوارق بيننا هي في التفكير والتعقل والوعي .

حتى في المستوى الفردي نتفاضل بيننا بالعقل ونضج التفكير ونقول عن شخص ضيق التفكير بأن عقليته مريضة أو متخلفة ومن هنا جاء تعبير( العصملي ) وصار مثلا وكان يطلقه السوريين على الموظف المعقد أو الجاهل أو المتخلف والمتشدد الذي كانت يعينه الوالي التركي والذي كان يعمل وفق روتين قاتل وتشديد ثقيل .

وهذا العقل هو الأمانة التي أودعنها الله فينا وبها صرنا كائنات واعية وهو الذي سيدخلنا الجنة أو النار وكلنا قد قرأ قوله تعالى : (﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] وهناك الكثير من النصوص القرآنية غيرها التي تعطي ذات المعنى والنص المذكور يروي لنا عن اعتراف صريح لأحد الغافلين وإقرار

واضح منه مفاده بأن هو وأمثاله لو كانوا يسمعوا أو يعقلوا ما كانوا في الجحيم أي أنهم لم يكن يستعملوا عقولهم وبالتعبير الشعبي ( يشغلوها ) .

**ثالثا**

اخترنا عنوانا هادفا لهذا البحث سميناه بنية العقل السوري وقبل أن نقدم تعريفنا الخاص بنا لمفهوم بنية العقل علينا أن نعرف ماقاله بعض المفكرين العرب والغربيين عن معنى هذا المصطلح .

فلقد طرح الفيلسوف الفرنسي (لالاند) في كتابه (العقل والمعايير) مصطلح (العقل الناظم والعقل المنظوم) أو بتعبير بعض المترجمين (العقل المكوِّن والعقل المكوَّن)، وقد تحول هذا النحت الى مشروع وفكرة وفلسفة وآلية تفكير نقدي، عند الكثير من المفكرين العرب ماذا يقصد (لا لاند) من هذا التقسيم ؟

يفسر الفيلسوف الفرنسي (بول فوكيه) معنى (العقل المكوَّن ويقول أنه : (الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مباديء كلية وضرورية، وهي واحدة عند جميع الناس) وهذا طبيعي لأن من عدل الله وحكمته أن يضع هذه الملكة في عقل كل انسان فأي عقل قادر على أن يحلل ويركب وبالتالي سيصل الى نتائج معرفية وعلمية ومنطقية بشرط أن يعقل ويستعمل هذه الملكة وبالتعبير القرآني اذا عقل او تعقل .

أما تعريف العقل المكوَّن أو المنظوم هو: (منظومة المباديء المقررة والمُصاغة التي لا تتغير إلاّ ببطء شديد بحيث يمكن اعتبارها ، من منظور الأفراد وظروف الحياة بمثابة حقائق أبدية) نظرية العقل لجورج طرابيشي ص 14 ولتوضيح ذلك نقول ( بأنه العقل الذي خزن فيه جميع القيم والأعراف والمعتقدات والعادات والمبادئ التي أكتسبناها من المجتمع

الخارجي فتخزنت ونظمت وتكونت في عقلنا فأصبحت كحقائق ثابتة أبدية أي صعبة التغير لأنها تعمل على احتلال العقل وشله وتصبح هي الناطق باسمه ومن يمثله ) .

وعليه يمكن القول ان مانقصده من مصطلح بنية العقل هنا هو ( جملة المعلومات والأفكار والقيم التي حصلنا عليها بالعادة والتقليد والتكرار وبالتوارث وتخزنت في العقل و أصبحت تكونه وتشكله ) .

يجب أن لا يفهم من مصطلح ( العقل السوري ) من انه نسخة واحدة من التفكير المنهجي الذي يعمل كآلة او مكنة عند جميع السوريين وكأنهم فطروا عليها ومن البديهي أن يختلف العقل من شخص لأخر فكيف بعقول ملايين السوريين فقطعا هي مختلفة لكن بحثنا وعملنا قام على مهمة واحدة هي إيجاد بنى تكوينية جماعية مشتركة تشكل مايسمى بالعقل الجمعي أي السلوك الجمعي للحشود، حيث يحتجب العقل، وينساق الأفراد وراء بعضهم دون تفكير أو تساؤل عما إذا كان ثمة هدف يستحق العناء، أو ربما مخاطرة تستحق أن يحسب حسابها قبل مواصلة السير.

نجدها وقد أصبحت ظاهرة موجودة في عقلية وذهنية أي سوري سواء أكان عربيا أو كرديا أو جركسيا أو تركمانيا أو سنيا أو علويا أو مسيحيا مع تميز كل مجموعة عرقية أو مذهبية مما ذكرنا بذهنية وتفكير يخص كل مجموعة بعينها ولا تشترك بها مع الأخرى فالمثال على العقل الجماعي السوري العام صفة التعصب والعصبية والمثال عن العقل الجماعي الخاص بكل مجموعة ان مسلمي سوريا كلهم يعتقدوا بأن محمد عليه الصلاة والسلام هو نبي الله ورسوله بينما لا يعتقد المسيحي السوري بذلك فهذه المقولة لا تشكل كأحدى الأسس التي يقوم عليها العقل الجماعي السوري لأنها ليست صفة أو عقيدة أو مبدأ عام يشترك به الجميع .

**رابعا**

وعليه فلقد حددنا ثلاث بنى وقواعد تكوينية أساسية يقوم عليها العقل السوري الجماعي وهي العصبية والخوف والجهل فلو أخذنا مثلا العصبية أو التعصب فهي بنية مشتركة عند كل السوريين فالعربي متعصب لعروبته والكردي كذلك والمسيحي متعصب لعقيدته والمسلم كذلك واذا أخذنا مثالا ضمن الفئة الواحدة كفئة المسلمين السوريين سنرى ان العلوي متعصب لعلويته والدرزي والإسماعيلي والسني هم كذلك كل واحد متعصب لمذهبه فالتعصب والعصبية هي مكون أساسي وبنيوي من مكونات العقل السوري .

ومثالنا عن العصبية والتعصب ينطبق عليه كل المكونات الأخرى كالخوف والجهل وهذا ماسنراه من خلال محاور هذا البحث .

**خامسا**

وللجميع الحق في أن يسألنا وماهو المقياس أو الأساس الذي أقمت عليه لأختيارك هذه القواعد البنيوية التكوينية أو ما سميته بالعقل الجماعي السوري العام وبعبارة أخرى كيف توصلت اليها ؟

نقول ان ذلك لم يتم بصورة مزاجية أو انتقائية أو هي من التكهنات أو التوقعات لا أبدا بل تم هذه الأختيار بالاستناد الى ثلاثة أمور :

أولهما : ان العقل السوري هو جزء من العقل العربي كما انه جزء من العقل الديني وكذلك العقل الشرق أوسطي وتتكون هذه العقول من بنية عقلية مشتركة فالشعوب العربية والشرق أوسطية المتخلفة بشكل عام تتحكم فيها العصبية والجهل والخوف والنزعات الأنانية .

ثانيهما : الحقائق التاريخية والمعاصرة فكل ما حدث للسوريين على مر العصور كان من أسبابه جهلهم وعصبيتهم وخوفهم .

ثالثهما : من الواقع الذي نعيشه اليوم فمن منا لايحب ذاته ولا يتعصب لعائلة او قوم أو قومية أو ملة أو مذهب أو دولة او حتى لفريق كرة قدم ومن منا لا يخاف من الأخر ولا ينكر ويلغي الأخر والأمثلة على ذلك كثيرا جدا سواء على المستوى الفردي أو الجماعي أو المجتمعي أو الإقليمي خذ مثلا العداوة التاريخية بين القوميات التي تعيش في منطقتنا العرب والترك والفرس والأكراد وبالرغم من أنهم جميعا مسلمين لكنهم في عداوة تاريخية ومستمرة .

رابعا : من كتاب الله نفسه ويكفي به شاهدا يقول الله تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : 63]

المؤلفة بين القلوب تعني الوحدة المعنوية في كل شيء المحبة والوئام ووحدة الالام والأمال ونبذ التعصب والعصبية والأنانية وبالتالي لم يعد هناك مجالا للخوف من الأخر ويعني احترام الأخر على أساس لا فرق بين عربي وأعجمي أو أبيض وأسود او قرشي أو حبشي فالرسول الكريم لم يستطع تحقيق ذلك ولن يستطيع ولو أنفق ما في الأرض جميعا الذي استطاع تحقيق ذلك هو الله وحده .

وهذا كله يفيدنا في شيء واحد وهو ان بنية العقل العربية بشكل عام تقوم على عقيدة العصبية والتعصب ولا يمكن القضاء عليها وتجاوزها الا بالوعي والمصلحة المشتركة وفي هذا العصر العلمي يمكننا تجاوز الجهل والخوف أيضا .

وهذا لا يعني ان تركيبة عقولنا أمرا قد كتبه وقدره الله علينا وسيبقى ذلك الى حتى يرث الله الأرض وماعليها فالنص القرآني يتحدث عن واقع العقلية العربية أو عن مرض من أمراضها في زمن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولم يتمكن الرسول الكريم فعل أي شيء لحلها فجاء القرآن الكريم ليعالجهم فعالج ما في عقولهم وأذهانهم من موراثات عقلية جاهلية وحينما شفوا منها تآلفوا فالعلاج لمثل هذه الحالات هو الوعي والمعرفة والعلم والتقدم والمدنية وهذا متوفر في وقتنا الحالي .

**سادسا**

ان كل ما بيناه وفصلناه عن بنية وتركيبة العقل السورية لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بالخصائص الفردية و

القدرات الهائلة التي يتمتع بها السوري من حيث الذكاء والفهم والابداع فهو ذكي ومبدع في عمله وهو قادر على امتلاك الخبرات والمهارات بسرعة وحين توفر لهذا السوري قدرا من الحرية والديمقراطية والبيئة المناسبة وجدناه كيف استطاع أن يثبث وجوده في مجتمعات الدول التي لجأ اليها وخاصة الأوربية منها وهذا دليل على أنه يحمل طاقة إبداعية وهذا ليسا غريبا على فرد نشأ في موطن الحضارات .

والأمثلة على المبدعين السوريين من العلماء أو الفلاسفة والمفكرين والفنانين والصناعيين والتجار والفقهاء والرياضيين والموهبين كثيرة جدا ولا يسعنا في هذا الكتاب ذكرها وتعدادها .

لكن مصيبتنا نحن السوريين هي هذا الأرث الثقيل من التراث والتعصب الذي حملناه على أكتافنا وظل يؤثر فيها وسبق أن ذكرنا اننا جميعا من ضحاياه .

كما أن هاجس الخوف هو المتحكم فينا أيضا سواء أكان الخوف من السلطة أو الأخرين أو الخوف على مستقبلنا ومستقبل أحفادنا وكان جل همنا البحث عن متطلبات معيشتنا من الضرورات ولا أقول من الكماليات .

**سابعا**

لقد جرى الحديث في الماضي عن أصالة السوريين وعن الفسيفساء السوري المتنوع وهذا أمر لا يد لنا فيه بل هو حاصل تاريخي وجغرافي أما الحديث عن وحدة السوريين فهو خرافة وهذيان و غير صحيح حتى في أبسط الأمور كالمساواة في الوطنية فلقد وضعت في مجتمعنا موازين طائفية خاصة تقاس بها درجة المواطنة علينا أن نقر ونعترف بأنقساماتنا الطائفية والمذهبية والعرقية والفكرية ونبحث عن حل يتجاوزها كما تجاوزتها الأمم الحضارية وبتعبير أخر نتفق على صيغة تؤسس لدولة حديثة ولوطن حديث وجديد وهذا يتطلب أعادة بناء وصنع الانسان السوري الوطني المؤمن بخارطة سياسية جغرافية واحدة وبعلم واحد وبدولة حديثة واحدة الكل متساوون فيها أمام القانون ولا فرق بين سوري وأخر الا بدرجة وطنيته وانتماءه و اخلاصه .

**ثامنا**

ان كثيرا من الأبحاث والدراسات من نمط بحثنا هذا قد صدرت من كتاب ومحللين وباحثين وسياسين سورين في الخارج ولم يكن بل المستحيل أن تكتب مثل هذه البحوث والتحليلات في الوطن لسبب معروف وهو سياسة القمع والبطش وتغييب الفكر التي كانت أحدى الوسائل العنفية لدى السلطات الحاكمة ولم يكن بوسعنا حينها أن نقول لها أف فكيف بنا اليوم نعري فضائحها وننشر غسيلها الوسخ ليظهر للعيان .

لن تستطيع بعد اليوم الأنظمة الديكتاتورية والطائفية أن تخفي نفسها وراء شعارات كاذبة وسياسات خبيثة تقوم على فلسفة التقية الباطنية لقد تحرر الانسان اليوم من كل القيود التي كانت تكبل حريته ورأيه وأصبح حرية الرأي أمرا محتوما بفضل تقنيات المعلوماتية والآنترنيت ووسائط التواصل والتعبير ومهما أوتيت الأنظمة الفاسدة من قوة وذكاء وحيلة فهي لن تتمكن من وضع خطوط حمراء جديدة أو حتى الأحتفاظ بتلك التي وضعتها من قبل ولن تستطيع كم الأفواه والتعتيم على صور ومشاهد العنف والاضطهاد والبطش التي راحت تنتشر بثوان معدودات يراها العالم بأسره لذلك يقال اليوم ان العالم بأسره قد تحول الى قرية كبيرة .

## تاسعا وأخيرا

الهدف من هذه الدراسة هو محاولة متواضعة منا لتقديم شيء نعتقد أنه مفيد ونافع ونيتنا هي كذلك

ولا أتصور أن يختلف وطنيا سوريا معنا في ما وصلنا اليه من نتائج موضوعية ومنطقية مهما كانت درجة وعيه وثقافته ومهما كانت طائفته أو مذهبه أو عرقه .

فما نقدمه هو عملية تحليل عقلي لعقلنا السوري فجميعا ضحايا لأوزار التاريخ وفعل الجغرافيا والموروثات المرضية التي أورثمونها لذلك المطلوب منا أن نعيد الحرارة والدفئ لشعورنا الوطني الذي أوشك أن يزول من قلوبنا بفعل قساوة ما حصل وماحدث فشعورنا الوطني الصادق يعد أول وأهم خطوة لإعادة بناء وطننا من جديد وفق معايير جديدة ليكون للجميع لا دور فيه لحزب واحد أو قائد مؤله يريد الناس أن يعبدوه أو رؤى متطرفة أو نزعات انفصالية خيالية ولا انتماء لنا الا لهو وليس لأحد سواه أو غيره .

هذا الأمر لن يؤتي أكله في سنوات معدودات ومن الطبيعي أن يستغرق الكثير من الوقت والجهد والتعب وسيذهب على طريق الوصول اليه الكثير من الضحايا غير الذين راحوا أو لنقل استشهدوا في سبيل الوطن لكنه في النهاية سيحصل وسيتحقق وسيتحول ما حصل الى تاريخ سيكتب و ستقرأه الأجيال القادمة كما نقرأ اليوم عن الفظائع والحروب بل أنه تاريخ لن تكتب وقائعه وأحداثه في الكتب وحسب بل ستخزن بالصوت والصورة والتي تعطيك الحقيقة اليقينية التي تراها وتشاهدها بعينك وتسمعها أذنيك .

وأكرر هنا هذا الحديث النبوي الذي قاله رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام : لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إلى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّة" .وهو ليس من السوريين الوطنيين ومن الوطن أيضا

**حسن اسماعيل**

## بنية العقل السوري

## أولا

## العصبية والتعصب

### مفهوم ومعنى العصبية والتعصب

تعريف و معنى تعصب في معجم المعاني الجامع

تَعَصَّبَ: (فعل)

تعصَّبَ / تعصَّبَ لـ يتعصَّب ، تعصُّبًا ، فهو مُتعصِّب ، والمفعول مُتعصَّب له

تَعَصَّبَ الشَّيْخُ : وَضَعَ عِصَابَةً عَلَى رَأْسِهِ

تَعَصَّبَ لِزَمِيلِهِ أَمَامَ أَعْدَائِهِ : وَقَفَ فِي جَانِبِهِ مُنَاصِراً لَهُ بِشِدَّةٍ، نَصَرَهُ

تَعَصَّبَ لِلُغَتِهِ : كَانَ شَدِيدَ الغَيْرَةِ عَلَيْهَا، مُدَافِعاً عَنْهَا تَعَصَّبَ فِي دِينِهِ

تَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِوَقَاحَتِهِ : وَقَفَ ضِدَّهُ وَقَاوَمَهُ

تَعَصَّبَ القَوْمُ عليهم: تجمَّعُوا

تَعَصَّبَ فلانٌ: كان ذا عَصَبِيَّة

أَظْهَرَ تَعَصُّباً لِصَاحِبِهِ : هُوَ شَدِيدُ التَّعَصُّبِ لأَفْكَارِهِ : شَدِيدُ التَّعَنُّتِ، لاَ يَتَنَازَلُ عَنْهَا وَلَوْ مَعَ ظُهُورِ بُطْلاَنِهَا، وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ

تعصُّبٌ أعمى: مَيْل، أو سلوك، أو تصرُّف مبالَغٌ فيه من غير اقتناع

قال ابن منظور: التعصب : من العصبية.والعصبية : أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتآلب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين.وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل : تعصبوا . .

والعصبة : الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم أي يحيطون به ويشتد بهم وفي الحديث النبوي : (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية) .

العصبية والتعصب : المحاماة والمدافعة.وتعصبنا له ومعه : نصرناه .

## في معنى العصبية

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته حول مصطلح (العصبية): « يُقَال لكل شَدّ: عَصْب، وقوله تعالى [يوم عصيب] أي شديد، والعُصبة: جماعة متعصِّبة متعاضدة [ونحن عُصْبَةٌ] ، قال تعالى: [لتنوء بالعصبة]، واعْصَوصَبَ القومُ: صاروا عَصَبًا وعصبوا به أمرًا ».

فهذا المصطلح يدور حول (الشّد والربط) فقد يكون هذا الشدُّ وهذا التعاضُد لأمرٍ حسنٍ وفيه الخير، وقد يكون لأمرٍ مِن أمور الجاهلية، فليست مُفردة (التعصُّب) هي في معرض الذم دائمًا ، بل قد تكون محمودةً تارةً وقد تكون مذمومةً تارةً أخرى، وقد كان التعصُّب للقبيلة سواءٌ كانت على حقٍّ أو على باطل مِن أمور الجاهلية .

نظرية العصبية أو العصبة هي الوعي الجماعي والتضامن والولاء القبلي أو الوطني أو الحس المجتمعي. « هي التي تجعل من جماعة (معينة)، جماعة قوية »، أنها لا تعني مطلق الجماعة بحد ذاتها وإنما الأفراد الذين تجمع بينهم رابطة الدم أو رابطة الحلف أو الولاء بالإضافة إلى شرط الملازمة بينهم من أجل أن يتم التفاعل الاجتماعي، وتبقى مستمرة ومتفرعة بوجود هؤلاء الأفراد واستمرار تناسلهم، فينشأ بين أفرادها شعور يؤدي إلى المحاماة والمدافعة وهم يتعصبون لبعضهم حينما يكون هناك داع للتعصب، ويشعر الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من أهل عصبته، وفي هذه الحالة يفقد شخصيته الفردية بحيث تذوب في شخصية الجماعة، وهو شعور جماعي مشترك لدى أفراد العصبة فهو ذو صبغة جمعية أساسية بين الفرد والمجموعة، وليس بين فرد وآخر فقط، وفي حال تعرض العصبة إلى عدوان فيظهر في هذه الحالة «الوعي» بالعصبية، وهذا «الوعي العصبي» هو الذي يشد أفراد العصبة إلى بعضهم وهو ما يسميه ابن خلدون «بالعصبية» التي بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه. وبهذا تكون العصبية أساس نهوض أو أفول الحضارة: حيت تكون العصبية أقوى مع بداية الحضارة وتضعف مع تقدمها إلى أن تزيحها عصبية أقوى وتأسس حضارة جديدة.

## مفهوم العصبية والتعصب من الناحية الدينية

روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه واله وسلم : "لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إلى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّة" .

مفهوم التعصّب ودوافعه :

أنّ التعلّقات غير المنطقية- بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معيّنة أو شيء من الأشياء- تقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشيء أو الشخص، وبالتالي سيكون العامل المهم في بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر. وكلّما تحرّك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصّبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنساني فإنّ الناس سوف يتعاملون في ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادئ والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيّم على المجتمع الإنساني ويعيش الإنسان في حركته الاجتماعية بكلّ أشكال الطمأنينة والمحبّة والأخوة.

## حُبّ الذّات والتعلّق الشديد بالأسلاف

إنّ الإفراط في حبّ الذات يتسبّب في أن يتعلّق الإنسان بالأمور المنسوبة إليه بشدّة ويعتبرها جزءاً من شخصيته وكيانه ومن ذلك الرابطة مع الآباء والأجداد والتقاليد المرسومة في مجتمعه. وإنّ هذا التعلّق الشديد يؤدّي إلى نقل الكثير من الخرافات والقبائح إلى الأجيال الأخرى بذريعة حفظ الآداب والسنن والرسوم الاجتماعية وبالتالي سيخلق حجاباً يصدّ الإنسان عن أيّة معرفة جديدة وارتباط بالحقائق والواقعيات. وإنّ الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أنّ أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة في هذه القبيلة تتحوّل في نظر الأشخاص المتعصّبين إلى إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، يجب الدفاع عنها ومناصرتها مهما كانت الأسباب والنتائج، في حين أنّ أفضل أفراد القبيلة الأخرى وأسمى الآداب والسنن في تلك القبيلة قد تكون هي الأسوأ والأقبح في نظر هذا الإنسان.

## ذم التعصّب والفرقة

إنّ الأضرار والخسائر الكثيرة المترّتبة على هذه الرذيلة الأخلاقية قد سوّدت صفحات التاريخ البشري وواجه الأنبياء والرسل بسببها مشاكل كثيرة في طريق هداية الناس إلى الله والحقّ وسُفكت بسببها الكثير من الدماء، وتحوّلت طاقات وإمكانيات البشر الكبيرة إلى سيل مخرّب بسبب الجهل والتعصّب، ولهذا ورد الردع عن التخلّق بهذه الصفة، والتلبّس بهذا السلوك، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم : "مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةً مِنْ خَرْدَل مِنْ عَصَبِيَّة بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أعراب الْجَاهِلِيَّة" . وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم : "مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبَقَ الإيمان مِنْ عُنُقِهِ" .

## الآثار السلبيّة للتعصّب والعناد

التعصّب والعناد هُما لازم وملزوم، ولهذا السبب أوردناهما تحت عنوان واحد، وقد ورد الكثير من الروايات في النهي عن التعصّب واللجاجة، منها:

وإنّ الآثار السلبية للتعصّب والإصرار في حركة حياة الإنسان المتعصّب تتجلّى في الكثير من الموارد منها:

أ- عدم نصرة المظلوم، وذلك لأنّ الله تعالى أوجب معونة المظلوم ونصرته دون الظالم، روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلا كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة"7.

ب- تضييع حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وانتشار العداوة والبغضاء بين الناس.

ج- التعصّب يعني الارتباط غير المنطقي بشخص معيّن أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة في الأمور وبالتالي يحرمه من العثور على طريق للحل والنجاة. ولهذا فهو لا يتمكّن من إدراك البديهيات وأوضح الحقائق بسبب تعصّبه وعناده.

د- إنّ العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة الّتي من شأنها تمزيق العلائق الاجتماعية في المجتمع وتسلب منه روح الوحدة والإلفة وتنثر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البنّاءة الّتي يجب أن تُصرف في سبيل إعمار المجتمع في حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتي فيما بينها،

هـ- التعصّب والعناد يتسبّبان في ابتعاد الأحبّة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد.

و- التعصّب والعناد من الأسباب والعوامل المهمّة للكفر، وانطلاقاً من هذه الحالة نجد أنّ أكثر الشعوب والأمم السالفة وبسبب التعصّب والعناد كانت تسير في خطّ الباطل والكفر برسالات السماء والامتناع عن قبول الحقّ بدافع من المحافظة على السنن البالية والتقاليد الزائفة.

ز- التعصّب والعناء، يُفقدان الشخص توازنه في اختيار الأمور ويجرّانه إلى مواقع لا يرغب الولوج فيها،

ح- إنّ التعصّب واللجاجة يخرّبان حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، لأنّهما يورثانه في حياته الدنيا العداوة والفرقة والأخطاء الكثيرة وفقدان الراحة والهدوء والاستقرار، وفي الآخرة يتسبّبان في ابتعاده عن رحمة الله،

## أسباب ومنشأ التعصّب والعناد

هناك عوامل وأسباب عديدة يمكن أن تدفع الإنسان باتجاه التعصّب نختصرها بكلمة واحدة وهي الأنانية وحبّ الذات، لأنّ الشخص الأناني يحبّ كلّ ما لديه من العلائق والأمور أن تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الأصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائد ويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أيّ تحرّك فكري واستقلال عقلي .

## العصبية الممدوحة

لا ريب أنّ العصبية الذميمة التي نهى الإسلام عنها هي : التناصر على الباطل، والتعاون على الظلم، والتفاخر بالقيم الجاهلية، أمّا التعصّب للحق، والدفاع عنه...، والتناصر على تحقيق المصالح الإسلامية العامة، كالدفاع عن الدين، وحماية الوطن، وصيانة كرامات المسلمين وحماية أعراضهم وأنفسهم وأموالهم، فهو التعصّب المحمود الباعث على توحيد الأهداف والجهود، وتحقيق العِزّة والمنعة للمسلمين، سُئل صلى الله عليه واله وسلم : ما العصبية ؟ قال: "أن تُعين قومك على الظلم"، فإنّ العصبية الّتي يعيشها أفراد القوم أو القبيلة مادامت تسير في خطّ الخير والصلاح فهي إيجابية وممدوحة، لأنّ هذه العصبية والارتباط الشديد لا يدفع الإنسان إلى ارتكاب الممنوعات ولا يقوده نحو الخطيئة بل يُعمّق فيه أواصر المحبّة ويؤكّد وشائج المودّة بين الأفراد، أما التعصّب المذموم فهو أن يسحق العدالة.

## التعصب والعصبية في المفهوم الفلسفي

### ما هي سيكولوجية التعصب

يعرّف علم النفس الحديث التعصب بأنه "اتجاه نفسي لدى الفرد يجعله يدرك موضوعاً معيناً أو فرداً آخر غيره أو جماعة من الناس أو طائفة أو مذهباً (إدراكاً إيجابياً محباً) أو (إدراكاً سلبياً كارهاً) دون أن يكون لطبيعة هذا الإدراك بجانبيه ما يبرره من المنطق أو الأحداث أو الخبرات الواقعية" ووفقاً لهذا التعريف، فإن المتعصب عندما يقوم بإدراك موضوع ما (رؤية عقدية مثلا) إدراكاً إيجابياً متعاطفاً معها فإنه لا يأخذها على أنها مجرد أحد المعطيات النسبية للحياة الإنسانية، أو أنها مجرد رأي يضاف إلى آراء أخرى عديدة لكل منها الحق في خوض غمار تأويله الخاص لذلك الموضوع المثار، لا بل إنه حينما يدركها إدراكاً إيجابياً محباً فسينظر إليها باعتبارها حقيقة وحيدة كاملة ناصعة البيان دامغة الحجة لا تضاهيها حقيقة أخرى في تماهيها مع المطلق، أما عندما يدركها في جانبها السلبي (رؤى الآخرين المخالفة) فسيراها ثاويةً في أقصى يسار الحقيقة عارية من كل ما يمت إليها بصلة، متفاصلة مع كل ما يتصل بالخير أو الجمال أو الفاعلية أوالإبداع الإنساني مفاصلة نهائية لا رجعة فيها ، ويترتب على تلك النظرة (اللاواعية) أنه سيعتبر كل من يشاركه الإدراك بجانبيه (الإيجابي تجاه رؤيته المذهبية والسلبي تجاه رؤى الآخرين فهو السعيد سعادة لن يشقى بعدها أبدا ، بنفس الوقت الذي يرى فيه كل من لا يشاركه إدراكه ذلك على أنه هالك لا محالة. من هنا فالتعصب كما يراها بعض علماء النفس "ظاهرة اجتماعية لها بواعثها النفسية" وبالتالي فيمكن أن تتعدد مظاهرها بدون أن يغير ذلك من ظاهريتها الاجتماعية البحتة، فالتعصب الديني مثلاً لا يختلف في شيء البتة عن أي تعصب آخر سواء أكان قومياً أو طائفياً أو قبلياً أو وطنياً أو مناطقياً أو عرقياَ ، فكلها صور وتشكلات لظاهرة اجتماعية واحدة لكل صورة منها بواعثها النفسية الداخلية، ومن هذا المنطلق – أعني اجتماعية ظاهرة التعصب – فقد تناول

علم النفس الحديث الاتجاهات التعصبية على أساس دراسة جذورها ومكوناتها البيئية والثقافية التي عملت على تعميقها وتضمينها (اللاشعور) الفردي، وهو ما يعني أنها ليست صفة بيولوجية تنتقل تأثيراتها عبر المورثات الجينية من جيل إلى جيل، إنها ببساطة شديدة ظاهرة من ظواهر الاجتماع البشري يستطيع الناس اكتسابها وفق شروط ثقافية واجتماعية معينة. بناءً على ما تقدم من تقرير (اجتماعية) الظاهرة التعصبية بكافة تحولاتها وتمظهراتها بما فيها التعصب الديني، فإنه يجب بالتالي إخضاعها كباقي الظواهر الاجتماعية الأخرى للدراسة العلمية المعمقة التي تعتمد على توصيف الظاهرة وتحليلها وصولاً إلى أسبابها الحقيقية ومن ثم اقتراح الحلول الناجعة لها اعتماداً على علاج السبب الدافع والموجه.

لو نظرنا إلى ظاهرة التعصب الديني الضارب بأطنابه في أجزاء كثيرة من عالمنا الإسلامي كأحد تشكلات ظاهرة التعصب بشكل عام من زاوية ما خلفته وتخلفه من موجات تطرفية طالت المجتمع بمؤسساته وأفراده وبناه التنموية، والتي يمكن أن تعتبر بمثابة توصيف لمخرجات الظاهرة، ثم حاولنا البحث في أسباب ذلك التعصب ودوافعه النفسية المنبعثة من أعماق نفس الفرد المتعصب، لوجدنا أن من بين أهم تلك الأسباب إن لم يكن السبب الرئيسي فيها هو تربية المجتمع لأفراده على آحادية الرأي خلال مراحل التنشئة الثقافية العامة، وإذا كانت الظواهر الاجتماعية تنشأ بطبيعتها اعتماداً على ما تغترفه من معين الإرث الثقافي للشعوب – وفقاً للمفهوم العام للثقافة – فإن التعليم – خاصة في المراحل الأولى منه – يشكل أحد أهم وأكبر معاقل التنشئة الثقافية على آحادية الرأي لدينا، إذ ما أن يبدأ الطالب بدراسة المواد الدينية إلا وتقدم له محتوياتها – التي لا تعدو أن تكون اجتهادات بشرية لها وعليها كفل من الصواب والخطأ – على أنها إما النص نفسه بتجلياته المتعالية، أو أنها في أحسن أحوال تنازلها عن ادعاء تمثل النص في مضمونها، تمثل الرأي الوحيد الذي يحمل الحق الحصري في تمثيل النص من ناحية تفسيره وتأويله وتوضيح المراد منه

انطلاقاً من مفهوم الفرقة الناجية الذي يعني بداهة عندما يتم أخذه كمسلمة في الذهنية العامة أن كل تخريجات المذهب أو الطائفة للنص ممهورة بخاتم اليقين والوثوقية، وهنا سنجد أن الطالب بالإضافة إلى برمجة عقله على الآحادية قبل الدخول في سلك الدراسة، فسينشأ خلال مراحل الثقافة (العالِمة) أيضاً على أن مذهبه أو طائفته بما فيها مقولاتها التي سيتشربها خلال سنة دراسته يمثلون الحق الوحيد وليس النسبي، وأن كل من يخالفون تلك التوجهات فلا حظ لهم في الإسلام، ومن ثم فإنه – خاصة عندما ينتقل إلى الخطوة التالية من سلسلة التعصب – سيرى أن عليه (واجب) تقويم الآراء المخالفة لما تمذهب عليه إما بالحجة التي تعني لديه مجرد استعراض ما تتلمذ عليه من أدلة كفاصل وحيد في النزاع بلا اعتبار لأدلة الخصم ،وإما بالقوة والعنف والسِنان إن كان ثمة حاجة، فالحق في عرفه لا يتعدد مثلما أن الطائفة الناجية لا تتعدد أيضاً ! !

فالتعصب هو الاعتقاد أو التصرفات التي تنطوي على أخذ مواقف دون تمحيص بسبب الغيرة وبحماس مفرط. يعرّف الفيلسوف جورج سانتايانا «التعصب» بأنه «يضاعف مجهودك عندما تنسى هدفك». يظهر المتعصب معايير صارمة للغاية وبتسامح قليل تجاه للأفكار أو الآراء المعارضة.

يُعرّف تينو ليشتسار مصطلح التعصب على أنه السعي وراء أو الدفاع عن شيء ما بطريقة متطرفة وعاطفية تتجاوز الحدود الطبيعية. يُعرّف التعصب الديني بأنه الإيمان الأعمى والإستعداد لاضطهاد المعارضين وغياب وعي للواقع.

في كتابه بعنوان «حديث مجنون، كلام مجنون» (Crazy Talk ، Stupid Talk)، يقول نيل بوستمان أن «مفتاح كل المعتقدات المتعصبة هو أنها تؤكد نفسها بنفسها . . تعتبر بعض المعتقدات متعصبة ليس لأنها» خاطئة «ولكن بسبب التعبير عنها بطريقة لا يمكن أبدًا إظهارها كاذبة.»

اعتبر التعصب من أحد أخطر الإشكاليات الاجتماعية سواء القديمة أم المعاصرة التي شهدها العالم، وهناك إهتمام كبير حول دراسة أسبابه، وطرق الحد منه. بدأ الباحثون تكثيف جهودهم العلمية لمعالجة موضوع التعصب خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك نسبة للأفعال الوحشية التي ارتكبها بعض من الجماعات لصالح جماعتهم/حكومتهم ضد مجموعة أخرى. ومن أهم حوادث التعصب التي شهدها القرن العشرين، العنصرية بأشكالها المختلفة ومنها: التمييز ضد السود في الولايات المتحدة وجنوب افريقيا على خلفية اللون، الإعتداءات على الأقليات في أوروبا على خلفية الأعراق، والمذابح المتبادلة بين المسلمين والهندوس في الهند على خلفية الدين، والحروب القبلية في تشاد والصومال، وصولاً إلى عمليات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك، والجرائم التي يرتكبها الصهاينة بحق الشعب الفلسطيني وأخيرا ما تعرض له الشعب السوري منقتل ومذابح على يد السلطة الطائفية في سوريا .

## الاتجاهات التعصبية

يشتق مفهوم التعصب من الكلمة اللاتينية Praejudicium والتي تعني الحكم المسبق، وقد تعددت التعريفات لهذا المصطلح ومر بعدة تغيرات في معناه اذا وفقا لـ "ألبورت Allport " مر المفهوم في ثلاث مراحل :

- المعنى القديم، يقصد به الحكم المسبق الذي يقوم على أساس الخبرات والقرارات السابقة.
- أما في المفهوم باللغة الإنجليزية، فإنه الحكم الذي يصدر على موضوع معين مسبقا قبل القيام بإختبار وفحص الحقائق المتاحة عن الموضوع.
- اكتسب المفهوم خاصية إنفعالية، سواء بالتفضيل أو عدم التفضيل التي تصطحب الحكم المسبق.

ان معظم التعريفات التي تناولت التعصب، وصفته بأنه إتجاه سلبي ضد أشخاص بعينهم لا شيء إلا انهم ينتمون لجماعة معينة، والمتعصب يغفل عن رؤية الصفات الفردية للأعضاء المنتمين للجماعة، ويحكم عليهم مسبقاً، وغالباً هذا الاتجاه يقود إلى السلوك الذي يعتبر في كثير من الأحيان نزعة سلبية إزاء جماعة اخرى.

نستنج من التعريف السابق عدد من العناصر التي تضمن التعصب:

- بناء الاتجاه وتشكليه، وقد يكون إيجابي ولكنه بما أنه تعصب فأنه بالأغلب معروف بالسلبية.

- يتشكل على أساس حكم مسبق ليس شرطاً أن يكون معالجة معرفية صحيحة، ولكن يصعب تغييره ويحتاج إلى الكثير من الاستراتيجيات لتعديله أو الحد منه.

- يترتب على التعصب النزعة للسلوك بشكل تمييزي للاتجاه المتبنى سواء ضد أو في صالح الموضوع

هناك اتفاق واسع يقضي بان الاتجاه يتشكل من ثلاثة مكونات (المعرفية، الوجدانية، السلوكية)، المكون المعرفي العقلي: وهو يتضمن الحقائق الموضوعية المتوفرة لدى الفرد عن موضوع الاتجاه حتى يمكنه من اتخاذ القرار المناسب. المكون الوجداني: وهو المكون الذي يشير إلى مشاعر الحب والكراهية التي يوجهها الفرد نحو موضوع الاتجاه ويرتبط ذلك بتكوينه العاطفي حسب ما يستجيب له بشكل أسرع ويندفع نحوه أو ينفر منه. وأخيرا المكون الثالث السلوكي: الذي يعتبر الأداء أو النزعة للفعل وفق أنماط محددة في أوضاع معينة، والاتجاه بشكل عام يوجه السلوك. ويجب التنويه أن الاتجاه النفسي نحو موضوع ما يكون مزيج بين هذه العناصر النفسية الثلاثة، ولكن الإشكالية التي يتم النقاش

حولها ترتبط بأي مدى تتسق هذه المكونات وتتفاعل مع بعضها البعض لتكوين اتجاه تعصبي؟ وما قوة الارتباط بينهما بحيث ينظر اليها كوحدة واحدة؟

لقد تطرق الباحثون في دراسة كل مكون بصورة منفردة ، ولكن النموذج الأكثر شهرة ومثلاً هو النموذج الثلاثي الذي يأخذ كل المكونات بعين الاعتبار بإتساقها والتي يفترض إنها تؤلف ما يعرف بالاتجاه التعصبي.

## الاتجاهات التعصبية والمفاهيم المتداخلة

### النمطية

لابد من التطرق الى النمطية قبل التعمق بالتعصب، لأنه غالباً ما يتداخل هذا المفهوم عند دراسة الاتجاهات التعصبية، وتعرف النمطية أنها المعتقدات التي تعزز مجموعة من الصفات لأعضاء جماعة اجتماعية ما، وتكتسب هذه الصور النمطية من خلال التعلم الاجتماعي، أو خلال خبرة مباشرة وعوامل أخرى، وتتسم بالتعميم الزائد كما إنها تعمل على تبسيط الأمور بطريقة مفرطة، والإدراك فيها يكون انتقائيا وليس مبنيا على برهان منطقي علمي سليم، حيث أنها تتجاهل براهين مضادة وتعمل على إنكارها إذا اختلف مع الفكرة المسبقة وتعتبر هي الأساس اللازم للاتجاه التعصبي.

### التمييز

التمييز والتعصب مفهومان مرتبطان بشدة ببعضهما البعض، وكثيرا ما يستخدمان للدلالة على المعنى نفسه، ولكن الأمر ليس كذلك وسوف أقوم بالتوضيح، حيث أن التعصب هو الفكرة أو المفهوم الأوسع الذي يضم داخله التمييز على النحو السلوكي للاتجاه التعصبي، باعتباره المكون السلوكي حسب النموذج الثلاثي.

التمييز عبارة عن تعصب مترجم ( بكسر الجيم ) لسلوك فعلي تجاه أعضاء جماعة ما بسبب عضويتهم في هذه الجماعة. بين التمييز الفردي الذي يظهر نفسه بسلوكيات تمييزية تنشأ عن الكراهية وقد يظهر بتجنب أعضاء جماعة اخرى، ويتطرق ليكون اكثر حدة وتطرف كأن يجمع على إنكار حقوق أعضاء جماعة مستهدفة. أما التمييز الآخر هو على المستوى المؤسساتي حيث نراه غالباً في مجال العلاقات الاجتماعية، الاقتصادية، والقانونية وتعتبر الولايات المتحدة نموذجا في التمييز المؤسساتي الذي مارسته ضد السود وما تزال.

## العنصرية

على الرغم من تداخل الكثير من المفاهيم مع التعصب إلا أن العنصرية مرتبطة ارتباطا وثيقا ومتداخلا جداً بمفهوم التعصب. وإلى حد واسع ومنتشر الإعتقاد أن التعصب هو نفسه العنصرية، ويرجع ذلك إلى سبب وجيه وهو كثرة الكتابات التي تناولت العنصرية بما إنها تمثل أكثر ما عانت منه البشرية. وهي تعني الإعتقاد بأن الإرث الثقافي لجماعة الفرد يتفوق فطرياً على الإرث الثقافي أو العنصري للجماعات الأخرى، إيديولوجيا العنصرية تؤكد على سيادة عنصر و/أو استغلاله لعناصر أخرى.

## دراسات وابحاث علمية في التعصب

التعصب ظاهرة اجتماعية موجودة في كل مجتمع وكل زمان ومكان، ولكن السياق الثقافي يلعب دورا في تنوع وتعدد أشكاله، وتطبيقه يعتمد على الحالة والجماعة، حيث ان كل بناء اجتماعي يمارسه بما تستدعي الحاجة. لقد تباين الإختلاف في الأدبيات حول التعصب في الكتابات العربية، والكتابات الغربية وذلك لاختلاف دينامية الصراع بين الجماعات. نجد – على سبيل المثال – أن أغلبية الدراسات الصادرة باللغة العربية تتمحور حول العصبية الدينية، العصبية القبلية العشائرية، التعصب ( السلبي ) ضد المرأة– التعصب ضد الجنس، بينما في معظم الدراسات الصادرة في الغرب فقد جرى التركيز على العرق، والطبقة، والمكانة. ولكن تفرد الباحثون في دراسة الملامح النفسية والسيكولوجية، اي الواقعة ضمن المشروع الممكن البحث فيه دون السوسيولوجية منها نظراً لأن التعصب موضوع حساس ولا أحد يرغب في فضح عيوب مجتمعه وتقديم صورة غير حضارية عن المجتمع الذي يمثله، والخوف من كشف المخاطر الاجتماعية وما ينطوي من فحص الأمراض والنقائض التي في إمكانها أن توظف في خدمة المجتمع، ولأن الكشف عن مخاطر الفكر تشكل تحدي لقلب الحياة الاجتماعية، فان الأغلبية يتفادوها، كما أن مؤسسات المجتمع في بعض الاحيان تعزز التعصب وتحدد طرق التعبير عنه. لذا هناك حالة من الاستهجان والمنع المبطن للباحثين للخوض في الأبحاث العلمية حول التعصب، لأن المؤسسات ليست فقط تعزز التعصب بل توظفه من أجل أن تبني رصيداً سياسياً يخدم مصالحها.

ثمة علاقة أو فرضية تستدعي الدراسة العلمية في المستقبل، الفرضية تتساءل حول " مدى قوة أو ارتباط النظام وعلاقته بالتعصب؟" وكيف يسمح التعبير عنه؟

أنه في المجتمعات الغربية ذات النظام الرأسمالي القوي قامت المؤسسات بضبط وحصر التعصب بما يخدم مصالحها، قامت الولايات المتحدة مثلا ببناء مشاريع سكنية للسود، بعيدة عن أحياء البيض وسمحت بوجود العصابات على الجانبين لتعمل على تغييب الوعي حول اللامساواة الاجتماعية، لتمنع أي حركات تغيير اجتماعي

وفقا لـ (Browm, and Lopez,**2001**)، وفي دراسة تحليل دور التشابه في نظريات التعصب، لأكثر من 50 عاماً تناول علم النفس الاجتماعي موضوع التعصب على أنه صراع بين الأفراد أو الجماعات وإن تحسين هذه العلاقات من إمكانها التخفيف من التعصب، يبين الباحثون أن السياسية المهيمنة في ذلك الوقت وما زالت لها دورا كبيرا في هذا التشابه النظري في الماضي والحاضر، ولفحص هذا التشابه تم مراجعة الأبحاث في مجال علم النفس الاجتماعي عبر مراجعة نقدية تحليلية وعملوا على تطوير اقتراحات من شأنها أن تتحدى التعصب كقضية مجتمعية جوهرها عدم المساواة الأساسي بين الجماعات بناء على الاختلاف وليس صراع. وعلى الرغم أن هذه الدراسة تعتبر نقدية ولكنها – من وجهة نظري المتواضعة – مجرد نقد سطحي لأنها لم تطرح بديل منهجي من شأنه أن يقدم نظريات جذرية تعالج الموضوع.

في دراسة لرياض عباس حول التعصب لدى الاوروبين من وجهة نظر العراقيين المقيمين في اوروبا، باستخدام وبناء قياس للتعصب معتمدا على مجال التعصب القومي والتعصب الديني، فقد ورد ان طبيعة الاحداث والتوتر الذي يشهده العصر ترك اثر على المواطن الغربي والأوروبي ودفعه نحو مشاعر الكره والتعصب وفق المفهوم النفسي، ولقد اختار عينة عشوائية 210 عراقيا مقيما في اوروبا، وقد توصل بحثه الى أن الاوروبيين بالإستناد إلى آراء العراقيين

يظهرون مستويات تعصب تفوق المتوسط الفرضي، وأن الذكور أشروا مستويات أعلى من الاناث في تشخيص وقياس التعصب.

أما في دراسة  حيث قام بدراسة بعنوان الحوار المجتمعي وعلاقته بتخفيف حدة التعصب الديني، توصل الى أن الجمعيات الأهلية والمؤسسات يمكن أن تسهم في تشخيص المشكلات التي يعاني منها المجتمع المحلي والتحديات الاقتصادية والاجتماعية والظواهر السلبية كالتعصب الديني الذي يعيق التطور والتفاعل الاجتماعي، بغية التوصل لمقترح تنظيم المجتمع من خلال التعرف على الصعوبات التي تواجه الاخصائي الاجتماعي، المسح الاجتماعي كمنهج بطريقة العينة، وتوصل الى وجود علاقة بين التعصب الديني ومستوى التعليم ووجود مشاكل مجتمعية مرتبطة بالتعصب.

ومن ثم أشارت دراسة التي سعت الى إعداد مقياس للتعصب القبلي لدى الشباب الجامعي يتناسب مع طبيعة وبناء المجتمع القبلي من حيث الأسباب المؤدية والمظاهر المترتبة على التعصب والتي تكون في مجملها ملامح الشخصية المتعصبة. تم تطبيقها على عينة 320 طالباً، متوسط عمر (20 عاما ) وتوصلت الى بناء مقياس يتناسب مع البيئة المصرية والعربية.

أما في دراسة وطفة، والاحمد بعنوان " التعصب ماهية وانتشاراً في الوطن العربي في سنة 2002" ، ووفقاً لمنهجية العينة بالحصة حيث روعي شمل أغلب الكليات الجامعية، مستندة إلى إشكالية ندرة الدراسات السوسيولوجية التي بحثت في الموضوع، وطورت أسئلة طرحت ما آراء الطلبة في مدى حضور التعصب بأشكاله المختلفة في المجتمع

الكويتي، حيث توصلت الى نتائج عدة من اهمها أن ابرز اشكال التعصب في الوطن العربي هو التعصب الطائفي، ومن ثم التعصب الديني في المرتبة الثانية والتعصب القبلي والعائلي في المرتبة الثالثة.

ان المراجعة العلمية السريعة للأبحاث والكتابات التي تناولت موضوع التعصب لم تنجح ( لشديد الأسف) في الحد منه بل أخذ التعصب بالتطور ولكن تطور بأشكال أخرى ليشمل مجالات متعددة، ويتم التغاضي عنها في معظم الأحيان في الثقافات تحت ذريعة عدم تغذيتها وتشجيعها . ولكن عدم الحديث عن الشيء لا يعني انعدامه، فما زال التعصب يعتمر في عقول الاجيال ويتوارث من جيل لآخر. وإذا أردنا علاج عطب ما لابد لنا من البحث في السبب، فكيف نفعل ذلك وفي صلاوتنا الخمسة لله وفي المساجد نخطب بالشيبان قبل الصبيان بأننا أفضل أمة أخرجت للناس، تأمرهم بالمعروف وتناهم عن المنكر. . !

إن غياب العدالة الاجتماعية، وانتشار الواسطة والمحسوبية والفساد، وضعف سلطة القانون، يدفع

المجموعات الاجتماعية إلى تطبيق العدالة بنفسهاكما يقول أمين البستاني. فالأزمات الاجتماعية(القيم، والعدالة الاجتماعية، والهوية، والتجانس) تحدث غالباً نتيجة اختلال نظام القيم والتقاليد المرعية، وانهيار آليات تسوية الصراعات الاجتماعية، مما يؤدي إلى شعور طبقات اجتماعية معينة بالاغتراب في ظل الأوضاع الراهنة لمجتمعها (أبو النصر1999،) .

## نتائج للبناء عليها

لقد توسعنا كثيرا في شرح معنى التعصب والعصبية وإبراز مفهومه الحقيقي ونستطيع تلخيص ما ذكرناه في النقاط التالية :

أولا : أنّ التعلّقات غير المنطقية- بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معيّنة أو شيء من الأشياء- تقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشيء أو الشخص، وبالتالي سيكون العامل المهم في بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر .

ثانيا : وكلّما تحرّك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصّبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنساني فإنّ الناس سوف يتعاملون في ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادئ والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات

وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيّم على المجتمع الإنساني ويعيش الإنسان في حركته الاجتماعية بكلّ أشكال الطمأنينة والمحبّة والأخوة.

ثالثا : وإنّ الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أنّ أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة في هذه القبيلة تتحوّل في نظر الأشخاص المتعصّبين إلى إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، يجب الدفاع عنها ومناصرتها مهما كانت الأسباب والنتائج، في حين أنّ أفضل أفراد القبيلة الأخرى وأسمى الآداب والسنن في تلك القبيلة قد تكون هي الأسوأ والأقبح في نظر هذا الإنسان.

رابعا : من الآثار المترتبة على ظاهرة التعصب

أ- عدم نصرة المظلوم

ب- تضييع حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وانتشار العداوة والبغضاء بين الناس

ج- التعصّب يعني الارتباط غير المنطقي بشخص معيّن أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة في الأمور وبالتالي يحرمه من العثور على طريق للحل والنجاة. ولهذا فهو لا يتمكّن من إدراك البديهيات وأوضح الحقائق بسبب تعصّبه وعناده.

د- إنّ العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة الّتي من شأنها تمزيق العلائق الاجتماعية في المجتمع وتسلب منه روح الوحدة والإلفة وتنثر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البنّاءة الّتي يجب أن تُصرف في سبيل إعمار المجتمع في حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتي فيما بينها

هـ- التعصّب والعناد يتسبّبان في ابتعاد الأحبّة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد.

خامسا : هناك عومل وأسباب عديدة يمكن أن تدفع الإنسان باتجاه التعصّب نختصرها بكلمة واحدة وهي الأنانية وحبّ الذات، لأنّ الشخص الأناني يحبّ كلّ ما لديه من العلائق والأمور أن تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الأصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائدويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أيّ تحرّك فكري واستقلال عقلي.

سادسا : تتعدد مظاهر التعصب بدون أن يغير ذلك من ظاهرته الاجتماعية البحتة، فالتعصب الديني مثلاً لا يختلف في شيء البتة عن أي تعصب آخر سواء أكان قومياً أو طائفياً أو قبلياً أو وطنياً أو مناطقياً أو عرقياَ، فكلها صور وتشكلات لظاهرة اجتماعية واحدة لكل صورة منها بواعثها النفسية الداخلية،

سابعا : يُعرّف تينو ليشتسار مصطلح التعصب على أنه السعي وراء أو الدفاع عن شيء ما بطريقة متطرفة وعاطفية تتجاوز الحدود الطبيعية. يُعرّف التعصب الديني بأنه الإيمان الأعمى والإستعداد لاضطهاد المعارضين وغياب وعي للواقع.

ثامنا : التمييز والتعصب مفهومان مرتبطان بشدة ببعضهما البعض، وكثيرا ما يستخدمان للدلالة على المعنى نفسه، ولكن الأمر ليس كذلك وسوف أقوم بالتوضيح، حيث أن التعصب هو الفكرة أو المفهوم الأوسع الذي يضم داخله التمييز على النحو السلوكي للاتجاه التعصبي، باعتباره المكون السلوكي حسب النموذج الثلاثي.

تاسعا : على الرغم من تداخل الكثير من المفاهيم مع التعصب إلا أن العنصرية مرتبطة ارتباطا وثيقا ومتداخلا جداً بمفهوم التعصب. وإلى حد واسع ومنتشر الإعتقاد أن التعصب هو نفسه العنصرية

عاشرا : يعتبر علم النفس الاجتماعي موضوع التعصب على أنه صراع بين الأفراد أو الجماعات وإن تحسين هذه العلاقات من إمكانها التخفيف من التعصب

وسنبني بحثنا عن ظاهرة التعصب والعصبية في العقل السوري على هذه النقاط .

## نظرة سريعة عن تاريخ سوريا

يعتبر علماء الآثار سورية مركزًا لإحدى أقدم الحضارات على وجه الأرض فهنا كانت بداية الاستيطان البشري وتخطيط أولى المدن واكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات ومعرفة وتطور الأبجدية هنا اكتشف (المنجل الأول والمحراث الأول) هنا قامت المدن الأولى في التاريخ، مثل المملكة الأثرية إيبلا في شمال سورية بنت إمبراطورية امتدت من البحر الأحمر جنوبا حتى تركيا شمالا وحتى الفرات شرقا مستمرة من عام 2500 إلى 2400 قبل الميلاد . تضم سورية إضافة لذلك العديد من الحضارات والمدن والممالك مثل مملكة ماري، وأوغاريت، وراميتا ، والبارة، ودورا

أوربوس، وسرجيلا، وكرك بيزة، وجرارة، وقاطورة، وعين دارة، وشمس، وباصوفان، والنبي هوري، وأرواد، وقطنا، وشهبا/ فيليبولس، وقنوات، وصلخد، وأفاميا، وحمو كار، وبعودة، والمناره، وتوتال، ودير سنبل، وإيمار، والدانا، وسرمدا وغيرها العشرات من المدن.

إن كثرة الحضارات التي قامت وتقاطعت فوق الأرض السورية والغنى الكبير للمواقع التاريخية التي تعود لكافة العصور والحضارات تجعل سورية مدخل وبوابة للتاريخ، فقد قامت على أرض سورية حضارات كثيرة وسكنها شعوب شتى يمكن تعدادها على الترتيب:السومريون، الأكاديون، الكلدان، الكنعانيون، الآراميون، الحيثيون، البابليون، الفرس، الإغريق، الرومان، النبطيون، البيزنطيون، العرب، وجزئيا الصليبيون، وأخيرًا كانت تحت سيطرة الأتراك العثمانيون كما أنها خضعت للانتداب الفرنسي بين عامي 1920 و1946 .

**حضارة إيبلا**

إبلا (بالعربية القديمة: عُبيل) مدينة أثرية سورية قديمة كانت حاضرة ومملكة عريقة يقال أن ظهورها يعود إلى 3000 قبل الميلاد . وبدأت ببناء حضارتها عن طريق التجارة مع السومريين والأكاديين حيث ازدهرت في شمال غرب سورية وبسطت نفوذها على المناطق الواقعة بين هضبة الأناضول شمالًا وشبه جزيرة سيناء جنوبًا، ووادي الفرات شرقًا وساحل المتوسط غربًا. كشفت عنها بعثة أثرية إيطالية من جامعة روما يرأسها عالم الآثار باولو ماتييه كانت تتولى التنقيب في موقع تل مرديخ قرب بلدة سراقب محافظة إدلب السورية على مسافة نحو 55 كم جنوب غرب حلب في سورية. انتهت إمبراطورية إبلا بسيطرة سارغون الأكادي عليها حوالي 2260 قبل الميلاد، لكن الأموريين استعادوا

المدينة بعد عدة قرون، وازدهرت مجددا في بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد وبقيت إلى حين قيام الحثيين. لقد اكتشف في مملكة إبلا في أول غرسة زيتون تعود لعام 2200 قبل الميلاد. وتعد سورية الموطن الأول لشجرة الزيتون.

اكتشفت آثار إبلا في عام 1975 بواسطة بعثة أثرية إيطالية من جامعة روما برئاسة باولو ماتييه. وعثر في الموقع على أرشيف يحوي حوالي 15000 لوحا مسماريا يقدر أنها تعود إلى 2250 قبل الميلاد ومكتوبة بخط مسماري مشتق من الخط المسماري السومري ولكن اللغة هي لغة سامية غير معروفة سابقا تعرف الآن بلغة إبلا، وهي من أقدم اللغات السامية المعروفة ومرتبطة بشكل وثيق بما أطلق عليه Gelb الأكدية القديمة.

## مملكة ماري

مملكة ماري هي إحدى الممالك السورية القديمة التي ازدهرت في الألف الثالث قبل الميلاد. وذكر علماء الآثار والمراجع التاريخية والباحثون أن حضارة مزدهرة أنارت بتطورها وقوانينها وتجارتها العالم القديم هي مملكة ماري التي قامت في سورية حوالي عام 2900 قبل الميلاد. وكان تأسيس هذه المملكة عن طريق سلطة اجتماعية وسياسية ملكية كان لها حضور قوي وموقع دعم في المنطقة على نهر الفرات في سورية، فقامت حضارة عريقة متأصلة ارتقت بين الحضارات هي ماري. وكان لمدينة ماري عاصمة المملكة دورا هاما في الطريق التجاري الذي يتبع مسلك الفرات في سورية الداخلية. ويعتقد أن الخارطة الجغرافية المتغيرة للمنطقة آنذاك حفزت نشوء كثير من المدن الجديدة في سورية امتدادا من الساحل إلى الداخل وفي بلاد الجزيرة السورية وما بين النهرين، فكانت ماري ميناء على نهر الفرات ترتبط مع النهر بقناة مجهزة للملاحة النهرية واستقبال المراكب والسفن التجارية، فكانت مارى صلة الوصل بين الطرفين

فهي تتوسط المسافة بينهم، فقامت وازدهرت حضارة من أهم الحضارات القديمة لذلك اعتني بعاصمة المملكة وهي مدينة ماري ومرافقها لتكون أحد أهم الحضارات المتطورة.

'ماري': - أما مدينة ماري والتي تقع على نهر الفرات على مسافة 11 كم شمال شرق البوكمال فهي مدينة سومرية قديمة أصلًا، ويعتقد أنها كانت مأهولة منذ الألف الخامسة قبل الميلاد. عثر في المدينة التي اكتشفت في ثلاثينات القرن العشرين بواسطة بعثة فرنسية على أكثر من 25000 لوحا مسماريا مكتوبا بالأكدية القديمة حسب تقسيم Gelb، والخط المستخدم في كتابة الأكدية القديمة -كما هو ذاك المستخدم في كتابة لغة إبلا- هو خط مشتق من الخط السومري ويتميز عن الخطوط الأكدية السرجونية والبابلية-الأشورية باعتماده الكبير جدا على اللوغوغرامات السومرية مما يجعل قراءته عسيرة للغاية.

بعد نشوء مملكة أكد في جنوب ما بين النهرين في القرن 23 قبل الميلاد على يد سرجون أكد تم غزو وتدمير مدينتي ماري وإبلا.

## أوغاريت

أوغاريت (اللفظ: أوگاريت). هي مملكة قديمة تقع أطلالها في موقع رأس شمرا تتبع محافظة اللاذقية في سورية على مسافة 12 كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية على ساحل البحر المتوسط وفيها تم العثور على أقدم أبجدية عرفها التاريخ. أوغاريت مدينة أثرية قديمة، وقد بينت الحفريات أن موقع رأس شمرا يشمل على حوالي 20 سوية أثرية

(استيطان) تعود حتى العام 7500 ق.م. إلا أنه مع حلول الألف الثاني قبل الميلاد تضخم الاستيطان في الموقع لتتشكل ما عرف باسم أوغاريت. هذا الاسم الذي كان معروفًا قبل اكتشافها– صدفة في العام 1928 م– من خلال ذكرها في نصوص مملكة ماري، حيث تذكر النصوص زيارة الملك زميري ليم في العام 1765 ق.م لأوغاريت، من رقيم آخر عثر عليه أيضًا في وثائق ماري، وهو عبارة عن رسالة من ملك أوغاريت إلى ملك يمحاض بعاصمتها حلب، يرجوه فيها أن يطلب من ملك ماري (مملكة ماري على نهر الفرات في سورية) أن يسمح له بزيارة قصر ماري الذي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت، وإن دل هذا على حرص أوغاريت على إقامة علاقات طيبة مع ملك ماري فإنه يدل في نفس الوقت بأنه يحرص أن تكون هذه العلاقة عن طريق وبمعرفة ملك يمحاض القوي. وكذلك ورد ذكر أوغاريت في النصوص الحثية المكتشفة في الأناضول وسورية ورسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر. وتبين من الحفريات أن أوغاريت كانت عاصمة لمملكة بلغت مساحتها 5425 كم مربع تقريبًا في القرنين الخامس عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وهي فترة ازدهار المملكة.

في العصر السوري الوسيط أي في الألف الثاني ق.م كان شمال سوريا مسرحًا للميتانيين ثم الحثيّين، وهم من أصول غير سامية، وكانوا في نزاع مع النفوذ المصري. حتى إذا جاء تحتموس الثالث استطاع التغلب في قادش(تل النبي مندو) على الحثييّن. وجرى تقاسم النفوذ في سوريا، فأصبح الشمال تحت النفوذ الميتاني، ولكن الحثيّين تمكنوا من التغلب على الميتانيين واحتلوا مكانهم.فتصدى لهم المصريون الذين شنوا معركة قادش الثانية بقيادة رمسيس الثاني ضد الحثيّين بقيادة مواتاليش ولقد أبانت ألواح أوغاريت أن شعوب البحر المتوسط قد أتت نهائيًا على نفوذ الحثيّين الذين تركوا في موقع عين دارة آثارهم الرائعة، وتعود حضارة أوغاريت إلى هذه الحقبة، وكانت زاهرة بفضل تجارتها الواسعة وأسطولها وبفضل الاحتكاك مع ثقافات أخرى، حثية ومصرية وايجية، ولقد اكتشفت هذه الحاضرة منذ عام

1929، كما تم اكتشاف مرفأ المينة البيضا بالقرب من اللاذقية. وفي المدينة حي سكني وقصر ملكي، وإلى الغرب معبد بعل، ومنطقة تجارية وصناعية تنتج المعادن الثمينة والمنسوجات. ويعد رأس ابن هاني امتدادًا لها . ونستطيع أن نضيف مدينة إيمار مسكنة إلى قائمة الحواضر التي ازدهرت في العصر السوري الوسيط، وكانت إيمار مرفأ على الفرات استطاع أن يتوسط التجارة بين ماري والساحل السوري.

## الممالك الآرامية

خلال الألفية الثالثة والثانية قبل الميلاد، قامت في سوريا حضارات كثيرة: الكنعانيون، الأموريين، الفينيقيون، الأراميون. حكم الكنعانيون معظم المناطق السورية أما الفينيقيين فقد استوطنوا على امتداد الساحل السوري مؤسسين إمبراطورية بحرية في منطقة غرب سوريا وامتد ممالك الاراميون في معظم أنحاء البلاد السورية.

### الممالك الآرامية السورية

مملكة فدان آرام وعاصمتها حران

مملكة أرام النهرين بين الفرات والخابور

مملكة بت بخياني وعاصمتها غوزانا على نهر الخابور

مملكة بت عديني وعاصمتها تل بارسيب في الجزيرة السورية

مملكة بت اغوشي وعاصمتها أرفاد تل رفعت شمال حلب

مملكة سمآل في جبال الامونوس شمال غرب سوريا

مملكة آرام حماة وعاصمتها حماة

مملكة آرام معكا في الجولان

مملكة صوبا في سهل البقاع

مملكة حبشور جنوب دمشق حتى نهر اليرموك

مملكة آرام دمشق وعاصمتها دمشق

في نهاية النصف الأول من الألف الثاني ق.م ابتدأ ظهور الآراميين في سوريا، وبعد أن تم استقرارهم انتشروا في أنحاء واسعة مشكلين ممالك متجانسة في اللغة والحضارة والعقيدة،

## العصر الآشوري

في العصر السوري الحديث، كانت السيطرة من حظ الآشوريين، ومن أشهر حواضر هذا العصر، مدينة حداتو أرسلان طاش وبارسيب تل أحمر وغوزانا تل حلف وفي هذا العصر حاول شولمانو- اشارئد الثالث عام 853 ق.م الاستيلاء على دمشق، فتصدى له حلف من الدويلات الآرامية وشارك معهم جندبو الأعرابي، وردوه.

## الغزو المقدوني

غزا الإسكندر الأكبر المقدوني الإمبراطورية الفارسية الأخمينية في عام 334 قبل الميلاد، وبعد انتصاراته في آسيا الصغرى وصل إلى شمال سورية في عام 333 قبل الميلاد واشتبك مع الفرس مجددا في معركة إسوس الفاصلة والتي قاد الفرس فيها الإمبراطور داريوس الثالث بنفسه وأسفرت عن هزيمة منكرة للفرس فر على إثرها داريوس تاركا زوجته وأمه وبناته سبايا لدى الإسكندر. وبعد هذا الانتصار سار الإسكندر في سورية حتى وصل إلى صور في عام 332 قبل الميلاد وحاصرها حصارا شهيرا نكل على إثره بأهلها.

## حروب ملوك طوائف الإسكندر

توفي الإسكندر في بابل عام 323 قبل الميلاد بدون أن يخلف وريثا، فتقاسم قادة جيشه الإمبراطورية التي خلفها، وكانت سورية من نصيب لاومدون المتليني Laomedon of Mytilene، وبابل من نصيب سلوقس نيكاتور، أما مصر وليبيا وجزيرة العرب فذهبت لبطليموس.

الوضع بعد عودة سلوقس إلى بابل وانتصاره في الحرب البابلية.

ثم بدأ التنازع بين الخلفاء اليونانيين على الأراضي، فاندلع ما يعرف بحروب ملوك الطوائف (الحروب الديادوخية) بين ورثة الاسكندر، فغزا بطليموس فينيقيا وسورية الجوفاء Coele-Syria عام 318 قبل الميلاد، بعدها غزا أنتيغونوس الأعور سورية بأكملها في عام 313 قبل الميلاد قادما من الشمال، وكان قد غزا بابل في عام 315 مما سبب هروب سلوقس إلى بطليموس وتحالفه معه. ثم عاد بطليموس مجددا واستولى على سورية الجوفاء بعد انتصاره على ديميتريوس ابن أنتيغونوس في معركة غزة عام 312 قبل الميلاد، ورغم أن هذا كان انتصارا مؤقتا عاد بعده أنتيغونوس واستولى على سورية الجوفاء إلا أنه سمح لسلوقس بالعودة إلى بابل والانتصار على أنتيغونوس في الحرب البابلية.

## الإمبراطورية السلوقية في أقصى اتساعها

واستمر النزاع بين بطليموس وأنتيغونوس على سورية الجوفاء إلى أن هزم أنتيغونيوس وقتل في معركة إبسوس Ipsus بعد أن تحالف ضده ثلاثة من الخلفاء (الديادوخات) أحدهم سلوقس. وبعد هذه المعركة آلت سورية إلى سلوقس الذي سمح لبطليموس بالاحتفاظ بسورية الجوفاء عرفانا له بجميله عندما أخرج أنتيغونوس سلوقس من بابل.

بعد هزيمة أنتيغونوس أمست تحت سيطرة سلوقس إمبراطورية شاسعة تمتد من سوريا للهند، أي أن إمبراطورية الإسكندر الأكبر كانت بأكملها تحت سيطرته باستثناء آسيا الصغرى وتراقيا واليونان ومصر. فعقد سلوقس العزم على غزو آسيا الصغرى وتراقيا واليونان، وكان له أن غزا آسيا الصغرى ولكنه اغتيل قبل أن يعبر إلى تراقيا عام 281 قبل الميلاد.

## الاعمدة المتبقية من معبد باخوس، اللاذقية

بعد حصول سلوقس على سورية بعد معركة إبسوس جعل منها مركزا لإمبراطوريته، وأعاد بناء أربع مواقع على شكل مدن جديدة واستجلب المستوطنين من اليونان ليقيموا في هذه المدن التي عرفت بالتترابولس السوري وهي:

أنطيوخية على العاصي Antiochia ad Orontem، وهي مدينة أنطاكية في لواء الإسكندرون السليب، سماها سلوقس على اسم والده أنطيوخس Antiochus وجعل منها عاصمة لإمبراطوريته، وقد ازدهرت مدينة أنطاكية في العصر الهيليني ازدهارا عظيما حتى جاوز عدد سكانها الـ 500000 مما جعلها في بدايات الحقبة الرومية ثالث أكبر مدينة في العالم بعد روما والإسكندرية التي بناها الإسكندر في مصر. وكانت أنطاكية إحدى أرقى مدن العالم ومنافسة للإسكندرية على زعامة مدن الشرق. وتعتبر أنطاكية مهد الديانة المسيحية خارج فلسطين حيث أن

أهلها كانوا أول من اعتنق المسيحية من غير اليهود . وظلت أنطاكية عاصمة لسورية طوال العصر الرومي والبيزنطي حتى الفتح الإسلامي.

سلوقية بييرية Seleucia Pieria، وكانت مرفأ مدينة أنطاكية.

لاوديقية على البحر Laodicea ad Mare، وهي اللاذقية، سماها سلوقس على اسم أمه Laodice .

أفاميا Apamea، وتقع على بعد 55 كم شمال غرب حماة، كان فيها بيت مال الدولة السلوقية وكانت من أهم المدن السورية. ظلت مزدهرة طوال العصر الرومي والبيزنطي حتى دمرها الفرس الساسانيون أثناء غزوهم لسورية في القرن السابع الميلادي، وبعد الفتح الإسلامي تم إعمارها وعرفت باسم فامية وظلت مدينة مهمة حتى دمرها زلزال عام 1152 ميلادية في زمن الحروب الصليبية.

## الحروب السورية

بعد وفاة سلوقس بدأ خلفاؤه بمحاولة توسعة الدولة في آسيا الصغرى وسورية، وأدى هذا إلى نشوء سلسلة من الحروب بين السلوقيين والبطالمة في مصر في القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد عرفت بالحروب السورية تنازع فيها الجانبان على سورية الجوفاء والتي كانت تشكل نقطة عبور إستراتيجية إلى مصر وتهديدا للحكم البطليمي فيها في حال سقوطها بيد السلوقيين.

تمكن أنطيوخس الثالث الكبير من السيطرة على سورية الجوفاء نهائيا إثر انتصاره على بطليموس الخامس في معركة بانيوم عام 198 قبل الميلاد خلال الحرب السورية الخامسة، ووقع الاثنان معاهدة عام 195 قبل الميلاد اعترف فيها

بطليموس بسيادة السلوقيين على سورية الجوفاء وذلك لكي يتفرغ لمواجهة الاضطرابات الداخلية الجسيمة التي كانت تعانيها مصر في حينه. استنزفت الحروب السورية كلا من السلوقيين والبطالمة وتركتهما في النهاية عرضة للغزو على يد الروم والفرس البارثيين.

### الحرب الرومية – السورية

مع صعود الجمهورية الرومية في الغرب اندلعت حرب باردة بين السلوقيين والروم تنازع فيها الطرفان على النفوذ في اليونان وآسية الصغرى، وتحولت هذه الحرب إلى حرب ساخنة في عام 192 قبل الميلاد مع اندلاع الحرب الرومية– السورية في عهد أنطيوخس الثالث والتي دامت أربع سنوات وشمل القتال فيها اليونان وبحر إيجة وآسية الصغرى.

### العصر الرومي

كان توسع مملكة بنطس (أخضر غامق) في آسيا الصغرى سبب اندلاع الحروب الميثريداتية بين بنطس والجمهورية الرومية (أحمر) والتي أدت في النهاية لاحتلال روما لآسيا الصغرى وسورية

سورية مركز للامبراطورية الرومية الشرقية

بعد مقتل أنطيوخس السابع السلوقي دخل ما تبقى من الدولة السلوقية في حرب أهلية تنازع فيها عدة أشخاص على السلطة، واستفادت البلاد المجاورة من بقاء السلوقيين كمنطقة عازلة، حيث كانت روما تخوض الحرب الميثريداتية الأولى ضد مملكة بنطس الهلينستية في آسيا الصغرى، وكانت بارثية تعاني من غزو الإسقوث والصراع الداخلي.

ميثريداتس السادس البنطي خاض ثلاثة حروب ضد روما سميت باسمه

غزا ملك أرمينية تيغران الكبير سورية وضمها إلى مملكته عام 83 قبل الميلاد بعد أن استدعاه أحد المتنازعين في الحرب الأهلية، ولكن بعض المدن بقيت خارج سيطرته ودانت بالولاء لسلوقس السابع الذي كان صبيا دون سلطة حقيقية.

في عام 73 قبل الميلاد استغل ملك بنطس ميثيدراتس السادس Mithridates VI اندلاع ثورة سيرتوريوس في المقاطعات الرومية في أيبيريا فشن هجوما على الروم، ولكن الروم سرعان ما رتبوا صفوفهم وأرسل مجلس الشيوخ القنصل لوكيوس ليكينيوس لوكلوس Lucius Licinius Lucullus ليواجه ميثيدراتس، وبذلك اندلعت الحرب الميثريداتية الثالثة في آسيا الصغرى.

رغم أن تحول سورية إلى مركز الامبراطورية الرومية في الشرق جاء في أواخر عهد الجمهورية، إلا أن هذه الفترة التي كانت فيها سوريا مركزا هاما في الامبراطورية كانت حافلة بالأحداث الهامة في تاريخ الامبراطورية الرومية منها تجدد الحروب الرومية–البارثية واندلاع الحروب الأهلية الرومية التي سبقت نهاية العهد الجمهوري.

**المدرج الروماني في بصرى**

زار هادريانوس بيت المقدس في العام 130 م، وكبادرة حسن نية تجاه اليهود أعلن عزمه إعادة بناء بيت المقدس، ولكن فرحة اليهود لم تتم عندما علموا أنه يعتزم بناء المدينة على النمط الرومي وأنه ينوي أن يبني معبدا روميا جديدا مكان الهيكل، والذي لا بد أنه سيكون مكرسا للإله يوبيتر. ازداد اضطراب اليهود بعد أن بدأت أعمال البناء حيث

اعتبر كثير منهم أن «الحرث فوق الهيكل» إساءة دينية عظيمة، واستدعى الروم الفيلق السادس المدرع Legio VI Ferrata من بصرى إلى اليهودية لفرض النظام. وتزايد سخط اليهود أكثر عندما أصدر هادريانوس قرارا بمنع الختان الذي اتفق هادريانوس مع اليونانيين في اعتباره «تشويها وطقسا بربريا»

خلال العصر الرومي، كانت عاصمة سوريا وأكبر مدنها هي مدينة أنتيوخ (أنطاكية القديمة) حيث كان يقدر عدد سكانها ب 500 ألف نسمة، وكانت إنتيوخ تعد أغنى وأكثر المناطق اكتظاظا في الامبراطورية الرومية، إضافة للعديد من مدن سوريا مثل دمشق التي كانت من مراكز الامبراطورية وبصرى وشهبا وقنوات وبراد وغيرها من المدن التي أصبحت مراكز للامبراطورية الرومية الشرقية.

## العصر البيزنطي

### الإمبراطورية البيزنطية

هو العصر الذي تميز بانتقال القوة في الامبراطورية الرومية إلى القسم الشرقي القسطنطينية وذلك بعد سقوط العاصمة الغربية للامبراطورية روما في ذاك الوقت في ايدي البرابرة وهنا نستطيع أن نميز التاريخ الجديد للروم في الشرق والذي تميز باعتناق الروم للديانة المسيحية ولقد استمر العصر البيزنطي في سورية من عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير أي القرن الرابع الميلادي وحتى الفتح الإسلامي لسورية في عهد الإمبراطور هرقل في عام 636 ميلادية

## الأمويون والعباسيون

الفتح الإسلامي لبلاد الشام والدولة الأموية والدولة العباسية وزنكيون وأيوبيون وسلاجقة وإمارة الرها وكونتية طرابلس وصلاح الدين الأيوبي ومماليك

إثر نهاية حروب الردة في خريف عام 633 أرسل الخليفة الأول أبو بكر الصديق ثلاثة ألوية حربية إلى الشام لمحاربة البيزنطيين بقيادة عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان والشرحبيل بن حسنة وآزرهم بعد ذلك خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعدد من القبائل العربية الإسلامية والمسيحية على حد سواء أبرزها قبيلة بني شيبان وبني تغلب وعموم المناذرة. وإثر وفاة أبو بكر تابع عمر بن الخطاب سياسة الفتوح والحرب، فاستسلمت دمشق بعد حصار دام ستة أشهر، وكان كتاب الأمان المعطى لأهلها نموذجًا لاستسلام سائر المدن السورية، ففتح أبو عبيدة بن الجراح حمص وحماة ومعرة النعمان وأفاميا وطرطوس وبانياس صلحًا دون قتال عام 636، وقد شهد ذلك العام أيضًا معركة اليرموك في 20 أغسطس والتي مني بها البيزنطيون بهزيمة ساحقة شكلت انطلاقًا للمرحلة الثانية للفتح، فاستطاع أبو عبيدة بن الجراح فتح حلب وجوارها ومدن الفرات دون قتال أيضًا . عين عمر بن الخطاب القائد يزيد بن أبي سفيان واليًا على سوريا وإثر وفاته عيّن أخاه معاوية بن أبي سفيان واليًا عليها عام 640، وعندما بويع علي بن أبي طالب بالخلافة في 24 حزيران/يونيو 656 رفض معاوية مبايعته واستمرت الحروب بين الفريقين حتى اغتيال الخوارج لعلي في 24 يناير 661، تلا ذلك تنحي الحسن بن علي عن الخلافة فأخذت البيعة لمعاوية فتأسست بذلك الدولة الأموية وعاصمتها دمشق.

استمر الأمويون بحكم سوريا 132 عامًا، ازدهرت خلالها البلاد وانتعش اقتصادها، إذ شق الأمويون الطرق بين المدن واهتموا بالزراعة وبنوا الحمامات والفنادق وأسسوا نظامًا بريديًا سريعًا إلى جانب نظام إداري فعال تمثل بالدواوين. كما اهتم الأمويون بالعمارة وبدوا المسجد الأموي في دمشق الذي شيده الوليد بن عبد الملك والمسجد الأموي في حلب دليلًا على تطور فن الزخرفة والرسم والتطعيم بالخشب. أشاد الأمويون أيضًا القصور والقلاع كقصري الحير الشرقي والغربي وقصر أسيس وقصر الرصافة خلال عهد هشام بن عبد الملك، وقد اكتشف في ثلاثينات القرن

العشرين ثلاثون قلعة في بادية الشام تعود لزمن الأمويين، كانت كمراكز نزهة واصطياف لهم إلى جانب كونها مناطق استغلها الأمويون زراعيًا لتأمين دمشق أوقات القحط. يقول الباحث عبد العزيز الدروري أنه على الرغم من تطور البلاد خلال العهد الأموي إلا أن الأسرة الأموية مارست التمييز العنصري والطبقي خصوصًا بين العرب وغير العرب، لذلك فقد كانت الثورة العباسية حسب رأيه حركة سياسية ذات أسباب اجتماعية، نادت بالمساواة بين الموالي والعرب في الوظائف ومناصب الجيش والضرائب، وكان قوامها الرئيسي فلاحو الريف وفقراء المدن في الولايات البعيدة عن دمشق. وقد استطاع العباسيون بقيادة أبو العباس السفاح الانتصار على جيش الأمويين بقيادة آخر خلفائهم مروان بن محمد عام 749، فزال بذلك العهد الأموي وبدأ العهد العباسي.

نقل أبو العباس السفاح عاصمة الدولة إلى الكوفة بعد أن قتل العائلة الأموية ونبش قبور خلفائها في دمشق وهدم جزءًا من سورها. لاحقًا في عام 762 بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد لتكون عاصمة جديدة للدولة. عاشت الدولة العباسية عصرها الذهبي بين عامي 775 و847 تراجعت خلالها مكانة سوريا، غير أن الخلفاء العباسيين قد أدركوا أهمية موقعها كطريق تجاري وصلة وصل فضلًا عن كونها مركز حربي مع الإمبراطورية البيزنطية واستقرار عدد كبير من القبائل العربية ذات القوة والسلطان فيها، لذلك فقد أولوها اهتمامًا خاصًا وغالبًا ما كان أولياء العهد أو كبار قادة الجيش يتولون شؤون مدنها وولاياتها كالمهدي ولي عهد أبي جعفر المنصور والذي كان واليًا على الرقة. ولعل أبرز الشخصيات السياسية السورية في العهد العباسي هو مالك بن طوق والي الرحبة الذي ذاع صيته حتى بات مضربًا للمثل. ويذكر أن هارون الرشيد والمأمون قاما بالاستقرار بدمشق طلبًا للصحة وحسن المنظر على ما يذكر ابن عساكر، ولكونها خط الدفاع المتقدم عن العراق أرض الخلافة قام العباسيون بتشييد عددٍ من القلاع كقلعة جعبر

على نهر الفرات خصوصًا إثر امتداد النفوذ الفاطمي نحو بلاد الشام. أما على الصعيد الثقافي فقد برز عدد الأدباء والعلماء السوريين خصوصًا في عهد التراجم وجامعة بيت الحكمة.

قلعة الحصن قرب حمص، التي أعاد بنائها الصليبيون وسيطر عليها فرسان الإسبتارية، ولم ينسحبوا منها نهائيًا حتى عام 1271.

غدا الفرس بدءا من عهد المأمون وزراء الدولة وقوامها، واستبدلهم المعتصم بالله بالأتراك ما شكل بداية أفول الدولة العباسية، ويحدد الباحثون خلافة تاسع الخلفاء العباسيين المتوكل على الله تاريخًا لبدء اضمحلال الدولة وتفككها إلى دول مستقلة تخضع لسيادة بغداد اسميًا، فتوالى الإخشيد والقرامطة والطولونيون والحمدانيون فالمرادسيون والعقيليون على حكم سوريا، واستطاع البيزنطيون استعادة أنطاكية وحلب عام 962 ردحًا من الزمن، ثم برزت الخلافة الفاطمية في مصر والتي تمكنت في احتلال دمشق ومدنًا سوريّة أخرى ردحًا من الزمن بداية القرن الحادي عشر، غير أن السلاجقة قاموا بطردهم وأسسوا دولة في دمشق والجنوب السوري بزعامة تتش بن ألب أرسلان. ترافقت تلك الحقبة بتراجع الوضع الاقتصادي وانتشار الاضطهادات الدينية لمختلف الأقليات فضلًا عن الكوارث الطبيعية التي حاقت بمختلف المدن السورية، كما نشأت إبان تلك المرحلة عدد من الطوائف الإسلامية التي لا تزال مستقرة في سوريا كالدروز والعلويون.

في ظل هذه الأوضاع وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، ودخلت الرها في 6 فبراير 1098 سلمًا، ثم فتحت أنطاكية في أغسطس 1098 ومنها انتقلت في سربين ساحلي وداخلي نحو الجنوب، فسقطت طرطوس في يناير 1099، وصالح ابن عمار والي طرابلس الحملة التي استمرت على الطريق الساحلي نحو الجنوب حتى استولت على القدس في

12 تموز/يوليو 1099. ضمن حدود سوريا اليوم، فإن إمارة أنطاكية استولت على محافظة اللاذقية وأجزاء من محافظات طرطوس وادلب وحماه، واستولت إمارة طرابلس على قسم من محافظتي طرطوس وحمص في حين احتلت مملكة بيت المقدس أجزاءً كبيرة من الجولان.

برز في سوريا عام 1127 عماد الدين زنكي والذي اتخذ من حلب عاصمة له. استطاع عماد الدين زنكي استعادة إمارة الرها الصليبية برمتها، وحاول الصليبيون كرد على سقوط الرها احتلال دمشق خلال الحملة الصليبية الثانية، بيد أن الحملة قد باءت بالفشل ولم تحقق أهدافها. لاحقًا استطاع نور الدين زنكي ابن عماد الدين ووريثه أن يفتح دمشق التي كانت تحت حكم السلاجقة ثم فتح مصر وقضى على الخلافة الفاطمية. إثر وفاة نور الدين زنكي برز صلاح الدين الأيوبي الذي قبض على الحكم في بلاد الشام ومصر ومناطق متفرقة أخرى، مؤسسًا الدولة الأيوبية كما استطاع استعادة القدس من الصليبيين عام 1187، لكن فتوحه في الساحل السوري قد اقتصرت على بعض القلاع والحصون، غير أن هذه المهمة قد تركت للمماليك الذين خلفوا الأيوبيين في حكم بلاد الشام ومصر عام 1250، فاستطاع الظاهر بيبرس فتح أنطاكية في 21 أيار/مايو 1268 وطرابلس عام 1285 فعكا عام 1291 منهيًا بذلك العصر الصليبي، وقاوم المماليك المغول أيضًا ودحروهم في معركة عين جالوت عام 1260 بعد أن كان المغول قد دمروا حلب وحمص وأحرقوهما، غير أن تيمورلنك أعاد الكرّة على سوريا بعد قرن ونصف، فاحتل حلب عام 1400 وحمص وحماة ودمشق عام 1401، وأحرق المسجد الأموي وسبا العمال والحرفيين إلى عاصمته سمرقند وبلغ عدد القتلى الذين سقطوا على أيدي جنود تيمورلنك في قلعة حلب وحدها عشرون ألفًا، وفي حريق المسجد الأموي والأحياء المحيطة به والذي أشعله تيمورلنك عنوة ثلاثين ألفًا.

استطاع المماليك استعادة سوريا وقسموا بلاد الشام إلى ست نيابات ثلاث منها في سوريا الحالية هي دمشق وحلب وحماة. تميز العهد المملوكي عمومًا بكثرة الانقلابات العسكرية الداخلية والحروب والمجاعات والأوبئة فضلًا عن اندثار الثقافة وانتشار الأمية والفساد في السلطة، وقد انخفض عدد سكان سوريا إلى الثلث خلال حكمهم، ولم يبال السكان بانهيار الدولة المملوكية إثر معركة مرج دابق، وفتح السكان أبواب مدنهم سلمًا للعثمانيين.

## العصر العثماني

التقى الجيش العثماني والجيش المملوكي في مرج دابق شمال حلب، وكان الجيش العثماني مكونًا من مائة وخمسين ألف مقاتل ومزودًا بسلاح المدفعية الذي لم يستعمل قط في سوريا قبلًا تحت قيادة السلطان سليم الأول، والذي كان قد استمال سلفًا خير بيك النائب المملوكي في حلب وجان برادلي الغزالي النائب المملوكي في دمشق،، وإثر هزيمة المماليك دخل السلطان إلى حلب ومنها انتقل إلى دمشق فدخلها يوم 26 أيلول/سبتمبر 1516 وأضاف إمام المسجد الأموي عبارة «خادم الحرمين الشريفين» لاسم السلطان الذي أمر بترميم المسجد الأموي، ثم غادر سوريا إلى مصر فملكها ومكث بها شهرًا قبل أن يعود إلى دمشق ليرتب أحوال الولايات وسائر الأمور الإدراية. قسم السلطان سليم الأول سوريا إلى ولايتين هما ولاية سوريا وولاية حلب، ثم استحدثت عام 1520 ولاية طرابلس التي ضمت في سوريا اللاذقية وطرطوس وحمص وحماة والسلمية، واستحدث العثمانيون مطلع القرن السابع عشر ولاية الرقة، لتظل التقاسيم على حالها حتى نهاية القرن التاسع عشر حين أتبعت حمص وحماة لولاية سوريا التي فصل عنها سنجقا عكا ونابلس وضما إلى ولاية بيروت، كما استحدثت متصرفية الزور عام 1904 كهيئة إدارية مرتبطة مباشرة بالباب العالي بسبب الاضطرابات التي كان يسببها البدو.

خان أسعد باشا في دمشق والذي بناه الوالي أسعد باشا العظم عام 1753.

### الولايات السورية في الدولة العثمانية

إثر وفاة السلطان سليم الأول عام 1520 أعلن جان بردي الغزالي الثورة والاستقلال عن الدولة العثمانية، فما كان من السلطان سليمان القانوني إلا أن أرسل جيشًا بقيادة فرهاد باشا والي حلب قضى على ثورة دمشق وأحرق ثلثها. لاحقًا خلال القرن السابع عشر دخلت أجزاء واسعة من سوريا ضمن إمارة فخر الدين المعني الثاني والذي أقر له السلطان مراد الرابع بحكم جميع الأراضي الواقعة بين حلب والقدس وخلع عليه لقب «سلطان البر». استطاع فخر الدين بحكم سياسته الاقتصادية والاجتماعية المنفتحة أن ينهض بالبلاد، حتى أطلق المؤرخون على تلك الفترة اسم «بداية عصر النهضة في بلاد الشام»، إذ اهتمّ الأمير بالزراعة وصناعة الحرير وسيّر القوافل التجارية البحرية مع إيطاليا، وفي عام 1630 ضم مدينة تدمر إلى حكمه، غير أن السلطان مراد الرابع تخوف من تنامي نفوذه فقرر التخلص منه، واستطاع والي دمشق اعتقاله وإرساله إلى إسطنبول حيث شنق وثلاثة من أولاده في أحد المساجد بتهمة الزندقة.

عمومًا، فإن الوضع الاقتصادي في سوريا طوال العهد العثماني لم يكن جيدًا خصوصًا بعد منح الامتيازات الأجنبية لفرنسا ومن ثم لسائر الدول الأوروبية، إذ قد ملأت الأسواق المحلية بالبضائع الأجنبية، إلى جانب أن تكرار الحروب التي خاضها السلاطين أدت إلى زيادة الضرائب وفقدان البلاد لعناصرها الشابة لفترات طويلة من الزمن. وقد تكررت الثورات الاستقلالية الشبيهة بحركة الأمير فخر الدين خلال القرن الثامن عشر وقد تكون ثورتي ظاهر العمر وعلي بك الكبير أشهرهما. أما القرن التاسع عشر فقد افتتح بمحاولة نابليون بونابرت احتلال سوريا عام 1800 غير أنه قد

فشل قبل الوصول إليها على أسوار عكا، غير أن الحملة الفرنسية على مصر ساهمت بتهيئة المناخ السياسي لظهور محمد علي الذي اعترف به السلطان محمود الثاني واليًا عام 1805، لاحقًا وعد السلطان محمد علي بأن يمنحه ولايات بلاد الشام جميعها إذا ما شارك محمد علي في حروب الدولة ضد اليونان عام 1827، وقد استجاب محمد علي لطلب السطلان، لكن جيوش الدولة وجيوش محمد علي لم تقو على الأساطيل الأوروبية مجتمعة في اليونان فمنيوا بهزيمة خلال معركة نافارين. استقلال اليونان إثر هزيمة الدولة العثمانية أدت إلى رفض السلطان محمود الثاني منح محمد علي ولايات بلاد الشام، فقام محمد علي بإرسال جيش بقيادة ابنه إبراهيم باشا بداية عام 1831، واستطاع الانتصار على الجيش العثماني بقيادة حسين باشا في معركة حمص الفاصلة يوم 8 حزيران/يونيو 1832، وقد ساند سكان سوريا إبراهيم باشا وقاتلوا في صفوفه.

كان حكم إبراهيم باشا لسوريا إصلاحيًا، إذ وفر الأمن للطرق التجارية بين المدن، واهتم بالتعليم الذي لم يمنحه العثمانيون أية أهمية، وسمح بتأسيس مدارس البعثات الأوروبية كما قام بتوطين البدو بعد أن بنى القرى لهم، وقام بتوسيع الأراضي الصالحة للزراعة واهتم بصناعة الحرير وخفّض الضرائب وأنشأ نظام بريد فعال داخل سوريا، كما أنشأ لأول مرة في سوريا مجالس المدن لإدارة شؤون الأحياء والمدن من قبل قاطنيها. حكم محمد علي وابنه إبراهيم باشا في سوريا لم يطل، إذ فرضت عليه الدول الأوروبية عام 1840 الانسحاب من بلاد الشام خوفًا من تمدد نفوذه نحو الأناضول، وبعد أن خرج إبراهيم باشا من سوريا انهارت الإصلاحات التي تمت في عهده، إذ انخفض عدد أنوال الحرير من خمسين ألفًا إلى ألفان فقط، وبعد أن كانت البلاد تصدر المنسوجات القطنية أصبحت تستوردها، كما اختفت القرى الجديدة التي أنشئت حول دمشق وحلب وفي وادي الفرات بنتيجة الضرائب الباهضة وفقدان الأمن. ولعل من العلامات الفارقة لتلك المرحلة اندلاع الفتن الطائفية بين المسلمين والمسيحيين في جبل لبنان ومنها انتقلت إلى

دمشق وحلب واللاذقية وزحلة وغيرها من المدن، وكانت حصيلتها النهائية اثني عشر ألف قتيلًا ، ما جعل سوريا مشرعة الأبواب أمام الدول الأوروبية للتدخل في أدق شؤونها .

طور العثمانيون نمطًا معماريًا فريدًا ، وبنوا المساجد والقصور والخانات والأسواق الشعبية، غير أن هذه النهضة المعمارية تمت بشكل رئيسي في المدن الكبرى ومراكز الولايات، وقلّت حتى اختفت في سائر المدن، وكانت ميول الوالي تلعب دورًا في التشجيع على العمارة وتنشيط الاقتصاد ، وقد توالى في دمشق وحلب عدد من الولاة الإصلاحيين كولاة آل العظم وأحمد مدحت باشا وغيرهم .

يعرف القرن التاسع عشر في سوريا باسم عصر النهضة القومية والفكرية، إذ تم تأسيس المطابع ودور النشر والمجلات والصحف والمدراس والجامعات، إما عن طريق أبناء البلاد مباشرة أو عن طريق بعثات أوروبية، كما كان لوالي دمشق مدحت باشا دورًا في عملية التنمية الاقتصادية إلى جانب التنمية الفكرية. وقد تأسست في بدءًا من أواخر القرن التاسع عشر العديد من الجمعيات الوطنية والتي تشبه الأحزاب حاليًا كالجمعية السرية عام 1875 وجمعية العهد عام 1909، وجمعية العربية الفتاة عام 1911 وحزب اللامركزية الإدارية وحزب سوريا الفتاة عام 1912. وكانت هذه الأحزاب متباينة في أهدافها بين الحفاظ على الارتباط مع الدولة العثمانية والدعوة للاستقلال عنها ، وعقدت في مؤتمر باريس في 18 حزيران/يونيو 1913 واستقر الرأي على المطالبة بمنح حكم لا مركزي واسع لبلاد الشام يكون له جيشه الخاص، وعلى الرغم من مصادقة السلطان محمد الخامس على مقررات المؤتمر في 18 أغسطس 1913 لاحتواء نفوذ الوطنيين الشعبي، غير أن مقررات المؤتمر لم تدخل أبدًا حيّز التنفيذ ، بل العكس تمامًا أخذت السلطات باعتقال الرموز الوطنية.

وقد انتشرت خلال أواخر القرن التاسع عشر ظاهرة الهجرة إلى مصر والعالم الجديد هربًا من الفقر واضطهاد الإقطاع في القرى، فضلًا عن المجاعة التي ضربت البلاد بعد أن ظهرت أسراب الجراد في ربيع 1915، فأتت على المحاصيل، وما زاد الأمر سوءًا تلاعب التجارة والموظفين الأتراك بأسعار الطعام ويقول المؤرخ أسعد داغر حول المجاعة: فكان الفقراء يموتون جوعًا ، وكنت ترى جثث الموتى على قوارع الطرق، ومات في شمال سوريا وحدها ستين إلى ثمانين ألفًا بالمجاعة.

**ملاحظة : هذه المعلومات التاريخية المذكورة مأخوذة من موقع ويكيبيديا الحرة**

## بنية العقل السوري

### أولا العصبية والتعصب

### تركيبة المجتمع السوري

تعتبر تركيبة المجتمع السوري من التركيبات المتنوعة والمتناقضة والمعقدة ويعود ذلك لأسباب التالية :

أولا : التنوع الحضاري فسوريا تعتبر مهد الحضارات وقد مر عليها الكثير من الحضارات والأمم والحروب والغزوات وقد تحدثنا عن ذلك .

ثانيا : ونتيجة لغنى هذا التراث الحضاري فمن الطبيعي أن يتواجد في سوريا مختلف الأديان والعقائد والطوائف والمذاهب والملل والفرق فهناك المسلمين السنة والشيعة والعلوية والاسماعيلية والدروز الايزيديون وتنقسم طوائف المسلمين الى مذاهب وفرق وهناك المسيحيين الروم الأرثوذكس وهم الأغلبية يليهم السريان الأرثوذكس والروم الكاثوليك مع وجود جماعات مختلفة من اللاتين والبروتستانت والموارنة والكلدان والآشوريين والسريان الكاثوليك والأرمن، وتحوي حلب وحدها عشر أبرشيات في حين تعتبر دمشق كرسي بطريركي ومقرًا لثلاث كنائس على مستوى العالم .كما كان في سوريا اليهود .

ثالثا : ونتيجة لهذا الغنى الحضاري أيضا فلقد تعددت القوميات الموجودة في سوريا كالعرب والأكراد والتركمان والأرمن والسريان والاشوريين والجركس وغيرهم .

رابعا : ونتيجة للتواجد العربي القديم في سوريا وتدفق هجرة القبائل العربية فلقد تنوع الوجود القبلي والعشائري في سوريا بشكل كبير وهناك المئات من هذه القبائل والعشائر منتشرة في الجغرافيا السورية وخاصة في الأرياف ومناطق البادية السورية والجزيرة والفرات ولا تزال عقيدة الارتباط بالعشيرة قوية في المجتمع السوري .

خامسا : لقد نشأت مكان مدن وقرى الحضارات و الممالك السورية القديمة مدن حديثة وبلغت 14 مركزا للمحافظات السورية ومن الطبيعي أن تنشأ خصوصية تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية لكل محافظة الا انه مع

تطور الحس الاجتماعي وفي ظل غياب المفهوم والوعي الوطني فلقد تشكلت ظاهرة المكانية والتي تحولت الى شكل من أشكال التعصب كما سنرى .

## أشكال وأنماط ظاهرة العصبية والتعصب

ونتيجة لهذا الوضع التاريخي والحضاري والديني والجغرافي والتنوع والتعدد الثقافي والاجتماعي يمكننا بيان أنماط وأشكال ظاهرة العصبية والتعصب في المجتمع السوري و وهي :

أولا : التعصب الديني الطائفي والمذهبي .

ثانيا : التعصب العرقي

ثالثا : التعصب القبائلي والعشائري

رابعا : التعصب الأيديولوجي

## أولا

## ظاهرة التعصب الطائفي والديني

يمكننا وصف ظاهرة التعصب بأنها شيطان نائم أو عفريت بقمقم ينتظر أي فرصة ملائمة ليستيقظ ويفعل فعلته وهذا ما حدث في العقل السوري او المجتمع السوري بشكل عام .

لقد رأينا من قال ان التعصب قد يكون محمودا ومفيدا وهذا رأي ابن خلدون نفسه فالعصبية والتعصب نافعة حينما تكون وتشكل فعل جماعي وطني لمقاومة عدوان أو لنصرة مظلوم او تتشكل على عصبة النصرة للحق ودرء الفتن وغير ذلك فهي من أشد الظواهر المدمرة للمجتمعات .

ان الأغلبية في سوريا أيام الفتح الإسلامي كانت مسلمة حيث لا طوائف ولا مذاهب ولا ملل ولا فرق وكان الوجود المسيحي واليهودي في سوريا وجودا أصيلا وعربيا فالنصارى واليهود العرب متواجدون في سوريا ولم يكن هناك من دواعي دينية لأضهادهم دينيا او عرقيا فهم من أهل الكتاب وهم عرب .

ان أول عصبية دينية مدمرة حصلت في الأسلام هي العصبة التي تشكلت لمؤازرة علي بن طالب رضي الله عنه والقتال معه ضد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه هو الأخر وكانت تسمى جماعة علي ثم شيعة علي حيث لم يكن الطرف الأخر قد سمى بعد اسمه بأهل السنة والجماعة وتمت هذه التسمية فيما بعد .

## لمحة تاريخية سريعة عن تشكل الطوائف والمذاهب في سوريا

### العلويين ( النصيرية )

تتوزع الطائفة العلوية إلى 4 عشائر رئيسية، هي: الخياطين، والمتاورة، والحدادين، والكلبية يعتبر العلويون السوريون جزءا من فئة العلويين العرب التي يبلغ تعدادها حوالي 4 ملايين نسمة، يعيش أغلبهم في منطقة تمتد بشكل هلالي على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من شمال لبنان إلى سهول كيليكيا في تركيا، والعلويون السوريون هم أكبر فئة بين العلويين العرب، ويشكلون حوالي 12% من سكان سوريا، أي حوالي 3 ملايين نسمة.

يتركز العلويون في شمال غرب سوريا، خاصة في مدينتَي اللاذقية وطرطوس، وهناك تجمعات علوية في دمشق والريف المحيط بمدينتي حمص وحماة، ولكن أغلب العلويين يعيشون في قرى صغيرة عديدة في منطقة الجبال الساحلية. وتتوزع الطائفة العلوية إلى 4 عشائر رئيسية، هي: الخياطين، والمتاورة، والحدادين، والكلبية تتضمن كل من هذه العشائر عدة فئات صغيرة متحالفة، إذ تسكن عشائر الخياطين المناطق الجنوبية من الجبال الساحلية وحول نهر الكبير الذي يجري على مسار الحدود اللبنانية. ويتركز المتاورة في شمال اللاذقية وشرقها حتى الحدود التركية شمالا ومنطقة مصياف جنوبا . في حين تسكن عشائر الحدادين التي كانت أكبر وأقوى العشائر العلوية قبل صعود عائلة الأسد في المناطق

الساحلية حول مدن طرطوس وبانياس وجبلة واللاذقية. وأخيرا تتركز عشائر الكلبية حول قرية القرداحة وفي مناطق جبلة والحفلة واللاذقية.

ورغم الغموض الذي يلف عقائد العلوية وشعائرهم لدرجة لا تسمح لأبناء الطائفة أنفسهم بالتعرف إلى العقيدة العلوية وشعائرها إلا بتحقق مجموعة من الشروط، فإن عدة كتب نادرة نشرها علويون قد خرجوا من العلوية أكدت أن المعتقدات الدينية العلوية تتضمن عناصر توفيقية من مذاهب وديانات مختلفة، بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح، بجانب رفع مرتبة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مرتبة الألوهية.

## العلوي الأول.. تأسيس الطائفة

يبدأ التاريخ العلوي بمؤسس هذه الطائفة، وهو محمد بن نُصير، الذي وُلد في عام 833م أو 873م بالعراق في منتصف القرن التاسع الميلادي والثالث الهجري حيث أصبح ابن نصير جزءا من حركة غلاة الشيعة التي نشأت في القرن الثامن الميلادي في مدينة الكوفة بالعراق، والتي انطلقت من تنزيه وتقديس الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته.

وقد ظهرت حركة غلاة الشيعة بالعراق في سياق التمزق السياسي للإسلام في القرون الأولى، حيث اشتعل الجدل الذي وصل لحد الاقتتال أحيانا بين الفرق التي اتبعت مذاهب وعقائد مختلفة ببغداد التي كانت وقتها ملتقى لجميع فرق وعقائد الشرق الأدنى والأقصى. وقد اشتد الخلاف بين الفرقتين الرئيسيتين في الإسلام، وهما السنة والشيعة، وكان الخلاف بالأساس خلافا سياسيا يرتكز حول طريقة اختيار الحاكم، إذ رأى الشيعة أن الخليفة يجب أن يكون من (آل البيت) حصراً، قبل أن يقرر غلاة الشيعة أن يرتفعوا بالخلاف إلى المستوى العقدي بوضع الإمام علي بن أبي

طالب في منزلة الألوهية، ويذهب عديد من المؤرخين إلى أن أول من بدأ بتأليه "علي" كان عبد الله بن سبأ، وهو يهودي يمني تحول إلى الاسلام في فترة حكم الإمام علي وأعلن تقديسه للإمام على الملأ.

كان محمد بن نصير عالم دين ذا شخصية غامضة وشعبية جذابة في أواسط القرن التاسع الميلادي، فقد كان ينتمي إلى قبيلة بني نمير الشيعية التي سكنت قرب نهر الفرات في العراق، وكانت من حلفاء قبيلة بني تغلب التي شكلت نواة الدولة الحمدانية بمدينة حلب في القرن العاشر الميلادي. بزغ نجم ابن نصير عندما زعم سنة 850م أنه الباب لأئمة الشيعة المعصومين، وقد أكد ذلك الشيخ العلوي نصير إيزكيوكاك في حوار أجراه معه الباحث ليون غولد سميث، حيث قال: "محمد بن نصير في عقيدة العلويين هو الباب والخادم للإمام الحسن العسكري والإمام الحادي عشر من أهل البيت".

فبحكم شخصيته وولاءاته القبلية استطاع محمد بن نصير أن يتقرب من بعض أئمة الشيعة حينذاك، مثل الإمام علي الهادي الإمام العاشر، والإمام أبو محمد الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر، لدى الشيعة الإمامية. وهناك رواية مشهورة في التراث العلوي تقدم صورة عن تلك العلاقة بين أئمة الشيعة وابن نصير، تقول: "جاءت جماعة من فرسان العجم لزيارة الإمام الحسن العسكري، ووجدوه يرتدي زيا أخضر اللون، وأحاط نفسه بسجاجيد ووسائد خضر، وبجواره جلس ابن نصير باللباس الأخضر أيضا...، طلب منهم الإمام أن يقدموا طلباتهم وما يريدون...، أعطى كلٍّ منهم الإمام دينارا، فتوجه الإمام بالدنانير إلى ابن نصير للتوقيع عليها وإعادتها إلى أصحابها...، وفوجئ الجميع عندما وجدوا عبارة مكتوبة على وجه كل دينار تقول: [لا إله إلا الحسن العسكري، واسمه محمد، وبابه أبو شعيب محمد بن نصير بن بكري النميري، ومن يقول بغير ذلك فهو كاذب]".

تضع هذه القصة بدايات التراث العلوي جنبا إلى جنب مع زعماء وأئمة الشيعة، كما أنها تشير إلى إيمانهم بقدسية وعصمة سلالة علي بن أبي طالب عليه السلام، لكن لا يوجد في التراث العلوي ما يوضح كيف تأسست "الطائفة العلوية" وكيف انتشرت حتى ذلك الوقت، إلا ما سجله التاريخ في ذلك الوقت من التضامن الذي لاقاه ابن نصير من قبيلته "بني نمير"، ويؤيد هذا الاستنتاج استمرار الالتزام الصارم في بني نمير وحلفائهم من بني تغلب (الحمدانيين فيما بعد) بعقائد الشيعة.

ورغم تلك العلاقات والتضامن الذي لاقاه ابن نُصير، سرعان ما اكتسب كثيرا من العداوات في كلتا المؤسستين الدينيتين السنية والشيعية على السواء، بل قام بعض زعماء الشيعة بتكذيبه ولعنه واتهموه بالكذب والفحش والفسوق والسلوك غير الأخلاقي وسرقة أموال الناس بزعم اتصاله الروحي بالأئمة، ما أدى في النهاية إلى إدانته وطرده من الطائفة الشيعية غير أن هذا الطرد هو نفسه ما يشكل بداية سردية المظلومية في التاريخ العلوي، حيث يعتقد العلويون أن طرد ابن نصير حرمه من مكانته الحقيقية في تسلسل أئمة الشيعة.

تُوفي ابن نصير عام 873م أو 883م، وتولى من بعده محمد بن جندب ثم عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني زعامة الطائفة، دون أي تطور ملحوظ في هوية تلك الطائفة الهامشية التي كانت في طريقها إلى الاندثار، إلا أن ظهور أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي من منطقة جنبلا في جنوب العراق حوالي سنة 926م كان بداية تشكل هوية الطائفة العلوية، فقد كان الخصيبي زعيما قبليا بقبيلة بني حمدان، وساعدته روابط القبيلة في نشر الدعوة إلى "الديانة العلوية".

غير أن الظروف السياسية التي بدأ خلالها مواجهة طوائف الغلاة من الشيعة ومعهم العلويون أدت إلى سجن الخصيبي، فإن الروايات التاريخية تقول إنه استطاع الهرب إلى سوريا بعدما رأى رؤيا في منامه حثه فيها المسيح على الهجرة إليها . فيما يعود السبب الحقيقي للجوء الخصيبي إلى وجود أقربائه الذين كانوا قد أسسوا دولة الحمدانيين في حلب وامتد ملكها حتى منطقة اللاذقية على الساحل السوري. وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العلويين تحولوا فيه من سكنى المدن إلى سكنى الجبال.

من العمران الحضري إلى العمران البدوي

أصبح العلويون أكثر بداوة وتوحشا عندما انعزلوا في الجبال وتشكلت لديهم حالة التماسك الجماعي التي يصفها ابن خلدون بالعصبية.

غادر الخصيبي بغداد إلى سوريا، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في تحول الطائفة العلوية من أقلية مدنية منتشرة إلى أقلية ريفية متماسكة ومتراصة، وهي المرحلة الضرورية في نظرية ابن خلدون لتشكيل عصبية قوية. و"العصبية" عند ابن خلدون فكرة ترتبط بتنشيط وتعبئة التضامن القبلي أو رابطة الدم والقربى من أجل تحقيق أهداف سياسية.

لكن العصبية عند ابن خلدون هي حالة أكثر من مجرد الشعور النفسي بالتضامن لدى قبيلة أو فئة أو طائفة دينية، بل هي قوة من الدعم والتأييد الفعلية أو الكامنة التي تحملها جماعة ترى أحقيتها في الحكم. وفي ذلك يقول ابن خلدون: "الغلب للأمم يكون بالإقدام والبسالة، فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه" . وصفة "أكثر توحشا" التي ذكرها ابن خلدون تشير إلى أن بُعد جماعةٍ ما عن المجتمع

المتحضر يجعلها أقدر على التطور نحو نشوء عصبية قوية فيها، لذلك فإن المرحلة الأولى في حياة الممالك والدول عند ابن خلدون هو نشوء جماعة قبلية بدوية تتمتع بعصبية قوية.

غير أنه ليس من الضروري أن تكون الجماعة بدوية الأصل، ويدل على ذلك حالة العلويين الذين أصبحوا أكثر بداوة وتوحشا عندما انعزلوا في الجبال وتشكلت لديهم حالة التماسك الجماعي التي يصفها ابن خلدون بالعصبية، فعندما بدأت الدولة الحمدانية التي عاش العلويون في ظلها عصرهم الذهبي بالتراجع والانهيار، ثم تُوفي سيف الدولة الحمداني وبعده زعيم العلويين حينذاك الخصيبي، بدأ موقف الطائفة يضعف تدريجيا، لكنهم استطاعوا التكيف تحت حكم البيزنطيين وكوّنوا معهم علاقات جيدة.

لكن عندما وصل الأتراك السلاجقة إلى شرق المتوسط عام ١٠٧٠م وحققوا انتصارا ساحقا على البيزنطيين في معركة ملاذكرد عام ١٠٧١م، اضطر العلويون الذين مارسوا نوعا من "الولاء السياسي" للبيزنطيين وقتها للهروب واللجوء إلى الجبال الساحلية، ولو قرر السلاجقة وقتها مد سلطتهم في شمال سوريا مباشرة بدلا من العودة إلى الأناضول لما كان هروب العلويين إلى الجبال كافيا لإنقاذهم من سيوف السلاجقة.

وقد شكّل هذا الهروب إلى الجبال حدثا فارقا في تاريخ العلويين، جعل عداء العلويين للسُّنة جزءا رسميا في تعاليم طائفتهم، لدرجة أن أبا سعيد ميمون بن القاسم الطبراني، وهو الزعيم الذي وحّد الطقوس في "الديانة العلوية" وقاد العلويين إلى ملجئهم في الجبال، قد كتب واصفا دولة السلاجقة بـ"دولة الشيطان السنية"، وجعل هروب العلويين عنوانا لـ"تحرير العلويين من الاضطهاد السني"!

في الفترة بين أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وحتى توطد حكم المماليك في سوريا أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، اقتطع العلويون لأنفسهم وجودا جديدا في ملجئهم الجبلي، فبينما شهدت فترتهم الأولى تشكُّل الهوية الدينية للطائفة، لعبت الفترة الطويلة من العزلة في الجبال الساحلية القاسية دورا مهما في تشكل هويتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقرّبتهم أكثر من الحالة التي عرفها ابن خلدون بوصفهم "جماعة ذات عصبية قوية" .

بعد انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت بشمال فلسطين سنة 1260م، تولى المماليك حكم سوريا، وشنوا حملات عقابية ضد كل من العلويين والدروز والشيعة الاثني عشرية

وإذا كانت فترة الدولة الحمدانية الشيعية هي الفترة الذهبية للعلويين، فإن قدوم الغزو الصليبي الأول 1097م يعتبر الفترة التي تنفس فيها العلويون الصعداء مجددا، إذ اتجه الصليبيون إلى احتلال المناطق المحيطة بجبال العلويين، وعزل ذلك التطويق العلويين عن أعدائهم السنة، وفي داخل تلك الشرنقة الجغرافية طوّر العلويون طائفتهم ومجتمعهم الخاص .

وقد سجل المؤرخ السرياني "بار هيبرايوس (Bar Hebraeus)" أن الصليبيين "قتلوا في بداية الأمر بعض العلويين، ولكنهم أصبحوا أكثر تقبلا لهم عندما عرفوا أن العلويين "ليسوا طائفة مسلمة حقيقية"، كما ذهب بعض المؤرخين إلى أن البنية القوية التي يتمتع بها العلويون تعود إلى حدوث تزاوج بين الجنود الصليبيين والنساء العلويات. وفي تلك الفترة استطاع العلويون توطيد وجودهم في الجبال الساحلية، وحظوا بحرية الحركة، وقد تراجع خوفهم الطائفي الذي تمكن منهم منذ أن فروا من بطش السلاجقة

إلا أن هذا الوضع قد انقلب في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، بعدما اصطدم في الجبال الساحلية بأقلية دينية أخرى، وهي الطائفة الشيعية الإسماعيلية النزارية المعروفة تاريخيا بـ"الحشاشين"، حيث نجح الإسماعيليون في تأسيس

دولة مستقلة حول منطقة القدموس ومصياف في الأجزاء الجنوبية من الجبال الساحلية في بداية القرن الثاني عشر الميلادي/الخامس الهجري، وظل التنافس بين العلويين والإسماعيلية على الجبال ما يقارب قرنا ونصف قرن من الزمان حتى زالت دولة الإسماعيلية على يد المماليك.

فبعد انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت بشمال فلسطين سنة 1260م، تولى المماليك حكم سوريا، وشنوا حملات عقابية ضد كل من العلويين والدروز والشيعة الاثني عشرية، وبالأخص الإسماعيلية الذين سقطت أقوى قلاعهم في القدموس ومصياف على يد السلطان بيبرس في الفترة بين 1271م و1273م، إذ دفع الإسماعيليون ثمن الدور السياسي الذي لعبوه في المنطقة بتحالفهم مع الصليبيين ومحاولتهم اغتيال صلاح الدين من قبل، مثلما حدث مثلا في معركة عناب حين تحالف الإسماعيليون مع ريموند حاكم أنطاكية الصليبي حينذاك.

في أعقاب القضاء على الدولة الإسماعيلية، أصبح العلويون هم القوة المسيطرة على جبال الساحل، لكنهم أصبحوا كذلك أكثر انعزالا وانغلاقا وتخلفا، خاصة بعدما سيطر المماليك على الشريط الساحلي في القرن الثالث عشر، وقد زاد هذا من تماسك وقوى اعتمادهم على أنفسهم واستقلالهم وصلابتهم، خاصة أنه لم تتبقَّ أي قوة سياسية داعمة للعلويين في المنطقة، فكان عليهم أن يعتمدوا فقط على "التقية" والتكاتف أمام صرامة السلطة المملوكية.

## الثورة الأولى وصعود العصبية النصيرية

كانت السلطة المملوكية تراقب العلويين بكثير من الريبة بسبب ميولهم الشيعية وعلاقتهم السابقة بالصليبيين، لذلك عمدت السلطة المملوكية إلى حصار الطائفة العلوية ثقافيا ومحاولة إدخالهم في الإسلام، ففي نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1317م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بيانا يتعلق بالعلويين، جاء فيه: "نحن نمنع خطاب النصيريين...،

ومن يتجرأ منهم على ذلك سيتم عقابه بشدة"، والخِطاب هو "طقس الدخول في [الديانة العلوية]"، فيبدو أن الديانة العلوية وقتها كانت تسمح بالدعوة إلى اعتناق النصيرية من خارج الطائفة، وكان السلطان المملوكي قد أمر ببناء مسجد في كل قرية علوية، إلا أن العلويين عصوا أمر السلطان، واستخدموا المساجد لإيواء مواشيهم كما ذكر ابن بطوطة، وفي 20 فبراير/شباط من العام التالي، أي 1318م، ثار العلويون في منطقة الجبال لأول مرة في تاريخهم، وتركزت الثورة حول رجل سمى نفسه "محمد بن الحسن المهدي"، حيث ادعى المهدي أنه تلقى تعليمات مقدسة من حمامة بيضاء، فالتف حوله 3 آلاف فلاح علوي، وأعلن موت السلطان المملوكي بالقاهرة، وهاجم مدينة جبلة الساحلية، وأعلن سيطرة العلويين على المنطقة وأحقيتهم بحكم الجبال.

غير أن ثورة العلويين سُحقت بسهولة خلال 5 أيام فقط على يد ألف فارس مملوكي أرسلهم والي طرابلس، فقُتل 600 "ثائر علوي" من أصل 3 آلاف، وقُتل المهدي وانتهى التمرد. وبعدما عفا السلطان المملوكي عن العلويين بتوسط والي طرابلس الذي أقنع السلطان بأن في إبادتهم ضعفا للمسلمين لفائدتهم الاقتصادية، طالبت العشائر العلوية من السلطة المملوكية أن تعاملهم معاملة أهل الذمة، وكان في ذلك اعترافا ضمنيا من العلويين بعدم انتمائهم للإسلام.

إلا أن حدثا آخر قد وقع في تلك الفترة قد غيّر مجرى تاريخ العلويين وصورتهم في العالم السني إلى الأبد، فلما كانت الحرب المملوكية المغولية ما زالت قائمة أثناء ثورة العلويين، اعتُبرت ثورتهم نوعا من أنواع الخيانة والتآمر التي كان المماليك يتوقعونها من الأقليات التي تحالفت من قبل مع الصليبيين، لذلك عندما سُئل الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوله في "النصيرية"، فأجاب بفتوى طويلة حكم فيها بعدم انتمائهم إلى الإسلام نهائيا.

وقد جاء في فتوى ابن تيمية الشهيرة قوله: "هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية، هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم. فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة آل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه...، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة...، وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تجوز مناكحتهم، ولا يجوز أن يُنكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم...، ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين...".

وبذلك، ومنذ فتوى ابن تيمية وحتى عام 1939م، اعتُبر العلويون طائفة غير مسلمة، وترسخت لدى العلويين وفي خطابهم صورة عدائية للإسلام السني بل للمسلمين بشكل عام، يحيطها الخوف القديم من الإبادة، ما زاد من عزلة العلويين وانكفائهم على أنفسهم، وزاد من تعاضدهم الاجتماعي، وكان لفشل الثورة أثر بالغ، فقد عمّقت هزيمة الثورة هدوء العلويين وانعزالهم حتى تتهيأ الظروف لانطلاق العصبية الكامنة مرة أخرى.

## الدولة العلوية الأولى

مع صعود الدولة العثمانية وتمددها أصبح الوضع القانوني للعلويين غامضا في النظام الاجتماعي والاقتصادي العثماني، فقد التزم العلويون بعد سحق ثورتهم بـ"التقية السياسية"، ما زاد في غموضهم في أعين أي سلطة حاكمة، وقد عبّر الرحالة البريطاني "هنري موندريل" عن ذلك الغموض الذي يحيط بالعلويين في ملاحظاته التي دوّنها عام 1697م، كاتبا: "العلويون لهم صفة غريبة منفردة، لأن مبدأهم هو عدم الالتزام بدين معين أيا كان يمكن أن ينعكس عليهم من الشخص

الذي يكلمهم. لم يستطع أحد قطّ أن يكتشف ما طبيعة ضمائرهم الحقيقية. وكما هو مؤكد عنهم، فإنهم يصنعون كميات كبيرة من الخمر الجيد ويشربون كثيرا" .

وبحلول القرن الثامن عشر، بدأت أسوأ فترات الاضطهاد التي عاشها العلويون، فقد كانت الدولة العثمانية حينذاك تعاني صعوبة في المحافظة على سيطرتها على المناطق البعيدة والأطراف، لذلك كانت أقل تحملا لأي اضطرابات تحدث في الولايات المركزية، خاصة من قبل العلويين الجبليين، الذين كانت تعتبرهم الدولة العثمانية هراطقة، ولا تُبقي عليهم إلا لمنفعتهم الاقتصادية والضرائب التي يجمعونها .

لذلك عندما امتنع الشيخ والزعيم العلوي "صقر محفوظ"، من عشيرة شمسين من تحالف الحدادين قرب صافيتا، عن دفع الضرائب، أُرسل 3 آلاف جندي عثماني لإخضاعه، وذُكر أن الجنود قد أحرقوا المزارع والحصاد وكل شيء واستولوا على كثير من نقود النصيريين. وفي عام 1813 ثار العلويون الكلبيون في منطقة القرداحة ضد العثمانيين، فجاء الرد قاسيا من السلطات العثمانية، بحسب ما أورده "غولدسميث" في كتابه .

لكن عندما نشبت حرب القرم بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية، أتاح ذلك للعلويين أن يتنفسوا الصعداء، وبزغ نجم الزعيم العلوي إسماعيل بن عثمان بن خير بن إسماعيل بن كنان بن حيدر السنجاري، واستغل ضعف حضور السلطة العثمانية في المشرق بسبب حرب القرم، فبسط سيطرته في منطقة صافيتا على عشائر الحدادين والخياطين، وعندما عجز العثمانيون عن إيقافه، أصدروا قرارا بتعيينه "مشيرا" على كل الجبال الساحلية، فحكم هذا الزعيم العلوي 120 ألف نسمة من سكان الجبال فيما عدا الأجزاء الشمالية منها، بكل مَن فيها من مسيحيين ومسلمين سُنة، وكان هذا الحكم المستقل غير مسبوق في تاريخ العلويين.

قدّم إسماعيل خير بك النموذج الأولي للحاكم العلوي عندما تولى حكم طائفته، فقد استغل سلطته لزيادة ثروته وثروة أتباعه باقتطاع ضرائب باهظة من سكان مقاطعته، ويذكر بعض المؤرخين أنه في نهاية حكمه عاقب أي معارض لحكمه أو متمرد بحرق عيونهم وقطع آذانهم وسلخهم أحياء .

بعد انتهاء حرب القرم قررت السلطة العثمانية التخلص من إسماعيل خير بك، ورغم أن نهاية إسماعيل كانت على يد خاله "علي الشللي" الذي قتله وابنه في قرية عين كروم وسلم رأسه إلى العثمانيين، فإن العلويين قد أضافوا قرار تخلص العثمانيين من زعيمهم إلى سردية مظلوميتهم واضطهادهم الطويلة، وأضافوا إليها زعماء علويين آخرين وصلوا إلى مراكز السلطة تم التخلص منهم وقتلهم، مثل محمد باشا، وهو علوي من اللاذقية انضم إلى الجيش الانكشاري في بداية القرن التاسع عشر، ثم تمت ترقيته إلى رتبة آغا عام 1811، ثم أصبح حاكم طرابلس، فأمعن البطش في أهلها فقتلوه مع بعض أفراد عائلته.

بيد أن هذه الأوضاع قد تغيرت جذريا بعد سقوط الدولة العثمانية ووقوع أغلب البلاد الإسلامية تحت سلطة الاحتلال الأوروبي، فبعد سقوط الدولة العثمانية لم يعد للمسلمين السنة أي قوى سياسية ممثلة أو داعمة، وبسبب اعتماد المسلمين السنة على مدار تاريخهم تقريبا على القوى العسكرية "غير العربية"، فقد أصبحوا بعد سقوط الدولة العثمانية في حالة تشرذم ولا يستطيعون التعبير عن مصالحهم، بعكس الطوائف والأقليات التي حظيت بمواقع أقوى على الساحة السياسية منذ مطلع القرن العشرين، وهو السياق الذي جعل العلويين يحصلون لأول مرة في تاريخهم على اعتراف رسمي بحكمهم الذاتي في جبال النصيرية.

## اصطناع الدولة العلوية

أصدر المفتي العام للقدس الشيخ أمين الحسيني فتوى تاريخية في يوليو/تموز من عام 1936 يقول فيها إن العلويين طائفة من طوائف الشيعة تدين بالإسلام.

في عام 1922 حصل الفرنسيون على تفويض رسمي من عصبة الأمم للإشراف على التعليم والتطوير السياسي للولايات العثمانية السابقة في سوريا، وبموجب هذا التفويض أنشأ الفرنسيون للعلويين دولتهم الأولى، والتي كانت صورة مكبرة من الولاية التي حكمها إسماعيل خير باشا، حيث شملت كامل الجبال الساحلية، وامتدت لتضم السهول الساحلية والمدن الرئيسية كاللاذقية وطرطوس وبانياس وجبلة، وبلغت مساحتها 6500 كيلومتر مربع، وفي نهاية عام 1933 بلغ عدد سكان هذه الدولة 334173 نسمة، منهم 64% من العلويين، وكانت أكبر فئة تالية لهم هم السنة الذين شكلوا 18%، وتركّز وجودهم في اللاذقية، بجانب المسيحيين والإسماعيليين .

إلا أن هذه الدولة الجديدة المصطنعة لم تنجح في تحرير العلويين من "خوفهم الطائفي"، بل زادت عليه نوعا من الشكوك والارتياب والعداء الذي نجح الاحتلال الفرنسي في زرعه بين الطوائف في سوريا، حيث لجأ الفرنسيون إستراتيجيا لتجنيد العلويين والأقليات الأخرى في قوى الأمن ضد القوميين والوطنيين السوريين.

وعندما نالت سوريا استقلالها عن الانتداب الفرنسي، كان زعماء الدولة العلوية قد وافقوا على انضمام الدولة العلوية إلى سوريا الموحدة، كما اتجه الزعماء الدينيون للطائفة العلوية إلى إصدار قرار وقّع عليه 15 شيخا علويا ينص على أن "كل علوي هو مسلم، وكل علوي ينفي كونه مسلما ولا يقر بأن القرآن الكريم هو كتابه المقدس، وأن محمدا هو رسوله، لا يعتبر علويا من وجهة نظر الشريعة"، غير أن العديد من المؤرخين قد ذهبوا إلى أن هذا البيان كان مجرد نوع آخر من

ممارسة التقية السياسية التي اعتاد عليها النصيريون. بعدها أصدر المفتي العام للقدس الشيخ أمين الحسيني فتوى تاريخية في يوليو/تموز من عام 1936 يقول فيها إن العلويين طائفة من طوائف الشيعة تدين بالإسلام.

في بداية عهد الدولة السورية الجديدة بعد الاستقلال، بدأ العلويون لأول مرة منذ 10 قرون في النزول من الجبال الساحلية جماعاتٍ للبحث عن فرص جديدة وحياة أفضل، وقد ظهر شخص مهم للعلويين في تلك الفترة، وللمفارقة كان رجلا سنيا من حماة، وهو أكرم الحوراني، إذ لعب الحوراني من خلال حزبه العربي الاشتراكي دورا رئيسيا في تحقيق الأهداف السياسية لطبقة الفلاحين من جميع الطوائف، ما أعطى فرصة الصعود الطبقي لجيل جديد من العلويين دخلوا الجامعات وحصلوا على فرص عمل، وسُمح لهم بتملك الأراضي والبيوت في المدن. وفي تلك الفترة برزت شخصية علوية مهمة، وهي "وهيب الغانم"، الذي كان طبيبا من اللاذقية وعضوا في حزب البعث العربي ورفيقا لزكي الأرسوزي الذي يُقال إنه المؤسس الحقيقي لحزب البعث قبل ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، ويعود له الفضل في انضمام كثير من العلويين لحزب البعث.

أكمل الغانم ما بدأه الأرسوزي في ضم كثير من العلويين لحزب البعث خاصة في منطقة اللاذقية، وفي أواخر أربعينيات القرن العشرين كان للغانم تأثير سياسي عميق على طالب شاب علوي من القرداحة من عشيرة الكلبية اسمه حافظ الأسد، والذي سيحقق ما فشلت ثورة العلويين وإسماعيل خير بك والدولة العلوية التي أنشأها الفرنسيون في تحقيقه، حيث سيستولي على الحكم بقوة العصبية النصيرية، بعد أن ينجح في تجييش سكان الجبال من العلويين وكسب ولائهم، مستغلا ذاكرتهم عن الخوف الطائفي، والتي سيجددها في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين.

أثبت الخوف الطائفي أنه أقوى وأكثر رسوخا من الدعم والتأييد الذي ينتج عن الرعاية والامتيازات الاجتماعية، لكن هذا الخوف الطائفي لم يتحول إلى عقيدة بهذا الشكل النافذ في نفوس العلويين إلا من خلال سياق اجتماعي وسياسي وتاريخي تحمله ذاكرة جماعية تقوم على طبيعة انعزالية دامت ما يزيد عن 10 قرون تشرّبت خلالها نفوس العلويين معنى الخوف من الإبادة، وانتهت باندماج شكلي مع المجتمع السني الحضري، وتُوّجت بجرب طائفية طاحنة مستمرة لما يزيد عن 10 سنوات ارتكبت خلالها الطائفة بقيادة عائلة الأسد كل أنواع الجرائم بحق السوريين، ولا تزال كذلك إلى اليوم .

## انشقاق المرشدية عن العلوية

المؤسس مجيب سلمان المرشد تاريخ الظهور 25 آب سنة 1951

مَنشأ جوبة برغال، القرداحة اللاذقية، سوريا

الأصل الغيبية

المرشدية مذهب ديني يُنسب إلى الإسلام، أتباعه يتبعون الطائفة المرشدية الصغيرة والتي يوجد معظم أتباعها في سوريا، لا يوجد إحصاء رسمي لعدد المرشديين في سوريا وهم يعيشون ما بين محافظات اللاذقية، حمص، منطقة الغاب في حماة، وفي دمشق وريفها كما أن هذه الطائفة لا توجد في بلد آخر سوى سوريا، إلا بأعداد محدودة تعود إما لسوريين مهاجرين أو زيجات مختلطة أو أعداد صغيرة قد تكون دخلت المرشدية. وهم منتشرون في منطقة الغاب في سورية. وهم يؤمنون بالله.

وقد دافع المفكر محمد علي عبد الجليل عن المرشدية كحركة تحرُّر حرَّرَت الفرد من السلطة الدينية للمشايخ وأعادت ربطَه بسلطته الضميرية الخاصة به فاعتبر أن «المرشدية هي الدينُ الذي أعادَ ربطَ الإنسانِ بالدين من خلال تحريرِه من الدين» . كما دافع عن المرشدية الكاتب والمفكر الديني السوري نبيل فياض، بالإضافة إلى جمال باروت وغيرهم.

## ظهور المرشدية

## 1923–1946

تعود جذور ظهور المرشديّة في النصف الأول من القرن العشرين في سوريا عن طريق سلمان المرشد في منطقة الحدود الجبليّة بين محافظتي اللاذقية وحماة ومن تلك المنطقة امتدّت الدعوة إلى مناطق أخرى في محافظات حمص وإدلب ودمشق، والآن فالوجود المرشدي في محافظتي حمص واللاذقية هو الأقوى. كان سلمان المرشد قد لفت الأنظار إليه في 1923 عندما بشّر بقرب ظهور المهدي لـ« يملأ الأرض عدلاً» . ولم يدع الناس أن يتخذوه ربا كما يشاع وكان سلمان قد دعى إلى إلغاء الكثير من العادات التي تمس سيطرة مشايخ العلويين على أتباعهم. أعدم سلمان في نهاية عام 1946 بتهمة يقول البعض أنها أدعائه الألوهية  إلا أن العديد من الباحثين يؤكدون قرار الإتهام والإعدام لم يتطرق أبداً إلى مسألة إدعاء الألوهية كما يشاع بل أنه أعدم بتهمة قتل زوجته والتحريض على قتل آخرين في المواجهة التي حصلت مع الدرك في قريته بنهاية 1946 وقد لفقت له جميع هذه التهم بدوافع سياسية بحتة.

الدعوة الفعلية للمذهب المرشدي تُنسب إلى مجيب سلمان المرشد والذي يعتبر المرجع الأول للمرشدية التي أعلنها في 25 آب (أغسطس) من عام 1951. غاب الشاب مجيب على يد عبد الحق شحادة آمر الشرطة العسكرية في عهد

أديب الشيشكلي، وبإيعاز منه، في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1952. يعتبره المرشديون المخلّص الذي أعطى المعرفة الجديدة عن الله، وقد أشار مجيب قبل قتله إلى أخيه الأصغر ساجي المرشد باعتباره «الإمام ومعلم الدين». لذلك يُعتبر ساجي المرشد المرجعية الدينية التي يلجأ إليها المرشديون في أمور دينهم. والمخلّص حدثهم عن غيبته وتفاصيلها.

باعتباره الإمام ومعلم الدين بعد غيبة المخلّص عام 1952 أصبح ساجي سلمان المرشد المرجع الأول للمرشدية وقد (غاب كما يرى المرشديون) في تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1998، ولم يوصي بالإمامة لأحد من بعده، لذلك لا توجد عند المرشدية مرجعية دينية بعد

## الأسماعيلية

إسماعيلية إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الاثنى عشرية، وهي من الفرق الباطنية يشترك الإسماعيلية مع الاثنا عشرية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق، إذ رأى فريق من جمهور الشيعة أن الإمامة في ابنه الأكبر الذي أوصى له إسماعيل المبارك، بينما رأى فريق آخر أن الإمام هو أخوه موسى الكاظم لثبوت موت إسماعيل في حياة أبيه وشهادة الناس ذلك.

يمثل التيار الإسماعيلي في الفكر الشيعي الجانب العرفاني والصوفي الذي يركز على طبيعة الله والخلق وجهاد النفس، وفيه يجسد إمامُ الزمان الحقيقةَ المطلقة، بينما يركز التيار الاثنا عشري الأكثرُ حَرفِيةً على الشريعة وعلى سنن الرسول محمد والأئمة الاثنا عشر من آل بيته باعتبارهم منارات إلى سبيل الله.

الإسماعيلية يتفقون مع عموم المسلمين في وحدانية الله ونبوة محمد ونزول القرآن المُوحى، وإن كانوا يختلفون معهم في أن القرآن يحمل تأويلا باطنا غير تأويله الظاهر، لذلك نعتهم مناوؤوهم من السنة وكذلك بعض من الشيعة الاثنا عشرية بالباطنية.

و بالرغم من وجود أفرع للمذهب الإسماعيلي فإنه في الاستخدام المعتاد اليوم تدل تسمية الإسماعيلية على النزارية هم يتواجدون في سوريا في مناطق السلمية ومصياف وبعض قرى طرطوس في .

الدروز

دروز سوريا هم سكان سوريا الذين ينتمون إلى الطائفة الدرزية، وهي إثنية دينية عربية تدين بمذهب التوحيد ذو التعاليم الباطنية، وترجع جذورها إلى غرب آسيا .

يُعتقد أن الدروز السوريين يشكلون ما يقدر بنحو 3.2% من السكان أي بين 700000 إلى 800000 نسمة، وتزعم مصادر أخرى أن عدد الدروز السوريين يبلغ حوالي المليون نسمة. ويتركز الدروز في المناطق الريفية والجبلية في شرق وجنوب دمشق، ويشكل الدروز الغالبية في محافظة السويداء في المنطقة المعروفة رسمياً باسم جبل الدروز. وتُشير التقديرات أن سوريا تضم بين 40% إلى 50% من مجمل الموحدون الدروز البالغ عددهم حوالي 1.5 مليون في جميع أنحاء العالم.

لا تتبع العقيدة الدرزية أركان الإسلام الخمسة، مثل الصيام في شهر رمضان، والحج إلى مكة. تتضمن معتقدات الدروز عناصر من الإسماعيلية، والإسلام الشيعي، والغنوصية، والأفلاطونية، والمسيحية. وغيرها من الفلسفات، ويسمون الدروز أنفسهم «أهل التوحيد».

«يتبع الدروز نمطًا من العزلة حيث لا يُسمح بأي تحول، لا من خارج الدين أو داخله. عندما يعيش الدروز بين أتباع الديانات الأخرى، يُحاولون الاندماج من أجل حماية دينهم وسلامتهم الخاصة. ويُمكن أن يصلوا كمسلمين أو كمسيحيين، حسب المكان الذي هم فيه. ويبدو أن هذا النظام يتغير في العصر الحديث، حيث سمح المزيد من الأمن للدروز بأن يكونوا أكثر انفتاحًا بشأن انتمائهم الديني».

افتتح التنوخيون الطائفة الدرزية في سوريا عندما قبل معظمهم واعتمدوا الرسالة الجديدة التي كانت تُبشر في القرن الحادي عشر، بسبب العلاقات الوثيقة لقيادتهم مع الحاكم الفاطمي آنذاك الحاكم بأمر الله. تتعدد الروايات التي تتكلم عن أصل الدروز وعن بدايات تواجدهم في المنطقة عموماً، أو في سورية؛ ولكن من المرجّح أن التواجد الدرزي في جبل حوران هو تواجد حديث، يعود بحسب أقصى التقديرات إلى نهايات القرن السابع عشر أو عام 1685، حيث هاجر إليه من لبنان ما يقارب 200 شخص من الدروز مع عائلاتهم. ثم تبعت ذلك موجةٌ أخرى أكبر حجماً في 1711، وذلك على خلفية الصراع بين اليمانيين، والقيسيين «الأمراء الشهابيون» الذين كانت لهم الغلبة. وكانت المواجهات بين الموارنة والدروز بين عام 1840 وعام 1860 سبباً أيضاً في هجرة كبيرة للدروز نحو جبل العرب.

لعبت الطائفة الدرزية في لبنان دوراً مهماً في تشكيل دولة سوريا الحديثة، ولعب الدروز دائماً دوراً أكثر أهمية في السياسة السورية بالمقارنة مع عددهم الصغير نسبياً. مع مجتمع لا يزيد عن 100,000 نسمة في عام 1949، أو ما

يقرب من 3% من سكان سوريا، شكل دروز الجبال الجنوبية الغربية في سوريا قوة فاعلة في السياسة السورية ولعبوا دوراً قيادياً في الكفاح القومي ضد الفرنسيين. تحت القيادة العسكرية للسلطان باشا الأطرش، قدم الدروز الكثير من الوجوه العسكرية التي قادت الثورة السورية الكبرى بين عام 1925 وعام 1927. وفي عام 1945، قاد سلطان الأطرش، القائد السياسي الأعلى لجبل الدروز، الوحدات العسكرية الدرزية في تمرد ناجح ضد الفرنسيين، مما جعل جبل الدروز المنطقة الأولى والوحيدة في سوريا التي قامت بتحرير نفسها من الحكم الفرنسي دون مساعدة بريطانية. عند الاستقلال، توقع الدروز، الذين اكتسبوا ثقتهم بنجاحهم، أن تكافئهم دمشق على تضحياتهم الكثيرة في ساحة المعركة. وطالبوا بالحفاظ على إدارتهم المستقلة والعديد من المزايا السياسية التي منحها لهم الفرنسيون وطلبوا مساعدة اقتصادية سخية من الحكومة المستقلة حديثاً.

مشايخ دروز من جبل الدروز في سوريا، عام 1926.

عندما ذكرت إحدى الصحف المحلية في عام 1945 أن الرئيس شكري القوتلي (1943–1949) قد وصف الدروز بأنهم «أقلية خطيرة»، غضب السلطان باشا الأطرش وطالب بالتراجع العام. وأعلن أنه إذا لم يكن ذلك وشيكاً، فإن الدروز سيصبحون بالفعل «خطرين»، وستحتل قوة من 4000 مقاتل درزي «مدينة دمشق». لم يستطع شكري القوتلي أن يستبعد تهديد السلطان باشا. حيث كان ميزان القوى العسكري في سوريا مائلاً لصالح الدروز، على الأقل حتى بناء الجيش خلال حرب 1948 في فلسطين. وحذّر أحد مستشاري وزارة الدفاع السورية في عام 1946 من أنّ الجيش السوري «عديم الفائدة»، وأن الدروز يمكنهم «الإستيلاء على دمشق والقبض على القادة الحاليين».

خلال السنوات الأربع لحكم أديب الشيشكلي في سوريا من ديسمبر عام 1949 إلى فبراير عام 1954، تعرض المجتمع الدرزي لهجوم شديد من قبل الحكومة السورية. اعتقد الشيشكلي أنه من بين خصومه العديدين في سوريا، كان الدروز هم الأكثر خطورة، وكان مصممًا على سحقهم. لقد أعلن مرارًا وتكرارًا: «أعدائي مثل الثعبان: الرأس هو جبل الدروز والمعدة هي حمص والذيل هي حلب. إذا سحقت الرأس، فستموت الثعبان». أرسل أديب الشيشكلي 10 آلاف جندي نظامي لاحتلال جبل الدروز. وقصف عدة مدن بالأسلحة الثقيلة، مما أسفر عن مقتل العشرات من المدنيين وتدمير العديد من المنازل. ووفقًا لحسابات الدروز، شجع الشيشكلي القبائل البدوية المجاورة على نهب السكان العزل وسمح لقواته بالفرار. وشنَّ أديب الشيشكلي حملة وحشية لتشويه سمعة الدروز بسبب دينهم وسياستهم. واتهم المجتمع بأسره بالخيانة، وفي بعض الأحيان زعم أنهم عملاء للبريطانيين والهاشميين، وأن آخرين كانوا يقاتلون من أجل إسرائيل ضد العرب. حتى أنه أنتج مخبأً للأسلحة الإسرائيلية التي يُزعم أنها اكتشفت في جبل الدروز. وكان الأمر الأكثر إيلاماً بالنسبة للمجتمع الدرزي هو نشره «للنصوص الدرزية الدينية المزيفة» وشهادات كاذبة تُنسب إلى كبار شيوخ الدروز بهدف إثارة الكراهية الطائفية. كما تم بث هذه الدعاية في العالم العربي، وخاصةً في مصر. اغتيل أديب الشيشكلي في البرازيل في 27 سبتمبر عام 1964 على يد درزي سعياً للانتقام من قصف الشيشكلي لجبل الدروز.

بعد الحملة العسكرية لأديب الشيشكلي، فقد المجتمع الدرزي الكثير من نفوذه السياسي، لكن العديد من الضباط العسكريين الدروز لعبوا أدواراً مهمة في حكومة حزب البعث العربي الاشتراكي التي تحكم سوريا حاليًا. وفي عام 1967، أصبحت جماعة من الدروز في هضبة الجولان تعيش تحت السيطرة الإسرائيلية، وقام الدروز السوريون في الجولان بإحراق الهويات الإسرائيلية ورفع شعار لا بديل عن الهوية السورية، وقاموا بانتفاضات واستمروا تحت

الحصار لمدة ستة أشهر وقد اعتقلت الحكومة الإسرائيلية كثيراً من الشبان ومنهم من ظل بالسجون الإسرائيلية أكثر من عشرين سنة.

ويعيش معظم الدروز السوريين في جبل الدروز، ( جبل العرب ) وهي منطقة جبلية وعرة تقع في جنوب غرب البلاد، ويتوزعون هناك على حوالي 120 قرية. وتعيش مجتمعات درزيَّة بارزة أخرى في جبال حارم، وعلى المنحدرات الجنوبية الشرقية لجبل الشيخ. وللدروز تواجدٌ أيضاً في محافظة القنيطرة، وجزءٌ منهم في الجولان المحتّل من قبل إسرائيل، وكذلك في ريف دمشق لا سيما مدينتي جرمانا وصحنايا، وكذلك في ريف إدلب حيث يتوزعون على قرابة 18 قرية في ما يسمى بجبل السمّاق. عاشت جماعة درزية سورية كبيرة تاريخياً في مرتفعات الجولان، ولكن بعد الحروب مع إسرائيل في عام 1967 وعام 1973، فرَّ الكثير من هؤلاء الدروز إلى أجزاء أخرى من سوريا؛ ومعظم الذين بقوا يعيشون في حفنة من القرى في المنطقة المتنازع عليها، بينما يعيش عدد قليل منهم في محافظة القنيطرة التي لا تزال تحت السيطرة السورية الفعالة. وقد رفضت الأغلبية الساحقة من دروز الجولات قبول الجنسية الإسرائيلية الكاملة، واختاروا الاحتفاظ بجنسيتهم السورية والهوية السورية.

### المسيحيون

مسيحيو سوريا أو المسيحيون السوريون هم المواطنون السوريون الذين يحملون الجنسية السورية ويتبعون الدين المسيحي، يشكلون 10% من مجموع السكان حسب التقديرات الأميركية[1] في حين تقول المصادر الرسمية ان نسبة المسيحيون في سوريا هي 8% [2]. تختلف الكثافة المسيحيّة حسب المناطق السوريّة فبينما تصل إلى 20% في

منطقة الجزيرة الفراتية و 10% في حلب والمنطقة الساحليّة 15%، تنخفض إلى 5% في كل من دمشق ومنطقة سهل الغاب في حماة .

كان مسيحيو سوريا يشكلون نحو 30% من السكان مطلع القرن العشرين، وترتفع نسبتهم في دمشق وحمص واللاذقية والجزيرة الفراتية لتتجاوز ثلث السكان، في حين انتشروا بمقدار أقل في حلب وحماة وإدلب. لعب كثيرون من مسيحيي البلاد دورًا ثقافيًا وفكريًا هامًا ونشطوا في العمل السياسي والنضال خلال مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا . لعلّ المفكرين السوريين الثلاثة الذين سطعوا خلال تلك المرحلة عاكسين التنوّع السياسي لدى المسيحيين هم ميشيل عفلق وإلياس مرقص المنادين بالاشتراكية والقومية العربية وأنطون سعادة المنادي بالقومية السوريّة وفارس الخوري الذي مثل الرأسمالية السورية المعتدلة من ناحية والموازنة بين الرابط القومي والرابط الوطني واستطاع تشكيل الحكومة مرات عديدة خلال رئاستي هاشم الأتاسي وشكري القوتلي. قوي مسيحيو البلاد من خلال هجرتين وافدتين الأولى في أعقاب المجازر بحق الأرمن والتي أفضت إلى استقرار أعداد كبيرة منهم في سوريا والثانية في أعقاب المجازر بحق الآشوريين التي أفضت بدورها إلى استقرار أعداد كبيرة منهم في الجزيرة الفراتية على وجه الخصوص قادمين من العراق. غير أنه ومنذ منتصف القرن العشرين أصيبت المسيحية السوريّة بدورها بالهجرة . وهناك عدة أسباب لهجرتهم سنذكر منها سببين :

الأول : فمن ناحية كان أغلب المسيحيين من ملاك الأراضي والمستثمرين الاقتصاديين وهو ما أمّن لهم حضورًا فعّالاً في الساحتين الاقتصادية والاجتماعية ومكنهم من المشاركة الحقيقية في صناعة القرار، فعلى سبيل المثال 75% من الوكالات التجارية الأجنبية كانت بيد مسيحيين في منتصف القرن العشرين، لكن الدولة السوريّة اتجهت بعد الثامن من

آذار نحو السياسة الاشتراكية ما عنى فعليًا تجريد المُلاك من أملاكهم الخاصة وإنهاء المبادرات الفردية في السوق مقابل سيطرة الدولة، ما أدى أولاً إلى فقدان الدور الاقتصادي لمصلحة الدولة وثانيًا هجرة الطبقة الأكثر ثراءً وتهريب أموالها معها، كانت المرحلة الأولى من الهجرة تلجأ إلى لبنان وفي المرحلة الثانية انطلقت نحو المغترب البعيد .

الثاني تمثل بمرتجعات الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت عام 1975 وتحوّلت نوعًا ما إلى اقتتال طائفي بين مكونات البلاد من مسيحيين وسنة وشيعة ودروز. فتحت الحرب الأهلية باب الهجرة للبنانيين عمومًا ومسيحيي لبنان خصوصًا، الذين تربطهم بمسيحيي سوريا علاقات قرابة وتجاور. لذلك فإن الهجرة اللبنانية دفعت بشكل أو بآخر إلى تشجيع الهجرة السوريّة.

## المسيحية المعاصرة في سوريا

ينتمي المسيحيون في سوريا إلى عدة كنائس. يتحدث غالبيتهم العربية كلغة أم وتستخدمها العديد من الكنائس كلغة طقسية إضافة للارامية السورية القديمة (السريانية) .

أما بالنسبة للأرمن السوريون فهم يستخدمون اللغة الأرمنية كلغة طقسية كما لا زال معظم الأرمن يتحدثون الأرمنية كلغة أم. و بالنسبة للسريان فما زالت أعداد منهم تتحدث اللغة السريانية الآرامية في بعض بلدات جبال القلمون ومنطقة الجزيرة السورية. في حين أن اللغة السريانية لا زالت مستخدمة كلغة طقسية لدى كافة الكنائس السريانية في سوريا والعالم، انظر مسيحية سريانية.

تواجد فروق اجتماعية-اقتصادية بين المسيحيين والمسلمين في سوريا، تاريخيًا تواجد المسيحيين بالمدن بشكل أكثر من المسلمين مما أتاح لهم فرص اقتصادية أكثر، وتجلى ذلك في ارتفاع نسبة المتعلمين والأكاديميين لدى المسيحيين مقارنة مع المسلمين وتواجد المسيحيين الكثيف في النخبة المثقفة والسياسية، كذلك ارتفاع مستواهم المعيشي إذ انتمى أغلب المسيحيين إلى الطبقة الوسطى البرجوازية والعليا . يعمل أغلب المسيحيين في مهن ذوي الياقات البيضاء والمهنية والأكاديمية كذلك فقد نجح الكثير من المسيحيين في المهن والأعمال التجارية.

مسيحيو سوريا متنوعون طائفيًا فهناك الروم الأرثوذكس وهم الأغلبية يليهم السريان الأرثوذكس والروم الكاثوليك مع وجود جماعات مختلفة من اللاتين والبروتستانت والموارنة والكلدان والآشوريين والسريان الكاثوليك والأرمن، وتحوي حلب وحدها عشر أبرشيات في حين تعتبر دمشق كرسي بطريركي ومقرًا لثلاث كنائس على مستوى العالم هم بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس وبطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس وبطريركية أنطاكية والقدس والإسكندرية للروم الملكيين الكاثوليك، وأغلب مسيحيي سوريا على تنوّع مشاربهم يتكلمون العربية، مع بعض الاستثناءات المتعلقة بمنطقة معلولا مثلاً حيث تستخدم الآرامية الغربية وبعض قرى الجزيرة حيث تستخدم السريانية. ويوجد 34 قرية اشورية على ضفتي نهر الخابور يتكلمون اللغة الاشورية و كل قرية لديها كنيسة على الأقل و يقدر عددهم آليوم بعد الهجرة المكثفة لهم إلى خارج البلد حوالي 22000 تقريبا .

الطائفة الكلدانية – الملكية التي انقسمت على نفسها قبل قرن ونيف لم يتخذ أبناؤها تسمية أرثوذكس عرب وكاثوليك عرب، بل أطلقوا على أنفسهم اسم الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك (نسبة الى رومة (بيزنطة) واليونان) .

أما الموارنة فيعتقدون بروابط القربى مع السريان، وليس مع العرب. ناهيك بأن السريان واليعاقبة يعدون أنفسهم أسياد سورية الحقيقيين الذين طردهم الفاتحون العرب من وطنهم الأصلي. نود أن نسجل هنا أيضا أن العرب الذين يطلقون على أنفسهم تسميات ذاتية من أمثال "عرب" و"العرب" ، ونجدهم يقولون "العرب العرباء" والعاربة، والعربة والعربية للعرب الصرحاء الخلص" ، بينما "العرب المتعربة المستعربة" للدخلاء الذين ليسوا بخلص، وهي التسمية التي يطلقونها على فئات معينة في المجتمع، وفي المقام الأول على المسيحيين الذين تعربوا واستعربوا، أي صاروا دخلاء على العرب الخلص. ومن الأمثلة البالغة الدلالة على ما نقول شهادة ترجع الى مطلع القرن العشرين تقول: "يميل عرب الحجاز واليمن الى اعتبار السوريين ليسوا أبناء خلصا، بل أولاد دخلاء للنبي، وأنهم ليسوا أحسن كثيرا من الأتراك" .

ان تأثير واقع انتماء سورية الى منطقة الشرق العربي، والسوريين الى الأمة العربية، أخذ في التلاشي تدريجيا لدى رواد النهضة بسبب الحقيقة الموضوعية الملموسة ونعني بها وجود الأمة العربية الموحدة. وهذا أمر لا مناص منه في ظروف التجزئة السياسية – الادارية للأقطار العربية. وضعف الروابط الاقتصادية بينها، وبالتالي غياب السوق العربية المشتركة.

في مثل هذه الظروف سيكون للبرجوازيين المسيحيين الذين لم يشتد عودهم بعد ولم ينهوا عملية استقطاب قواهم وقدراتهم، والذين وضعوا على هامش العروبة بسبب انتمائهم الديني – المذهبي الممهور بأختام الدواوين التركية الاسلامية – سيكون لهم دور عظيم في المجالين الاقتصادي والفكري على قسم معين من سورية، والأرجح على الأرض اللبنانية، وفي المقام الأول على بيروت والمدن الساحلية ، حيث شكل النصارى غالبية السكان. وكانوا على مستوى أرقى من التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري – الحضاري.

واذن، كانت العروبة حقيقة موضوعية تسير في خط معارض مع الوطنية السورية الموضوعية بقدر ما هي حقيقة ذاتية. ومهما حاولت الوطنية اللبنانية الاستقلال عن الوطنية السورية، فما كان بمقدور البرجوازيين اللبنانيين المسيحيين وأيديولوجيتهم التركيز على الروح اللبنانية، لأن ذلك كان ضربا من المحال في ذلك الزمان، ناهيك بأن تصفية الامارة اللبنانية شبه المستقلة والمعروفة رسميا بالامارة الدرزية ، زادت الطينة بلة، اذ لم يعد الاقليم اللبناني معترفا به على الصعيد السياسي – الاداري. وهذا ما جعل مجرد التفكير في أي نوع من استقلالية لبنان الرازح تحت نير الحكم التركي المباشر والمتماوج في خضم المحيط العربي – الاسلامي المتخلف – من رابع المستحيلات.

وبالفعل ان دعوة كهذه لم تكن تثير حقد أركان الحكم التركي باعتبارها مروقا يستحق اشد العقاب وحسب، بل وكانت تعد أشبه بفزاعة يهابها رجال النهضة من أهل السنة والشيعة في لبنان. واذ لم يكن هناك سوى مخرج واحد، الدعوة الى الوطنية اللبنانية من خلال صهرها بالدعاوة العربية – السورية، وفي حالات الضرورة بالنزعة القومية العربية، وانطلاقا من هذا المنظور تمحور التبشير بالنهضة الثقافية – القومية حول ايديولوجية النهضة – الرينسانس العربية.

في اطار هذه الخطوط يجب تحري الحقيقة حول ان المناضلين السريين المسيحيين الذين نشطوا في بيروت عام 1880 والذين كانوا في الواقع يتطلعون الى تحقيق استقلال جبل لبنان أو يصبون لرؤية لبنان بأكمله مستقلا، كانوا يفتتحون مناشيرهم السرية بنداء "يا أبناء سورية" وغالبا" يا أبناء الوطن"، أي برزت الدعوة الى الوطن السوري". وهي مناشير نددت بظلم الأتراك وطالبت باستعادة العرب الأقحاح للقب الخليفة الذي اغتصبه الأتراك. ولو كان الأمر على خلاف ذلك، لتعرضت الحقائق النهضوية للريبة والشكوك ولأصبحت مادة للمزايدات والمناقصات البعيدة تماما عن

علم التاريخ الموضوعي ، كما حدث مع المؤرخ المصري عبد الليطف الطيباوي، الذي ادعى أن المناشير الأولى الداعية الى "تحويل السلطنة العثمانية الى استقلال عربي وتأسيس دولة عربية" لم تكن وليدة الأوساط النهضوية البيروتية، وزعم – خلافا للوثائق والمستندات التاريخية – أن هذه الدعوات ظهرت لأول مرة في "سورية وفي أوساط اسلامية" .

### مظاهر التعصب الطائفي في المجتمع السوري

كيف حكمنا من أن ظاهرة التعصب الطائفي والمذهبي هي ظاهرة مقيمة ومتأصلة في المجتمع السوري

وحتى لا يكون حكمنا هذا مسبقا أو جزافا أو غير منطقي لا بد من الأشارة الى العديد من المظاهر والظواهر الموجودة في هذا المجتمع والتي تدل بدون أدنى شك على استيطانها تاريخيا فيه وتغلغلت الى الذهنية والعقل السوري مع الزمن ومع تسارع الأحداث لتشكل أحدى البنى الأساسيه والمكونات التي يقوم عليها .

ومن هذه المظاهر :

**أولا : فتوى ابن تيمية باعتبارها مرجعية فقهية عند السنة و فتوى أبا سعيد ميمون بن القاسم الطبراني النصيري .**

ذكرنا أنه لما كانت الحرب المملوكية المغولية ما زالت قائمة أثناء ثورة العلويين، اعتُبرت ثورتهم نوعا من أنواع الخيانة والتآمر التي كان المماليك يتوقعونها من الأقليات التي تحالفت من قبل مع الصليبيين، لذلك عندما سُئل الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوله في "النصيرية"، فأجاب بفتوى طويلة حكم فيها بعدم انتمائهم إلى الإسلام نهائيا .

وقد جاء في فتوى ابن تيمية الشهيرة قوله: "هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية، هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم. فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة آل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه...، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة...، وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تجوز مناكحتهم، ولا يجوز أن يُنكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم...، ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين..." .

وظلت هذه الفتوى سارية المفعول حتى أصدر المفتي العام للقدس الشيخ أمين الحسيني فتوى تاريخية في يوليو/تموز من عام 1936 يقول فيها إن العلويين طائفة من طوائف الشيعة تدين بالإسلام .

لكن هذه الفتوى لأبن تيمية قد جعلت العلويين منبوذين من قبل الأغلبية السنية حتى يومنا هذا كما أنها تندرج في خانة التعصب الطائفي وان كان الطرف الذي أصدرت بحقه متآمر وخائن بالنظر من مواقفه العدائية ضد السنة ووقوفه مع أعداءهم الصلبيين والمغول وغيرهم وهذا الأحداث التاريخية تؤكد ان هناك حالة عداء متبادلة بين الطرفين تجعل كل طرف متعصب لطائفته .

كما ان هناك فتوى علوية من هذا القبيل اذ أبا سعيد ميمون بن القاسم الطبراني، وهو الزعيم الذي وحّد الطقوس في "الديانة العلوية" وقاد العلويين إلى ملجئهم في الجبال، قد كتب واصفا دولة السلاجقة بـ"دولة الشيطان السنية"، وجعل هروب العلويين عنوانا لـ"تحرير العلويين من الاضطهاد السني" !

**ثانيا : ممارسات الطائفة النصيرية الانفصالية والرافضة للعيش المشترك .**

المتطلع على تاريخ العلويين في منطقتهم التي لجؤوا لها واستقروا فيها وبالنظر أيضا الى أصول عقيدتهم سيلاحظ بدون أدنى شك حالة الانغلاق والخوف والكراهية تجاه الطرف التي تعيش معه فلقد حاولوا عدة مرات الثورة على العثمانيين وقامت عدة حملات ضدهم ولكن السؤال هنا لماذا ترفض هذه الطائفة العيش بسلام مع جيرانها السنة مع الأخذ بعين الاعتبار انها تنمي الى قبائل عربية معروفة ؟

ان المطلع على تاريخ هذه الطائفة الدامي وعاداتهم لكل الأديان والمذاهب سيدرك ان هذه الطائفة قامت بالأساس على هدف واحد وهو الأنتقام والثأر للآمام علي بن الي طالب الذي ألهوه ولأبنه الحسين رضي الله عنهما ويعتبرون من الغلاة أي المتعصبون لفكرهم وهذا بسبب جهلهم وقلة وعيهم .

لذلك هي ترفض العيش مع قتلة الحسين أو ذريتهم فهم يرون ان كل مسلم سني عربي هو من ورثة من قتلوه .

**ثالثا : تبلور ظاهرة التعصب وتحولها الى واقع معاش زمن الأنتداب الفرنسي .**

يقول جورج انطونيوس، في كتابه يقظة العرب :

ولما قضى الحلفاء على الدولة العثمانية، عملت هذه على طرد النصيريين من « أطنة »، وعلى أخذ الأسلحة الحربية منهم، وعلى تشتيتهم، حتى لم يبقَ لهم فيها أثر. وعمت الفوضى في البلاد، وكثرت البلايا، واستغلّ الأرمن المنكوبون المناسبة، كما طمعوا بمحبة الفرنسيين لهم، فراحوا، بفضل تنظيمهم، ينتقمون و « يعتدون على كل من اسمه محمد أو أحمد، أو كل من كان متعمماً ولابس طربوش ) .

وفي ٢٨ آب سنة ١٩١٩ قام الشيخ صالح العلي بثورة عارمة ضد الفرنسيين وحلفائهم الاسماعيليين، وعاونه على ذلك الملك فيصل الذي كان ملكاً على دمشق آنذاك.

وهاجم الشيخ صالح الاسماعيلية في القدموس ومصياف ونهر الخوابي، ودمر بلادهم إلى أن تدخلت السلطات الفرنسية.

وفي /٢١ آذار سنة ١٩٢٠ عاود النصيريون بقيادة الشيخ صالح العلي مهاجمة القدموس، واستولوا عليها، وأعملوا فيها النهب والتخريب والقتل. وأمر الشيخ العلي بجمع كتب الاسماعيلية وأمر بإحراقها.

وفي /١٧ نيسان سنة ١٩٢٠ قام الإسماعيليون بهجوم معاكس على القدموس واستطاعوا استردادها . . . وهكذا كان الحرب سجالاً بين الشيخ صالح العلي والنصيريين من جهة وبين

الفرنسيين والاسماعيليين حلفائهم من جهة ثانية. وكان أثر تصارعهم مع بعضهم بعضاً أن

دمرت مدن وقرى كثيرة، مثل القدموس ومصياف والشيخ بدر والنيحا ووادي العيون والرستن

وعفرزيتي وقلعة الخوابي وكاف الجوز ورأس الكتان وضهر مطر والعجمة والغازة والشيخ

علي طرزوا والحفّة وغيرها . . . وأحرقت المحاصيل، وأتلف التبغ بنوع خاص، وتشردت

عائلات، وهدمت البيوت من أساسها . . .

وفي ٦ آب سنة ١٩٢٠ كتب المفوض السامي الفرنسي في بيروت إلى وزير الخارجية الفرنسية آنذاك « ميللران » يقول له: « إن الأنصارية الموجودين في الجبال قبالة الساحل، كلّهم يتكلّمون العربية، ويؤلّفون وحدة دينية هي، نظرياً، متّصلة بالإسلام، ولكن، عملياً، منفصلة عنه تماماً. ولا يجب أن نخلطهم مع المسلمين. إنهم جبليون متخلّفون، تحت سلطة رؤسائهم الاقطاعيين »

وفي ٢٩ آب سنة ١٩٢٠ تقررت أراضي الدولة العلوية، وعين الكلونيل نيجر Nieger حاكماً عليها . وفي ٣١ منه و١ أيلول صدر من القوم سيرية العليا في بيروت أمر يقضي بتسمية جبل النصيرية بـ« أراضي العلويين المستقلّة »، وتقرر لها شكل إداري خاص. وكان يدير شؤونها الكولونيل نيجر المذكور

وفي ١ أيلول أيضاً من السنة نفسها، جاء رجل من علويي طرسوس وباشر بنشر جريدة اسمها « الصدى العلوي ».

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٠ وجه الشيخ صالح العلي حملة لاحتلال مصياف الاسماعيلية، فحاصرها، وقامت فيها معارك طاحنة، ودام حصارها عشرة أيام. في هذه الأثناء كتب الكولونيل الفرنسي « جاكو »: « إن النصيريين والاسماعيليين شعبان ودينان، لا هؤلاء ولا أولئك مسلمون »

وفي ٢٩ تشرين الثاني وجه الجنرال غُورو حملة ضد الشيخ صالح العلي عند قرية « عين القضيب » شرقي القدموس، ولكن دون جدوى. إلاّ أن الجيوش الفرنسية دخلت منطقة الشيخ بدر واحتلتها دون مقاومة، وراحت تعتقل الزعماء والمشايخ والأعيان، وقضت على بعضهم بالإعدام، وعلى بعضهم الآخر بالسجن المؤبد . . . فاضطر الشيخ صالح العلي إلى التوجه إلى الشمال إلى قرية « بشراغي » و « سنديانا » و « جيبول » و « الحمام ».

فتعقّبته الجيوش الفرنسية، ودارت بين الفريقين حرب سجال إلى أن انتهت بقيام الفرنسيين

بهجوم كبير في /١٥حزيران ١٩٢١/ على « بشراغي » حصن الشيخ صالح، و « بسمالخ »،

و « عقبة الزرزار » و « جبل النبي صالح ». وحاول الفرنسيون القبض على الشيخ، ولكن

الشيخ كان قد اختفى، وتشكلت محكمة أصدرت حكمها بإعدامه إذا ما قبضوا عليه؛ ولما يئسوا

من القبض عليه أصدر الفرنسيون قراراً بالعفو عنه، وقّعه الجنرال غورو. . . فسلّم الشيخ نفسه

حتى يجنّب بني قومه العذاب بسببه.

عرف الشيخ مصلحة قومه فذهب لمقابلة الجنرال « بيوت » Billote في اللاذقية الذي أبلغه العفو شرط أن يقيم في منطقة لا يغادرها إلاّ بإذن السلطات الفرنسية. وعاد الشيخ إلى الجبل ليعتزل فيه. ولم يترك عزلته إلاّ بعد أن تحركت القضية الوطنية سنة ١٩٣٦ وما تلاها . وتوفّي الشيخ في ١٣ نيسان سنة ١٩٥٠ بعد عزلة الشيخ ساد الجبل هدوء كبير ومديد، واستقر🏛ت فيه أحوال المعيشة، وابتدأت

سياسة علوية جديدة مع المنتدبين. . .

ففي ٢١ تموز سنة ١٩٢٢ أخذت « الأراضي العلوية » اسم « دولة العلويين » .

وكان حاكمها الأول الجنرال « بيوت » Billote

وفي ١٦ أيلول من السنة نفسها تعين للعلويين قضاة ومحاكم مذهبية، وأحدث لهم مرجع باسم « قاضي القضاة »، ويحكمون بحسب قوانين المذهب الجعفري مع بعض الفروق.

وابتدأ عهد جديد نتج عنه « رغبة، قد تكون غريزية، في الطلب من السلطة المنتدبة،

بواسطة ممثليها، لأن تمدد وصايتها ومراقبتها، لكي يكون (للعلويين) الوقت الكافي والوسائل الكفيلة، ليحصلوا على قوة الإدارة والسياسة التي تنقصهم، وليفسح لهم المجال ليصلوا إلى درجة من التطور »

وهكذا أصبحت « الدولة الجديدة ضمن الاتحاد السوري الفدرالي. وتعلّق النصيريين بسنّيي دمشق لا يمكن أن

يدوم. لهذا كثرت الاعتراضات. وفي كانون الثاني سنة ١٩٢٤

رفض ممثلو النصيريين الجلوس في المجلس الفدرالي. وفي ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ أصدر الجنرال « ويغان »

Weygand قراراً باستقلال « دولة العلويين » وفي سنة ١٩٢٧ كانت « دولة العلويين » تتألّف من سنجقين:

١ً. سنجق اللاذقية ويتضمن: مدينة اللاذقية، وجبلة، وبانياس، ومصياف، والحفّة، كأقضية.

والأقضية تنقسم إلى مديريات .

٢ً. وسنجق طرطوس ويشمل على: طرطوس، وصافيتا، وتل كلخ، كأقضية.

أما العلم العلوي فه « أبيض مع شمس في الوسط صفراء، وأربع زوايا حمراء » وكان عدد سكّان الدولة آنذاك /

٢٧٨٠٠٠ نفس

كانت حدود الدولة العلوية تمتد في ما بين وادي النهر الكبير شمالاً حيث تبتدئ سهول حمص والسهول التي يرويها نهر

العاصي، ثم تلال متلاصقة بعضها ببعض في علو متوسط (حوالي ٩٠٠ متراً)، تمتد 🏛إلى انطاكيا شمالاً، حيث

تنخفض بسرعة ليمر فيها نهر العاصي. . . فتكون حدود « دولة

العلويين » إذن: من النهر الكبير جنوباً، والعاصي شرقاً وشمالاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

وقد قدم الفرنسيون الدعم للحزب الانفصالي علناً، وثابروا على تأييد « الرب«

(نصف الشرير ونصف المضحك) البدين والجاهل وصانع المعجزات سليمان المرشد . لكن

أحداً ما كان قادراً أن يتصور أن بلاداً صغيرة ومتأخرة بالكاد قادرة على الاكتفاء إلى هذا

الحد . إلى جانب أن انتماءها لسوريا حقيقة صارخة . يمكن أن تحرز مستقبلاً معقولاً إلاّ إذا

استمر الوجود والدعم الفرنسيين لمدة غير محدودة. »

لكن الدعم لم يستمر، ولن يستمر تأييد الفرنسيين للرب سليمان لمرشد . ودلّت على عدم الاستمرار هذا وثائق

وعرائض رفعها زعماء علويون، بعد ما

شعروا، من جانب السلطات الفرنسية، بعزمها على ضم الدولتين العلوية والدرزية إلى

سوريا . . . وبالفعل « صدر، في ٢ و٥ كانون الأول سنة ١٩٣٦ مرسومان ينصان على إعادة

ولكن قبل مشروع الضم هذا، قام (١٨) ضم منطقتي الدروز والعلويين إلى سوريا »

الانفصاليون يرسلون الوفود تلو الوفود إلى بيروت. و « كان سليمان المرشد على رأس أحد

، كما كان موقّعاً لـ« وثيقة تاريخية »، مع بعض الوفود التي أمت بيروت للاحتجاج »

الزعماء العلويين النافذين.

هذه الوثيقة رفعها زعماء النصيرية لرئيس الحكومة الفرنسية « ليون بلوم » Léon

BLUM محفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٩٣٦/٦/١٥، في سجلات وزارة الخارجية

الفرنسية، وفي سجلات الحزب الاشتراكي الفرنسي صورة عنها . وننقلها حرفياً . وإليك نصها :

دولة ليون بلوم، رئيس الحكومة الفرنسية،

بمناسبة المفاوضات الجارية بين فرنسا وسوريا، نتشرف نحن زعماء ووجهاء الطائفة العلوية في سوريا أن نلفت نظركم ونظر حزبكم إلى النقاط التالية :

١ً . إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة،بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس، هو شعب يختلف بمعتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم والسنّي . ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة مدن الداخل .

٢ً . إن الشعب العلوي يرفض أن يلحق بسوريا المسلمة، لأن الدين الإسلامي يعتبر دين الدولة الرسمي، والشعب العلوي، بالنسبة إلى الدين الإسلامي، يعتبر كافراً . لذا نلفت نظركم إلى ما ينتظر العلويين من مصير مخيف وفظيع في حالة ارغامهم على الالتحاق بسوريا عندما تتخلّص من مراقبة الانتداب ويصبح بإمكانها أن تطبق القوانين والأنظمة المستمدة من دينها .

٣ً . إن منح سوريا استقلالها وإلغاء الانتداب يؤلّفان مثلاً طيباً للمبادئ الاشتراكية في سوريا، إلاّ أن الاستقلال المطلق يعني سيطرة بعض العائلات المسلمة على الشعب العلوي في كيليكيا واسكندرون وجبال النصيرية .

أما وجود برلمان وحكومة دستورية فلا يظهر الحرية الفردية. إن هذا الحكم البرلماني عبارة عن مظاهر كاذبة ليس لها أية قيمة، بل يخفي في الحقيقة نظاماً يسوده التعصب الديني على الأقلّيات. فهل يريد القادة الفرنسيون أن يسلّطوا المسلمين على الشعب العلوي ليلقوه في أحضان البؤس؟

٤ً - إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدر المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذّيها الدين الإسلامي على الدوام. فليس هناك أمل في أن

تتبدل الوضعية. لذلك فإن الأقلّيات في سوريا تصبح في حالة إلغاء الانتداب معرضة لخطر

الموت والفناء،بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقدوها إنّنا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون بها بعدم إرسال المواد الغذائية إلى أخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين. وحالة اليهود في فلسطين هي أقوى الأدلّة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب المسلمين لكل من لا ينتمي إلى الإسلام. فإن أولئك اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد ولم يأخذوا شيئاً بالقوة، ومع ذلك أعلن

المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من

وجود انكلترة في فلسطين وفرنسا في سوريا. لذلك فإن مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقلّيات

الأخرى في حالة إلغاء الانتداب وتوحيد سوريا المسلمة مع فلسطين المسلمة. هذا التوحيد هو

الهدف الأعلى للعربي المسلم.

٥ً . إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري وعلى الرغبة في تحقيق الاستقلال، ولكن سوريا لا تزال في الوقت الحاضر بعيدة عن الهدف الشريف الذي تسعون إليه، لأنها لا تزال خاضعة لروح الاقطاعية الدينية. ولا نظن أن الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي يقبلون أن يمنح السوريون استقلالاً يكون معناه، عند تطبيقه، استعباد الشعب العلوي وتعريض الأقلّيات لخطر الموت والفناء.

أما طلب السوريين بضم الشعب العلوي إلى سوريا فمن المستحيل أن تقبلوا به، أوتوافقوا عليه، لأن مبادئكم النبيلة، إذا كانت تؤيد فكرة الحرية، فلا يمكنها أن تقبل أن يسعى شعب إلى خنق حرية شعب آخر لإرغامه على الانضمام إليه.

٦ً . قد ترون أن من الممكن تأمين حقوق العلويين والأقلّيات بنصوص المعاهدة، أما نحن فنؤكّد لكم أن ليس للمعاهدات أية قيمة إزاء العقلية الإسلامية في سوريا. وهكذا استطعنا أن نلمس قبلاً في المَعاهدة التي عقدتها انكلترة مع العراق التي تمنع العراقيين من ذبح الاشوريين واليزيديين.

فالشعب العلوي، الذي نمثّله، نحن المجتمعين والموقّعين على هذه المذكرة، يستصرخ الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي ويسألهما، ضماناً لحريته واستقلاله ضمن نطاق محيطه الصغير، ويضع بين أيدي الزعماء الفرنسيين الاشتراكيين، وهو واثق من أنه واجد لديهم سنداً قوياً أميناً لشعب مخلص صديق، قدم لفرنسا خدمات عظيمة مهدد بالموت والفناء. »

الموقّعون

عزيز آغا الهواش محمد بك جنيد سليمان المرشد محمود آغا جديد سليمان أسد محمد سليمان الأحمد .

ولكن، لا الوفود إلى بيروت، ولا الوثائق المرفوعة إلى الدولة الفرنسية، ولا المذكرات الموقّعة من قبل زعماء ومشايخ، ولا مستقبل الأقلّيات الغامض. . ، منعت فرنسا من الرحيل.

ومع هذا؛ لم تخمد نار الانفصاليين، ولم تتوقّف الاضطرابات في البلاد العلوية. . . مما ألزم المفوض السامي أصدار أنظمة سياسية جديدة، تناسب الوضع المستجد . « واتّضح أن باريس وافقت على توصياته القائلة بعودة المنطقتين الدرزية والعلوية إلى الحكم الذاتي والاحتفاظ بالقوات الفرنسية. . . وأصدر المفوض السامي في ٧ تموز (١٩٣٩) أنظمة أساسية جديدة ونصف انفصالية لمناطق اللاذقية وجبل الدروز، تكرس أوضاعها على نحو لا يختلف كثيراً عما كان سائداً قبل ١٩٣٦. وفي اليوم نفسه أرسل الرئيس الأتاسي برقية احتجاج إلى باريس، واستقال من منصبه، وتوجه إلى منزله في حمص، وامتنع الوزراء عن التوجه إلى مكاتبهم، في حين كانت دورة انعقاد المجلس في أيامها الأخيرة. وحين لم يجد المفوض الساميمخرجاً فإنّه نشر في ١٠ تموز مراسيم تتضمن تعليق العمل بالدستور السوري، وتعيين مجلس مكون من المدراء العامين للوزارات برئاسة بهيج الخطيب. . . »

ان هذه الأحداث والوقائع والوثائق التي سردناه هي من الأدلة القوية على وجود التعصب الطائفي القوي في المجتمع السوري وتكشف في الوقت نفسه دور الأقليات في نشر هذه الظاهرة عند باقي المكونات الأخرى وفق مبدأ الفعل ورد الفعل .

**رابعا : الانقلابات العسكرية والصراعات الطائفية الخفية في الجيش السوري**

شكلت الآحتلال الفرنسي ما يعرف بالقوات الخاصة للشرق: وهي القوات المحلية التي شكلتها فرنسا في كل من سورية و لبنان عام 1924 بديلاً عن "جيش سوري وطني"، بإشراف فرنسي، كما نصّ صك الانتداب الذي تنصلت منه فرنسا . بلغ عدد هذه القوات حين التّأسيس أكثر من ستة آلاف، ووصل في ذروته إلى أربعة عشر ألف مقاتل عام 1935 . وكان أكثر متطوعيه من الأقليات الدينية والطائفية والإثنيات العرقية، أما قياداته العليا فهي فرنسية حصراً .

ويُذكر في السياق ذاته أن فرنسا عمدت، بعد اندلاع الثورة السورية الكبرى (1925) إلى تشكيلٍ آخر أسمته "القوات الإضافية"، استعانت به على إخماد الثورة، وكان معظم منتسبيه من الموتورين طائفياً وعرقياً وشذاذ الآفاق الذين اتسموا بالوحشية والفظاظة بالتعامل، ما جعل فرنسا، بعد إخمادها الثورة الكبرى، تستغني عن خدمات كثيرين منهم، وتضم الباقي إلى "القوات الخاصة للشرق" .

تكاد تجمع وثائق تلك المرحلة أن قرابة نصف القوات كان من العلويين (في سورية) والمسيحيين (في لبنان)، مع نسبة لافتة من الطائفة الإسماعيلية قياساً لتعدادها، على عكس الانخفاض الملحوظ في نسبة الطائفة الدرزية. أما المسلمون السنة فعلى الرغم من وجودهم ضمن تركيبة تلك القوات، فقد كانت نسبتهم أقل بكثير منها في المجتمع، وأغلب المنتسبين من أعراق غير عربية. لافت أيضاً الاعتماد في تلك القوات على أبناء الجبال والمناطق الريفية النائية أكثر من الاعتماد على أبناء الحواضر والمدن، وكان ذلك مدروساً بعناية من الفرنسيين، بحكم تجربتهم السابقة في شمال إفريقيا، بل ونقلوا ضباطا وخبراء منهم من هناك إلى سورية ولبنان، لخبرتهم في شأن التقسيم المجتمعي، وافتعال العداوات وتكريسها وفق خلخلة البنى القائمة.

بعد تحوّل الحراك الثوري السوري إلى مرحلة الكفاح السياسي، والنجاح في تحقيق بعض المطالب، كانتخابات الجمعية التأسيسية ووضع دستور 1930 وإعلان الجمهورية السورية الأولى التي أنهت التقسيم الفرنسي لسورية إلى عدة دويلات. أما المطالب المتعلقة بتأسيس جيش سوري، فماطلت فيها فرنسا، لكنها استجابت لافتتاح "الكلية العسكرية في حمص" 1932. ولزيادة نسبة السنة والعرب في القوات، ولكن بمراقبة دقيقة منها، بما لا يخلّ بمنهجها. ما زاد، بدرجة لافتة، نسبة العرب والسنة التي تجاوزت النصف من خريجي الكلية العسكرية في حمص، أن المستوى التعليمي في الجبال والمناطق النائية كان متدنياً، بل ومنعدماً في كثير منها، وهو ما يفسر قلة الضباط العلويين تحديداً، مطلع الاستقلال.

تتضارب بعض الآراء مختلفةً في اعتبار أحد العامين (1945 – 1946) عام تأسيس الجيش السوري المستقل، بزعم الفريق الثاني إن الاستقلال كان في 1946، لكن المؤّكد، بالبحث والتقصي والوثائق، أن يوم التأسيس كان في الأول من أغسطس/ آب 1945، وهو أيضاً المعتمد رسمياً من الحكومات السورية المتعاقبة. وتعود جذور التأسيس إلى معاهدة 1936 التي نصت على منح الاستقلال خلال مرحلة انتقالية، أقصاها ثلاث سنوات، وتأسيس جيش وطني سوري على كامل الأراضي السورية التي تحتلها فرنسا (مع استقلالية لبنان) في مقابل الإبقاء على قاعدتين جويتين فرنسيتين للإستخدام، حين الضرورة.

نشوب الحرب العالمية الثانية (1939) ودخول فرنسا الحرب أعطياها ذريعة للمماطلة، لكن الوعود عادت لكسب تأييد السوريين، حين وقّعت باريس تحت الاحتلال الألماني، خصوصا بعد معركة دمشق (يونيو/ حزيران 1941) التي

استعادت فيها قوات فرنسا الحرة السيطرة على سورية، طاردة القوات الموالية لحكومة (فيشي) المعينة من الألمان، فقبيل تلك المعركة حلقت طائرات فرنسية تتبع للحلفاء في سماء دمشق، وألقت مناشير كتب عليها "فرنسا بصوت أبنائها تعلن استقلالكم" . بعد شهر، اجتمع المندوب السامي الفرنسي الجديد (الجنرال كاترو) مع السياسيين السوريين في مدرج جامعة دمشق، معلناً أن الوقت قد حان لوضع نهاية للإنتداب والتفاوض بشأن شروط تحقيق سيادة تامة، استمرت المفاوضات حتى سبتمبر/ أيلول 1941، وأذيع بيان الاستقلال، وفيه "إن فرنسا تعترف بسوريا دولة حرة مستقلة ذات سيادة" . اعترفت بريطانيا ودول أخرى بهذا الاستقلال مباشرة، والذي أعقبه إعادة العمل بالدستور، وتولي تاج الدين الحسيني مهام رئاسة الجمهورية.

نصّت معاهدة 1936 على منح الاستقلال خلال مرحلة انتقالية، أقصاها ثلاث سنوات، وتأسيس جيش وطني على كامل الأراضي السورية التي تحتلها فرنسا

استقلال سورية إذن وإعلانه فرنسياً، واعتراف بريطانيا به كان عام 1941، لكن تطبيقه الواقعي على الأرض وجلاء آخر جندي فرنسي تأخر إلى ما بعد تحرير فرنسا ذاتها من الاحتلال الألماني ونهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، حيث عادت المفاوضات إلى بحث إجراءات التنفيذ . طالبت فرنسا ببقاء القاعدتين الجويتين، كما في معاهدة 1936وبإشرافٍ على تشكيل الجيش الوطني، وهو ما يرفضه الساسة السوريون، لأن فرنسا نكصت بعهودها وسلمت لواء اسكندرون لتركيا (1939)، وضمّت مزيداً من الأقضية لجبل لبنان. ما يسجل هنا بحروف ناصعة لساسة الاستقلال، خصوصا الرئيس شكري القوتلي ورئيس الوزراء وزير الدفاع، سعد الله الجابري، الموقف الصلب في رفض أي وجود فرنسي أو تدخل، على الرغم من التهديد باعتقالهما وقصف الطيران الفرنسي مبنى البرلمان وحاميته

(29 مايو/ أيار 1945)، بل وقّعا معاً مرسوم تأسيس الجيش السوري، الوطني كامل الاستقلال، في الأول من أغسطس/ آب عام 1945. وسرعان ما صدر خلال الشهر ذاته الأمر الإداري (55/3) عن قيادة الأركان الحربية، متضمناً التفاصيل الناظمة لتشكيلات الجيش السوري، بفرقه وألويته وأفواجه وشعبه، وما يتعلق بشؤونه واعتبارها واجبة التنفيذ من الأول من سبتمبر/ أيلول 1945.

وعندما تم الجلاء كاملاً (17 إبريل/ نيسان 1945) كان الجيش السوري فعلياً وحده القوة العسكرية الموجودة في الدولة المعترف بسيادتها، من دون وجودٍ لأي جندي محتل.

قبل النكبة والانقلابات

حدّد المرسوم 1271 الصادر في 12/11/1945، بتوقيع كل من رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وسعد الله الجابري بصفته وزيراً للدفاع ورئيساً للوزراء، ملاك الجيش السوري بتشكيله الموجود والبالغ عدد أفراده 12686، ثلثاهما من القوات النظامية وثلث من القوات غير النظامية الملتحقة به. فيما كان عدد الضباط من مختلف الرتب 586 ضابطاً، أعلاها رتبة زعيم (عميد)، ومن بينهم أول ضابط يتسلم قيادة الأركان، الزعيم عبدالله عطفة، اللافت في الإحصاءات والأرقام الموثقة أن عدد أفراد الجيش من القوات النظامية يقلّ عن العدد الذي كان يشكل قوامه في القوات الخاصة للشرق قبل الاستقلال، والتي تجاوزت أعدادها أربعة عشر ألف مقاتل، ما يعود إلى أن مرسوم التأسيس استثنى من آثر مؤازرة الفرنسيين، ولم ينضم للجيش الوطني بعد حادثة الاعتداء على البرلمان.

هتمت الحكومة بمعظم ما جاء في تقرير رئيس الأركان، وشكلت لجاناً لشراء ما تستطيع من أسلحة ثقيلة من مخلفات جيوش الحلفاء في البلدان المجاورة والقريبة، ومحاولات تنويع مصادر السلاح الجديد، بشكل مباشر أو عن طريق وسطاء، فنجحت في بعض وفشلت في آخر، ما أبقى التسليح دون المستوى المأمول، على أعتاب حربٍ تلوح نذرها في فلسطين. وعلى صعيد التدريب، أُرسل ضباطٌ كثيرون في بعثات للتدرّب على أحدث التقنيات في مختلف التخصصات العسكرية، ومنها دورات طيران. ولم يمض عامان، حتى ارتفع مستوى الكفاءة في بعض التخصصات، إلى درجة جيدة نسبياً، لعل من شواهدها مطار المزّة العسكري الذي ضاق بحركة طيرانه اليومية من طلعات تدريبية واستطلاعية على الطائرات البالغ عددها 24، معظمها هارفارد أميركية الصنع مخصصة للتدريب، ما استدعى فتح ثانية للطيران والتدريب في مطار النيرب العسكري في حلب. وتزامن ذلك مع قوانين ومراسيم ناظمة ومنظمة للشأن العسكري، مستفيدة من تجارب الجيوش المتطورة، والأهم مرسوم الخدمة العسكرية الإلزامية الذي طبق أول مرة نهاية عام 1947، وتجاوزت دفعة السوق الأولى عشرين ألفاً من الأفراد المجنّدين مع فتح باب التطوع للأطباء والمهندسين من خرّيجي الجامعة السورية، بحسب الحاجة والاختصاص، لتعيينهم ضباطاً عاملين برتبة ملازم أول، بعد اتباعهم دورة عسكرية.

كان الجيش السوري في مرحلته الأولى وطنياً بحق، ولم يشهد أي تمييز بين أبناء الوطن الواحد

كان الجيش السوري في تلك المرحلة وطنياً بحق، ولم يشهد أي تمييز بين أبناء الوطن الواحد، المتطلع إلى دولة حضارية، وبحماس منقطع النظير، للذود عن حياضها في مرحلة تلوح فيها المخاطر والتهديدات. وتعطي الوثائق التي باتت متوفرة بكثرة وتفصيل فكرة واضحة من خلال أسماء الضباط على شمولية مختلف أطياف المجتمع السوري

بطوائفه وأعراقه (من بين أسماء الضباط أكثر من ضابط أرمني وبمواقع قيادية). جدير بالملاحظة أيضاً أن الضباط من الطائفة العلوية لم يكن لهم وجود بين رتب القادة مع عدد قليل في رتب الضباط حديثي الانتساب، ولعل مرد ذلك أن التعليم المؤهل لدخول الكلية العسكرية في حمص منذ إحداثها (1932) لم يكن متوفراً في مناطقهم الجبلية آنذاك، لكن تلك القلة الملحوظة ذلك الوقت سرعان ما ستنقلب عكساً لتغدو ظاهرة طاغية في مرحلة لاحقة.

أقسى ما يمكن أن يتعرّض له جيشٌ وليد، ما يزال يحاول إكمال البنيان في دولةٍ فتية، يكون باضطراره للإنخراط في حربٍ، عليه فيها أن يكون المهاجم، وهو الدور الذي يحتاج في العلوم العسكرية ضعفي قدرة الخصم على الأقل، فيما الوضع هنا معكوس تماماً في اضطرار الجيش السوري لمحاربة للصهاينة على أرض فلسطين (1948).

صدر قرار تقسيم فلسطين الذي أجمع العرب على رفضه، بل واستبقوه، لعلمهم المسبق بنتائجه، إلى التنادي إلى تشكيل جيش تحرير عربي، فرعى مجلس جامعة الدول العربية مشروع التطوع فيما سمي لاحقاً "جيش الإنقاذ"، بقيادة الضابط المخضرم الطرابلسي المولد، فوزي القاوقجي، الذي سبق وقاد ثورة 1936. استهدف جيش الإنقاذ عشرة آلاف متطوع، لكن الوثائق تؤكد أن من تحرّك منهم إلى الداخل الفلسطيني، كان نصف العدد فقط، وبتسليح بسيط، غالبه أسلحة فردية قديمة. بدأت عمليات جيش الإنقاذ في الداخل الفلسطيني منذ أواخر عام 1947 بعد قرار التقسيم مباشرة. وعلى الرغم من قلة عتاده، استطاع أن ينتزع السيطرة على مناطق من البريطانيين والعصابات الصهيونية. ولكن المثير للتساؤل عدم قيام تعاون بينه وبين حركة المقاومة الداخلية التي نادى بها مفتي القدس، أمين الحسيني، وقاد عملياتها عبد القادر الحسيني.

وفيما يخص الجيش السوري، بادرت الحكومة إلى تقديم 54 من ضباطها بقيادة أفواج المتطوعين في جيش الإنقاذ، وكان من بينهم قادة أفواج اليرموك. ومن أبرزهم، ممن سيكون لهم شأن لاحقاً، المقدم أديب الشيشكلي، قائد فوج اليرموك الثاني. والرائد غسان جديد قائد فوج المتطوعين العلويين. لكن الحكومة السورية، وهي هنا الثالثة بعد الاستقلال، بعد وفاة سعد الله الجابري 1947 الذي كان يجمع منصبي رئاسته الحكومة ووزارة الدفاع، وكان عبر تاريخه الأكثر صلابة في المواقف الحاسمة، ثم حكومة خالد العظم فحكومة جميل مردم ووزير دفاعه أحمد الشرباتي، بدت هذه الحكومة كأنها استكانت لما قدمته من دعم لجيش الإنقاذ، بضباطها المتطوعين، لكنها لم تستعدّ بجيشها استعداداً كافياً لنذر حرب واضحة المعالم والمكان والزمن، فالمعلن من بريطانيا وهيئة الأمم أن الانسحاب البريطاني سيكون منتصف مايو/ أيار وأن القيادات الصهيونية ستعلن فوراً قيام دولتها، مستندة إلى قرار التقسيم. انتظرت الحكومة السورية إلى ما قبل الموعد المحدد بثلاثة أسابيع، لتقرر عاجلاً، بعد قرار مجلس جامعة الدول العربية، الدخول إلى فلسطين، بلواء المشاة الأول بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم، مع تحريك اللوائين، الثاني بقيادة العقيد جميل برهاني، والثالث بقيادة الزعيم حسني الزعيم، ليكونا على أهبة الاستعداد. حاول العقيد الحكيم ان يشرح بأن ثلاثة أسابيع غير كافية للاستعداد لدخول حرب هجومية، لكنه اضطر للامتثال للأوامر التي بلغت من تخبّطها أنها بعد تحرك اللواء بكل أسلحته للدخول عن طريق لبنان. وبعد أن استجمع ما يمكن من معلومات وخرائط عن طبيعة المنطقة ونقاط تمركز العدو جاءته الأوامر مجدداً، وقبل يومٍ من بدء الحرب بالعودة من لبنان، والتجمّع في قطنا للدخول من الحدود السورية، ومواجهة مناطق لا يملك خرائطها.

لعل ذلك، وما سبقه من أسباب، أدّيا إلى نتائج غير مرضيةٍ في بداية الحرب التي حضر بدايتها داخل الأراضي الفلسطينية رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، تأكيداً على أهميتها، فبعد تقدماتٍ للجيش، وتحرير نقاط حدث تراجع

وانكسارات أثارت الشارع السوري على حكومته وأدائها في هذه الحرب التي لم يمض عليها سوى أسبوع، حين اضطرّ وزير الدفاع، أحمد الشراباتي، تحت الضغط، إلى الاستقالة، لتعقبه في اليوم التالي عدة مراسيم، بصرف كل من خطّط للمعركة من الخدمة، مطيحة رئيس الأركان، اللواء عبد الله عطفة، وقائدي اللوائين الأول والثاني، عبد الوهاب الحكيم وجميل البرهاني، فيما صدر مرسوم بتكليف قائد اللواء الثالث، حسني الزعيم، بقيادة الأركان.

أصدرت الحكومة قراراتٍ استثنائية عديدة متاحة دستوريا في حالة الحرب، فأعلنت حالة الطوارئ، ووضعت كل ما يمكن من إمكانات مادية، لدعم الجبهة، وتم زج اللواء الثالث، وسلاح الطيران على الرغم من أن سلاحه تدريبي وطياريه قلائل حديثي التخرّج. حيث عدّل الفنيون ما استطاعوا بالوسائل المتاحة على الطائرات، كي تحمل القذائف وتزويدها برشاشيْن، أمامي هجومي وخلفي دفاعي، فأبدى أولئك الطيارون مهاراتٍ فائقة في الطيران بلا اتصالات، والهجوم على خطوط العدو، دعماً للقوات البرّية المتقدّمة، تزامناً مع انتصارات لجيش الإنقاذ والجيوش المصرية والأردنية والعراقية وتقدّمها .

### تداخلات المرحلة وبدء الانقلابات

قبل حرب فلسطين وخلالها، كانت شركة النفط الأميركية (تابلاين) تحاول تمرير مشروع خط أنابيبها من السعودية إلى البحر المتوسط عبر الأراضي السورية، وبشروطها المجحفة التي رفضت مرة ثانية من حكومة خالد العظم العائدة إلى الحكم. استغل حسني الزعيم حالة التذمر الشعبي من الساسة، في أعقاب قيام دولة إسرائيل، ونقمة عسكريين كثيرين عليهم، بذريعة عدم درايتهم بالأمور العسكرية، فقام بانقلابه العسكري في 30 مارس/ آذار 1949، بعد قطعه جميع الاتصالات عن العاصمة، واعتقال قواته سياسيين كثيرين، في مقدّمتهم الرئيس القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم.

باشر الزعيم بانتزاع جميع السلطات، وحصرها في شخصه، مسلماً نفسه بنفسه سلطة بعد أخرى، وبطرق لم تخلُ أحياناً من شكل مسرحي واستعراضي كان يهواه، ومرفّعاً نفسه إلى رتبة مشير. وفي خضم قرارات ومراسيم كثيرة متتالية، كان بعضها يلقى تأييداً شعبياً، مرّر الزعيم "اتفاقية التابلاين"، ووقع اتفاقية الهدنة، وهما أهم ما كانت تسعى إليه الولايات المتحدة الأميركية من دعمها له وتأييدها انقلابه. أمام تكشف دور الزعيم ولجوئه إلى زج معارضيه في السجون، سياسيين وعسكريين، حتى ممن ساعدوه في انقلابه، كالعقيد أديب الشيشكلي، وما أعقبه من تسليم زعيم القوميين السوريين، أنطون سعادة، إلى لبنان بطريقة فجة، حيث تم إعدامه مباشرة، الأمر الذي اعتبره كثيرون خيانةً لا تليق برئيس دولة، بالإضافة إلى ابتعاده عن المشروع البريطاني في العراق والأردن.

سرّع ذلك كله بنهاية حكمه الذي لم يدم سوى 137 يوماً بانقلاب جديد، نفذه العقيد سامي الحناوي. وسيشكل انقلاب الزعيم لاحقاً نقطة الانعطاف الخطرة في الدور الوطني لمعظم الجيوش العربية، لفرض أجندات خارجية، أو لفرض إرادة القادة العسكريين على السياسة العامة للدولة وإقصاء رجالاتها المنتخبين ديمقراطياً، بقوة سلاحٍ تنحرف توجهاته من الحدود إلى داخلها، وإلى إراقة دماء من أهل الوطن أكثر بكثير مما يفعل تجاه الأعداء الخارجيين. سرعان ما أُعدم حسني الزعيم ميدانياً بتهمة الخيانة، إثر انقلاب العقيد الحناوي الذي تكشف مباشرة الدور البريطاني فيه، على خلفية التنافس البريطاني الأميركي في الدور المتصاعد لأميركا بعد الحرب، فأجندة انقلاب الحناوي أظهرت دعمها للمشروع البريطاني بوحدة سورية والعراق في ظل حكم ملكي هاشمي ترعاه بريطانيا، ويحقق مصالحها في السيطرة على البلدين، وربط خطوط النفط العراقي، وما هو متوقع من نفط سوري بساحلها على البحر المتوسط وهو المشروع المؤيد من قادة حزب الشعب.

يلحظ هنا تأثير حكم العسكر على السياسيين، وبدء مرحلة انحرافات بعضهم بالخضوع للقوة العسكرية، وتملك قادتها في محاولة للتشارك، بمكاسب حزبية أو فئوية. اتضح ذلك بتوجه الحناوي إلى تسليم الرئاسة للرئيس السابق، هاشم الأتاسي، ودعم حزب الشعب في الحكومة والمناصب، فردّوا له بمكافأة ترفيعه رتبتين من عقيد إلى لواء وتثبيته في قيادة الأركان التي كان يرأسها بالوكالة. ولعل الحناوي، ومن يقف خلفه، استفادوا من تجربة الزعيم المتهوّرة في الاندفاع السريع إلى الإمساك بجميع السلطات، ومع الرفض الشعبي والسياسي الذي رأى في المشروع البريطاني محاولةً لإعادة الدولة المستقلة إلى حكم استعماري بريطاني. حاول الحناوي وبنصائح من سياسيين مقرّبين التخلص من كبار الضباط المعارضين، بمحاولة تسريحهم أو نقلهم ملحقين عسكريين في السفارات، وهو ما كُشف وجعل العسكريين يسارعون لإطاحته، وبمشروعه عبر الانقلاب الثالث في عام واحد، بقيادة نائب رئيس الأركان، العقيد أديب الشيشكلي الذي كان أكثر مهارة وروية من سابقيه في المناورة مع السياسيين. لم يتطلع مباشرة إلى المناصب، وبقي مكتفياً بمنصبه السابق نائباً لرئيس الأركان ونصّب الزعيم فوزي سلو في قيادة الجيش، والزعيم أنور بنّود رئيساً للأركان، بينما من الناحية الفعلية كان الشيشكلي قائد الانقلاب يمارس دور القائد الأعلى للقوات المسلحة، وكذلك فعل مع السياسيين، فبقي هاشم الأتاسي رئيساً للدولة ثم أعيد انتخابه (ديسمبر/ كانون الأول 1949)، واستمر مجلس النواب برئاسة رشدي الكيخيا (رئيس حزب الشعب) في عمله مجلسا تأسيسيا لصياغة الدستور الذي صدر في العام 1950، ويعتبره الخبراء أفضل دستور في تاريخ سورية المعاصر.

على صعيد رئاسة الحكومة، عادت في مارس/ آذار 1950 لتكون برئاسة خالد العظم، أكبر المناوئين للمشروع البريطاني بضم سورية والعراق. وعلى الرغم من الإصلاحات الكثيرة في مجالات الاقتصاد والنقد ومشاريع الاستصلاح والقوانين الاجتماعية والسياسية التي لقيت دعماً في الشارع، إلا أن اختلاطات المرحلة على الصعيد

السياسي، والتي أعادت حزب الشعب إلى الحكومة برئاسة معروف الدواليبي، وتمسّك الحزب وقيادته بالنص الدستوري، القاضي بعدم تدخل العسكريين في السياسة، ومحاولة الدواليبي إعداد مشروع تسريح الشيشكلي من الجيش، وأن يكون وزير الدفاع مدنياً ككل الوزراء، وهو الخلاف الذي يراه الباحثون ليس مجرّد خلافٍ شخصي، بل هو خلاف جوهري ومنهجي بين عقليتين مختلفتين لكل من المؤسستين، السياسية والعسكرية

الخطر الأقوى للإنقلابات وحكم العسكر في تجذّرها في نفوس العسكريين، وتطلع كثيرين منهم إلى الوصول إلى الحكم بالقوة

قام الشيشكلي بانقلاب أبيض، هو انقلابه الثاني (29 نوفمبر/ تشرين الثاني 1951)، وأسس حزبه (حركة التحرير العربي) الذي نال أغلبية نيابية وتسلم مقاليد الرئاسة، واستصدر مزيداً من المراسيم التي توسع سلطاته، وتكرّسها دستورياً على نحوٍ لم يرق لبقية الأحزاب، القديمة منها على الساحة، والمستجدة كالبعث والقومي السوري، مما اضطرّه لفرض الأحكام العرفية والسير في طريق سابقيه من العسكريين، بزجّ السياسيين في السجون، وبلغت الأمور ذروتها مطلع العام 1954، احتجاجاً على طريقة قمعه أحداث جبل العرب التي سقط فيها قتلى وجرحى. ومع تصاعد حركات التظاهر في مدن الداخل وتآزر عسكريين معها (حلب، فبراير/ شباط 1954) . آثر الشيشكلي وقتها، وهو الموصوف بالدكتاتورية، في موقف يسجل له، تقديم استقالته إلى مجلس النواب، حقناً لدماء الشعب، كما جاء في بيانه في اليوم ذاته (مساء 25 فبراير/ شباط 1954) . وغادر مباشرة بالسيارة إلى بيروت، ومنها إلى الرياض فالأرجنتين، لتنتهي المرحلة الأولى من انقلابات العسكر على الحكم الديمقراطي التي شكلت منعطفاً خطراً وارتكاساً لبناء الدولة السورية الديمقراطية المستقلة، المتطلعة إلى اللحاق بركب عالم متطور. الآثار السيئة للإنقلابات وحكم العسكر لم

تقتصر على مسيرة الديمقراطية والسياسة وحسب، بل كان خطرها الأقوى في تجذّرها في نفوس العسكريين، وتطلع كثيرين منهم إلى الوصول إلى الحكم بالقوة، وبدعم سرّي من قوى خارجية، هو أقرب، في طبيعته، إلى الخيانة الوطنية غير المعلنة، تنفيذاً لمشاريع استراتيجية تنسجم مع مخططات الداعمين المتخوفين عليها في إطار التبدلات لاختيارات الدولة الديمقراطية، إضافة إلى استنزاف الجيش كثيرين من قياداته ورتبه العالية عبر التصفية، أو الإبعاد لكل من يخالف أو يراه المنقلب خطراً عليه.

هذه الناحية بالذات سنراها في الجيل التالي من الضباط العائد بشراهة أكبر وأكثر خطراً بعد تسع سنوات شهدت خلالها سورية إطلالة ومضة ديمقراطية قبل الوحدة مع مصر، ثم الانفصال، فعودة العسكر.

**العسكر والسياسة .. مدٌّ وجزر حتى الانفصال**

انتهت مرحلة الانقلابات العسكرية الأولى في سورية عام 1954 بتنحي أديب الشيشكلي، ومغادرته السلطة والبلاد، لتعود مجدّداً إضاءة للحياة السياسية الديمقراطية بعد الاستقلال، شاهدة عودة المدنيين إلى الحكم، وتراجعاً مؤقتاً للعسكر عن صدارة المشهد السياسي. ويبدو أن التطور الطبيعي للبلاد، اجتماعياً وتعليمياً، وما صحب المرحلة من استقلال فنكبة في فلسطين، وما أعقبها من انقلابات، إضافة إلى أن ظلال ما يحدث في العالم وانعكاسه على الوعي السياسي والمجتمعي في سورية ألقى بآثاره الواضحة على المرحلة، فالانتخابات البرلمانية أعطت روائز جديدة، بدأت تدبّ في أوصال الأحزاب التقليدية، المستندة في زعامتها على خلفية إقطاعية وبرجوازية، لعبت دورها الوطني سابقاً، وأوصلت البلاد إلى الاستقلال، فيما برز دور جديد لأحزاب قادمة من منبت اجتماعي مغاير، تقوم، في بنيتها الحزبية الراديكالية، على إيديولوجيات محدّدة، لا على مجرّد خطوط وطنية عامة كسابقتها

في انتخابات رئاسة الجمهورية 1955، والتي يقترع فيها النواب، بحسب الدستور، حصل شكري القوتلي على 91 صوتاً مقابل 42 صوتاً لمنافسه خالد العظم، ليعود القوتلي إلى الرئاسة، لكن الواقع الجديد للقوى والأحزاب السياسية سرعان ما اتضح في التوازنات الجديدة ضمن تشكيلات الحكومة والجيش، خصوصا مع التزايد المضطرد لنفوذ البعثيين والقوميين الذين كانوا يعملون بديناميكية وروح شابة متوثبة، وخدمتهم الظروف الإقليمية والدولية أكثر، إثر الموقف القومي إبّان العدوان الثلاثي على مصر 1956، وما تبعه من تقارب أكثر مع الاتحاد السوفياتي، كما كان في استطاعة الاستخبارات، بإدارة عبد الحميد السراج، إفشال محاولة الإنقلاب اليميني المرعي من الاستخبارات الأميركية (أكتوبر/ تشرين الأول 1956) الدور الأهم في إبعاد كثيرين من ضباط اليمين وسياسييه، وإعادة بروز دور العسكر بتأسيس مجلس عسكري بقيادة عفيف البزري، والمكون من 24 ضابطاً، أبرزهم عبد الحميد السراج الذي قوي دوره لكشفه المحاولة، ومن ثم طرده الملحق العسكري الأميركي في سورية، هيوارد ستون، ما جعل القوتلي مضطراً لممالأتهم أكثر فأكثر، في توزيع المناصب الحساسة، فكانت حقيبة وزارة الخارجية لصلاح البيطار من "البعث"، وتحولت رئاسة المجلس النيابي من ناظم القدسي عن حزب الشعب إلى أكرم الحوراني، الشريك الإشتراكي للبعث المتوحد، فيما تم تعيين عفيف البزري، بعد ترفيعه إلى رتبة لواء، رئيساً للأركان وقيادة الجيش، وهو المعروف بقربه من الشيوعيين. لابد من التأكيد هنا أن شعبية حزب الشعب، صاحب الكتلة البرلمانية الأكبر من دون أغلبية، كانت تتهاوى نتيجة الميل السابق المعلن لدى حزب الشعب إلى اتحاد مع العراق، في ظل ملكية هاشمية برعاية بريطانية، فيما دور بريطانيا في المنطقة يشهد نقمة شعبية وسياسية وعسكرية متصاعدة، سواء من جهة الدعوة إلى حلف بغداد، أم من العدوان على مصر إثر تأميم الرئيس جمال عبد الناصر قناة السويس، وهو ما جعل القوتلي

وحكومته يميلون، بوضوح، إلى المعسكر الشرقي الاشتراكي، وتجلى ذلك بإسناد حقيبة وزارة الدفاع لخالد العظم، المعروف بلقبه البرجوازي الأحمر، نتيجة مواقفه الصلبة تجاه المشاريع الأميركية والبريطانية في سورية والمنطقة.

وربح البعثيون جولة مهمة سياسياً وعسكرياً أمام الحزب القومي السوري الاجتماعي، أحد أبرز خصومهم حينها، من الأحزاب الناهضة، فحادثة اغتيال العقيد عدنان المالكي، نائب رئيس الأركان، في الملعب البلدي في دمشق 1955 وجهت فيها أصابع الاتهام إلى القوميين السوريين، وأدت إلى ضربة قاصمة لهم سياسياً وعسكرياً في سورية، كان من نتائجها تسريح الموالين لهم من الجيش، ومن بينهم أعلاهم رتبة، المقدّم غسان جديد، ومن ثم ملاحقته واغتياله في بيروت 1957. مرحلة المد القومي العروبي جماهيرياً لقيت صداها في صفوف العسكريين من ذوي الميول القومية والبعثية، وأعادتهم إلى الواجهة من جديد بفاعلية، إنما من دون انقلاباتٍ، هذه المرة، بل بدأت بعصيان قطنا (1957)، الرافض قرار القوتلي نقل العقيد السراج من قيادة المكتب الثاني (الاستخبارات) إلى السفارة في الهند، إدراكاً منهم أن نقل السراج القوي سيعقبه حدٌّ من تنامي نفوذهم المستعاد. ويبدو أن القوتلي وحكومته تبينوا جوهر العصيان، وعاقبة الذهاب بعيداً في صدام مع العسكر، فتم طي القرار، استجابة لمطالب ضباط العصيان، وهو ما كان مقدّمة للإيغال في اندفاعهم بفرض إرادتهم بوحدة سريعة مع مصر، فبلغ الاندفاع ذروته بذهاب الوفد العسكري إلى مصر، لملاقاة عبد الناصر، من دون سابق تنسيق، ومن غير إذن رئاستي الحكومة والجمهورية (وثيقة بخط عفيف البزري). أبدى عبد الناصر تحفّظه تجاه لقاء وفد غير رسمي، فاضطر القوتلي، وعلى غير رغبة منه، كما اتضح لاحقاً إلى مجاراة العسكريين بإرسال وزير خارجيته، البعثي أيضاً، صلاح البيطار، للاجتماع رسمياً بعبد الناصر وطلب الوحدة.

### في مرحلتي الوحدة والانفصال

شملت شروط عبد الناصر للوحدة حلّ الأحزاب السياسية، وأن تكون الوحدة اندماجية، لا فيدرالية، وبعاصمة واحدة هي القاهرة، وبرئيس واحد ينتخب. وافق البيطار والوفد العسكري على الشروط، و اضطر القوتلي للذهاب إلى القاهرة، وتوقيع ميثاق الوحدة والتنازل طوعياً عن الرئاسة. وسرعان ما تم في الشهر نفسه الاستفتاء على دولة الوحدة، باسم الجمهورية العربية المتحدة، ورئاسة عبد الناصر. وتزعم النتائج الصادرة حينها أن عدد الأصوات الرافضة كان 300 صوتاً فقط، ليبدأ في اليوم التالي مباشرة (22 فبراير/ شباط 1958) عهد دولة الوحدة.

برزت مشكلات الوحدة المتعجّلة سريعاً، خصوصا أمام الضباط الذين اندفعوا إلى فرضها من دون دراسة أو تخطيط أو هيكلة، فاللواء عفيف البزري الذي تم ترفيعه من عبد الناصر إلى رتبة فريق، وتكليفه بقيادة الجيش الأول في سورية، ومع أول خلاف مع المشير عبد الحكيم عامر، على تعيين أحد الضباط، أصدر المشير قراراً فورياً بتسريحه من الجيش، متهماً إياه بالشيوعية، وعيّن اللواء جمال الفيصل مكانه بعد ترفيعه إلى رتبة فريق. كما بدأت حركة نقل ضباط سوريين كثيرين إلى مصر، وإسناد مهام مكتبية لهم، وتعيين كبارهم في وزارات بلا فاعلية (أمين النفوري ومصطفى حمدون)، ونقل بعضهم إلى الملحقيات العسكرية في السفارات والبعثات الدبلوماسية إبعاداً من صفوف الجيش، ما جعل التذمّر واضحاً، خصوصا عند البعثيين الذين لم تتفكّك عراهم تماماً، مدركين أن ما من دور هام لهم قادم، وأن اندفاعهم المتهور إلى الوحدة يمضي في غير الاتجاه الذي كانوا يطمحون إليه

وفي العام 1959 بدت الخيبة البعثية من الوحدة واضحة في صفوف قياداتها، المنحلة ظاهرياً، وضباطها الذين تغير بهم الوضع من فارضي إرادات على الرئاسة زمن القوتلي إلى مهمّشين في زمن عبد الناصر. وزاد الطين بلة عليهم فشل القيادات البعثية في انتخابات الإتحاد القومي، ولعل ذلك ما دفع أحد المؤسسين الأوائل (ميشيل عفلق) إلى إعادة

التنظيم خارج الحدود، تبعته استقالات أكرم الحوراني من منصبه الشكلي نائباً لرئيس الجمهورية، وصلاح البيطار من مسمّاه وزيراً للثقافة، وعبد الغني قنوت، وعدد من الوزراء المركزيين والمحليين، والذين للحق لم تكن لهم أية سلطة في القرارات النافذة ضمن الهيمنة المصرية. ولعلها كانت خطة من عبد الناصر واستخباراته، لاستيعابهم، مع كبح أي جموح أو تطلع لهم، إدراكاً لمراميهم كبعثيين، فيما كان الثقات في ولائهم من غير البعثيين يحظون بكل النفوذن مثل عبد الحميد السراج الذي بات وزيراً للداخلية، بصلاحيات كبيرة.

## اللجنة العسكرية البعثية

في خضم الخيبات البعثية وتجاذبات المرحلة، والاستفاقة من حلم سرمدي على واقع محبط لطموحات عسكريي "البعث". ومع محاولة لملمة الصفوف من قيادتهم السياسية التي كانت الهوّة تكبر بينها وبين أتباعها من الضباط، تأسّست في مصر سريّاً لجنة عسكرية بعثية خماسية من كبار الضباط البعثيين، برئاسة أعلاهم رتبة العميد (بشير صادق) الذي سبق وكان ضمن الوفد العسكري المطالب بالوحدة، فيما كان أدناهم رتبة الرائد محمد عمران، وهو الوحيد ضمن الخمسة من الطائفة العلوية. لم يكتب لهذه اللجنة الاستمرار، بسبب حركات النقل إلى البعثات الدبلوماسية، حيث لم يبق منهم في مصر إلا محمد عمران الذي قام بتأسيس لجنة جديدة برئاسته. وهنا نقطة تحول كبرى، فالرائد عمران هو الأعلى رتبة، وضم إلى العضوية الرائد المستجد صلاح جديد والنقيب حافظ الأسد، من الطائفة العلوية، وعبد الكريم الجندي وأحمد المير ملحم من الطائفة الإسماعيلية، وضابطين برتبة ملازم، أدنى مراتب الضباط، من السنّة، على الرغم من وجود ضباط برتب عالية!. وهو ما يعتبره باحثون بداية محاولة هيمنة الطائفية على الجيش بقيادة علوية.

في 1959 بدت الخيبة البعثية من الوحدة مع مصر واضحة في صفوف قياداتها، المنحلّة ظاهرياً، وضباطها الذين تغير بهم الوضع من فارضي إرادات على الرئاسة زمن القوتلي إلى مهمّشين في زمن عبد الناصر

ولم يكن الانفصال عن مصر في 28 سبتمبر/ أيلول 1961 نتيجة أعمال البعثيين، لا من الساسة ولا العسكر، وهو وإن كان، في بواعثه، يرتكز إلى وحدةٍ غير مدروسة ومهملة للجانب الاقتصادي وتوحيد النقد، ولهيمنة مصرية رأت في سورية مجالاً لنفوذ أكبر، أدّى إلى لا مبالاة من القيادات، برئاسة المشير عبد الحكيم عامر الذي بات الحاكم المطلق لسورية بصفته نائباً لعبد الناصر وبتكليف منه. أكثر الأسباب مباشرة وأهمية كان قرار عبد الناصر بالتأميم صيف 1961، وهو ما حاول القوتلي، بصفته الرئيس السابق والمواطن العربي الأول، ثني عبد الناصر عنه، وتبيان مخاطره القادمة، لضربه صميم الاقتصاد السوري وكتله النافذة، لكن عبد الناصر مضى في التطبيق غير آبه.

كان التحرّك العسكري هذه المرة من مكتب المشير عامر، وعبر رئيس المكتب، الضابط الدمشقي العقيد عبد الكريم النحلاوي، مدعوماً من الكتلة الدمشقية بما تمتلكه من نفوذ مالي وتأثير اجتماعي، فنجح النحلاوي في حركته الانفصالية، على الرغم من ضعف عوامل النجاح تكتيكياً وعسكرياً، وما زال من المستغرب تراجع عبد الناصر عن إرسال مزيد من القوات جواً وبحراً إلى اللاذقية، بعد ما اتخذ قراراً أولياً بإعادة الوحدة، و إرساله بعض القوات، لكنه عاد وأمر بالانسحاب، فغادر الضباط المصريون مصحوبين بسوريين إلى القاهرة، وكان في مقدمة السوريين المغادرين قائد الجيش الأول، الفريق جمال الفيصل، الذي صحب المشير عامر إلى القاهرة لتأمين سلامته وبقي هناك، وعندما عاد إلى سورية، أبقى تاريخه العسكري ناصعاً بالابتعاد عن الانقلابات وتدخل العسكر في السياسة. في المقابل، أعيدت أكثرية الضباط السوريين إلى دمشق، لتبدأ صراعات جديدة بين الانفصاليين ودعاة الوحدة، وإن كانت تخفي

في ادّعاءاتها رغبة أكبر في استلام السلطة، فلا الانفصاليين بقيادة النحلاوي، ولا المناوئين للإنفصال استكانوا لتسليم السلطة للسياسيين، والركون على الصندوق الانتخابي، وهو ما جعل النحلاوي يغادر يائساً ومهدّداً بعدم عودة السياسيين القدامى إلى الحكم، وما أدى أيضاً إلى فصل ضباط ناصريين وبعثيين من الجيش، بل وزجّ عدد منهم في السجون، إثر حركات مناوئة للانفصال (1962) .

وتثبت الوثائق والدراسات أن الشارع السوري في عمومه لم يكن مرتاحاً لعودة ممثلي المرحلة القديمة إلى الحكم، و لا للانفصال النهائي وإضاعة حلم الوحدة، على الرغم من أخطاء التجربة، وذلك ما يمكن النظر إليه في صفوف الجيش الذي بات معظم ضباطه من غير الرعيل القديم، ذي المنبت الإقطاعي والبرجوازي، فكانت الحالة العامة مهيأة على مدار الأيام لحدوث تحرّكات عسكرية ضد الحكم الانفصالي، وبتحالفاتٍ بين الضباط الناصريين والمحايدين بميولٍ قومية مع ضباط "البعث"، كما حدث في تمرّد حمص (مارس/ آذار 1962)، بقيادة العقيد الناصري، جاسم علوان، والمقدم البعثي، محمد عمران، وما تبعه من تطوّراتٍ في حلب، كانت تفضي إلى القضاء على الانفصال، لولا حماقة الضابطين البعثيين، حمد عبيد وإبراهيم العلي، بإعدام أربعة ضباط موالين للسلطة والخلاف الذي دبّ في صفوف البعثيين بين راغبين بالإعلان المباشر عن إعادة الوحدة ومرجئّين لها، الأمر الذي أدّى إلى تخبطٍ استعادت فيه السلطة زمام المبادرة باعتقال الضباط المتمرّدين.

سيطرة السلطة على الوضع واعتقالها أهم الضباط المحرّكين للأحداث، كالناصري العقيد جاسم علوان، ورئيس اللجنة العسكرية البعثية، المقدم محمد عمران، وما تبعه من حركة انتقالات في صفوف من تراهم يشكلون خطراً

عليها، لم يكن سوى خبط عشواء في لحظات شعورٍ بدنو أجل، لوقوعها بين ناري الاحتماء والإرضاء، حيث اتخذت أيضاً قراراتٍ متخبطة في صفوف العسكريين الموالين لها، ممن حسبت أن الشارع المستمر في الغليان سيهدأ نتيجة ذلك، أو أنه سيرضي الغالبية العسكرية المندفعة بعاطفية، تجاه إعادة الوحدة، والتي في مجملها لا تتبادل والسلطة الانفصالية أي ودّ، وكأن تلك المحاولات لم تكن سوى تحرّك في الوقت المستقطع، لإطالة عمر السلطة سريرياً في محاولة إنعاشٍ أخيرة.

## سنوات التحولات الخطيرة (1963–1970)

تؤكّد وثائق أكثر من جهة دولية عبر مراسلات خارجيتها وبيانات استخباراتها أن وضع الغليان الشعبي والعسكري في سورية وصل إلى ذروته مطلع العام 1963، وأن الانقلاب على سلطة الانفصال (مع مصر) قادم لا محالة، ووشيك الوقوع، خصوصا بعد انقلاب فبراير/ شباط في العراق، وهو ما دفع ضباطا عديدين حياديين، لكسب ود زملائهم القوميين، بغلبتهم ذات الميول الناصرية، أملاً في دور لهم خلال المرحلة المقبلة، أو حفظاً لأنفسهم من مخاطر التسريح والإبعاد، كما يحدث فيما اعتادوه من حركات انقلابية، وهو ما عزّز ميزان القوى الراجح أصلاً في كفّة العسكريين المناوئين للإنفصال. كان كبار القادة العسكريين حينها من المحايدين بميول قومية، ومن الناصريين مكشوفي الولاء، المندفعين، بعاطفيةٍ، إلى إعادة الوحدة مع مصر، من دون تنظيم منضبط، أو تنسيق عالي المستوى فيما بينهم، على نقيض الضباط البعثيين، اللذين كانوا، على صغر رتبهم، يعملون بانضباط وسرّية بقيادة أعلاهم رتبة الرائد صلاح جديد الذي بات القائد الفعلي للجنة البعثية العسكرية، بسبب وجود مؤسسها الثاني، المقدّم محمد عمران، في المعتقل.

أدار صلاح جديد تنظيمه بدقة وإحكام، وبما عرف عنه لاحقاً، بعد تستر وإخفاء، من مكر ودهاء يعتمد على كسب ثقة قادته بإظهار كامل الولاء والطاعة العمياء لهم، طاوياً في سره ما يبيّته ويحيكه من مؤامرات ضدهم. يروي عبد الحميد السراج، بعد تقاعده، في لقاء صحفي، هذه الحادثة التي جرت في مكتبه، حين كان رئيساً للاستخبارات، بعد اغتيال عدنان المالكي، واتهام المقدّم غسان جديد، الشقيق الأكبر لصلاح، بضلوعه في عملية الاغتيال، حيث هاتفه المقدّم البعثي مصطفى حمدون، معلماً إياه بالحضور مع ضابط شاب سيقدّمه له. وحين دخلا المكتب، كان وراء حمدون ضابط برتبة نقيب، قدّمه للسراج معرّفاً به، أدى صلاح جديد التحية العسكرية بقوة، ارتجت لها أرضية المكتب، وقال: "سيدي، باسمي وباسم آل جديد، أتطوع لقتل أخي غسان غسلاً لعارنا الوطني بسبب أفعاله". ويتابع السراج روايته الحادثة: "حملقت فيه بغضب، وصحت: ما هذا الكلام؟ من ذا الذي يقتل أخاه بفخر؟ لا تعد إلى هكذا هرطقة. وانصرف.. فيما بهت حمدون وخرج في إثره". ويبدو جلياً أن صلاح جديد استمرّ على طريقته في إظهار ولائه للقادة، مستغلاً، في هذه المرحلة، موقعه الحسّاس، نائباً لمدير شؤون الضباط، بكل ما يسمح به الموقع من تكتيك ومناورة في وضع من يرغب من الضباط في الموقع الذي يختاره له، تفعيلاً لدور قادم أو تهميشاً، وهو الموقع الذي سيبقى متمسكا به، حتى في المراحل اللاحقة، لمعرفته الدقيقة بعمق أثره. في هذه الظروف، تحرّك الضباط والعسكريون، بقيادة العميد المستقل والأعلى رتبة، زياد الحريري، وبدعم كامل من نظرائه اللذين أبعدتهم حكومة الانفصال عن الخدمة، في صبيحة 8 مارس/ آذار 1963، للسيطرة على العاصمة ومحيطها في الانقلاب الذي سمي "الثورة"، جرياً على عادة الانقلابات العسكرية في المنطقة حينها، منهياً سنة وبضعة أشهر من عهد الانفصال، وما تخلله من ممارسات ديمقراطية شهدت تجاذباً مع العسكر، مرّة أخيرة في تاريخ سورية، لتبدأ مرحلة جديدة ومديدة من سيطرة العسكر على كل مفاصل الدولة، وبتحوّلات شديدة التسارع والخطورة.

## من الوطنية إلى العقائدية فالطائفية

إثر انقلاب "8 آذار" مباشرة، تم تسريح قيادات الجيش السابقة والضباط الذين أيّدوا الانفصال، وفي مقدّمهم وزير الدفاع (الدرزي) الفريق عبد الكريم زهر الدين، ومدير الأمن العميد الدمشقي مطيع السمان. وإعادة الضباط الوحدويين المسرّحين إلى الخدمة، باستثناء بعض الناصريين، كالعقيد جاسم علوان، فيما آثر الفريق جمال الفيصل عدم تلبية الدعوة إلى المشاركة، واعتزال الحياة العسكرية والسياسية، أما الفريق عفيف البزري فأكدت لنا ابنته أنه لم تتم دعوته للمشاركة، نافية الروايات الزاعمة أنه دعي واعتذر.

إثر انقلاب "8 آذار"، تم تسريح قيادات الجيش السابقة والضباط الذين أيّدوا الانفصال عن مصر

تشكل سريعاً، خلال أيام الانقلاب الأولى، مجلس عسكري باسم مجلس الثورة، ضم من البعثيين محمد عمران وصلاح جديد وموسى الزعبي، ومن المستقلين زياد الحريري وغسان حداد وفهد الشاعر، ومن الناصريين راشد القطيني وفواز محارب ودرويش الزوني وكمال هلال، وتم التوافق على العميد لؤي الأتاسي، المعروف بحماسه واندفاعه للوحدة (مع مصر)، وقربه بذلك من البعثيين والناصريين، لرئاسة المجلس ثم رئاسة الجمهورية، بعد ترفيعه إلى رتبة فريق. كما تم تعيين اللواء محمد الصوفي، البعثي الأصل والمنتسب لحركة الوحدويين الإشتراكيين بعد الانفصال، وزيراً للدفاع، فيما تولى العميد المستقل، زياد الحريري، رئاسة الأركان، والعميد الناصري راشد القطيني نائباً له. أما العقيد الناصري نور الله الحاج إبراهيم، فتمت تسميته قائداً لسلاح الجو.

كان البعثيون راضين بدايةً عن هذه التشكيلات الصورية، فرتب ضباطهم المتدنية، وقلتهم بين صفوف الضباط الكبار، لا تسمح لهم مباشرةً بتولي مواقع القيادة، مدركين أن ضباطهم اللذين تم ترفيعهم أيضاً وتوليتهم قيادة تشكيلات

ميدانية، برّية وجوية، ستسمح لهم باستغلالها قريباً، واستدعوا من الأرجنتين أعلاهم رتبة، العميد أمين الحافظ، ليتولى وزارة الداخلية بعد ترفيعه إلى رتبة لواء في حكومة المناصفة مع الناصريين، برئاسة المؤسس البعثي صلاح البيطار. في الوقت الذي كان فيه الرئيس يندفع وفريق المستقلين والناصريين باتجاه وحدة جديدة ثلاثية، تضم العراق إلى الطرفين، السوري والمصري، كانت اللجنة العسكرية البعثية توسع دائرتها، ناسجةً بإحكام خيوط شراكها، للتخلص من كل الضباط ممن تراهم عقبةً في طريق استفرادها بالحكم وقيادة الجيش. بدت اللجنة بحلقة المستقلين الأضعف، عبر كتلة زياد الحريري من المستقلين، وكانت قرارات تسريح الضباط تصدر في أثناء إرسالهم في وفود وبعثات لمناقشة أمور الوحدة مع مصر والعراق، لتضمن أن لا يكونوا على رأس قطعهم العسكرية، خلال صدور أمر التسريح. اتجهت اللجنة بعدها إلى خصمها الأكبر، المتمثل في الضباط الناصريين اللذين لم تكن حلقات التآمر خافيةً عنهم، لكن انكشافهم وضعف تماسكهم، وأسلوب صلاح جديد التكتيكي في تنقلاتهم، من خلال سيطرته على مكتب شؤون الضباط، كان له أثر كبير في ضعضعتهم.

حاول الناصريون في مايو/ أيار 1963، عبر الاستقالة الجماعية لوزرائهم إثارة الشارع، ولفت الانتباه إلى حقيقة ما يجري في الجيش، من إبعاد ضباطهم لحساب تعيين مزيد من الضباط البعثيين، حتى من غير العاملين، فتحرّك الشارع مباشرة في مظاهراتٍ مناوئةٍ، واجهها ضباط البعث بالقمع وإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين، بل واستغلوها فرصةً للتخلص من معظم الضباط الناصريين، بمن فيهم أعلى القيادات وبذرائع الإقالة والاستقالة والتقاعد، لتشمل وزير الدفاع الفريق الصوفي، ونائب رئيس الأركان اللواء القطيني، فيما أبعد رئيس الأركان، زياد الحريري، إلى السفارة في إسبانيا، بعد تصفية كتلته المستقلة. وبحلول منتصف يوليو/ تموز 1963، كانت المواجهة العسكرية قد باتت حتميةً في صراع ضباط "البعث"، مع ما تبقى من الضباط الناصريين، ومن يتحرّك منهم، على الرغم من عدم إعادته إلى

الخدمة، كالعقيد جاسم علوان الذي قاد الحركة الناصرية يوم 18 يوليو/ تموز، وكان من أسباب فشلها انكشاف مخطّطاتها وتحرّكاتها عبر الضابط (العلوي) محمد نبهان الذي زرعه صلاح جديد عميلاً في صفوفهم المنكشفة باندفاعٍ يصل إلى حد السذاجة. تمت السيطرة بالقوة على غليان الشارع، وإفشال الحركة العسكرية واعتقال جميع من شارك فيها، بل ومن سبق تسريحهم وإبعادهم بمن فيهم القادة. وعقدت محكمة عاجلة بستار ثوري، اتخذت قرارها مباشرة بإعدامهم جميعاً، منتظرةً وصول الرئيس الفريق لؤي الأتاسي قادماً من مصر للتصديق على حكم الإعدام، حيث كان مع مجموعة من البعثيين في جلسة مباحثات مع عبد الناصر في مصر حول الوحدة المزعومة، وهي الجلسة التي أنهاها عبد الناصر على عجل، لمعرفته بما حل في سورية. رفض الأتاسي حين عودته، وبصفته رئيساً، التوقيع على قرارات الإعدام، وقدم استقالته مباشرة، مبرّئاً نفسه من الدم السوري.

ولعل تلك الاستقالة، بحد ذاتها، كانت فرصة جديدة سانحة للجنة العسكرية، حتى وإن لم تتم قرارات الإعدام للانقضاض على آخر ما يفصلهم عن الاستفراد بالجيش والحكم، فقدموا مباشرة وزير داخليتهم، اللواء أمين الحافظ، رئيساً وقائداً عاماً للجيش، وتم ترفيع محمد عمران إلى رتبة لواء، ليتبعه إليها صلاح جديد في قفزة ثلاثية، وليتحول "البعث" إلى حزب حاكم بمفرده، له الحق المطلق في قيادة الدولة والمجتمع، كما سينص الدستور، وليتحول الجيش أيضاً من جيش وطني إلى جيش عقائدي، عقيدته "البعث"، كما في كل الأنظمة الشمولية.

تؤكّد الوثائق والروايات الحية أن اللجنة العسكرية البعثية، وبتخطيط مهندسها وعقلها المدبر، صلاح جديد، ومن في ركبه، مارست كل أنواع التغرير والخداع و الغدر على نحو غير مسبوق، وصولاً إلى مراميها، الظاهر منها كشعار

العقائدية، والباطن في سعيها إلى تطييف الجيش، ومن ثم فرض الهيمنة العلوية عليه، وهو ما ستكشفه السنة التالية من تفرّد "البعث" بالسلطة.

## الصراع البعثي البعثي والهيمنة الطائفية

ما إن سيطر البعثيون، بمفردهم، على الحكم والجيش، حتى برز صراع جديد داخل صفوفهم، هذه المرة قاده العسكريون، ومن لف لفيفهم من البعثيين المدنيين في التنظيم القُطري ضد قيادتهم التاريخية، وما عرف بالقيادة القومية للحزب، بمن فيهم من المؤسسين أنفسهم. وللحقيقة، يعود التذمر من تلك القيادات في جذوره إلى تخبّط القيادة والمؤسسين في مواقفهم غير المنهجة، منذ لحظة الوحدة وما تبعها من ارتدادات على الحزب، فميشيل عفلق الذي وقّع على حل الأحزاب سرعان ما تراجع عن موقفه، وأكرم الحوراني الذي كان نائباً شكلياً لعبد الناصر وقّع على وثيقة الانفصال، فتم إبعاده كلياً عن الحزب بعد عهد الانفصال، ولم يبق إلا صلاح البيطار من بين المؤسسين واجهةً قيادية يتولى رئاسة الحكومة أمام تعطّش العسكريين للاستئثار بالحكم، بعيداً عن محاولة الهيمنة عليهم من تلك القيادات الحزبية المدنية.

اللجنة العسكرية البعثية، وبتخطيط مهندسها وعقلها المدبر، صلاح جديد، ومن في ركبه، مارست كل أنواع التغرير والخداع والغدر على نحو غير مسبوق

كان ممن وقف في صف القيادة القومية الرئيس أمين الحافظ وبعض أعوانه، فيما نشب بين الطرفين صراعٌ خفي، لاجتذاب القيادات الدرزية، كاللواء فهد الشاعر والرائد سليم حاطوم المتميز بقيادته سلاح المغاوير ذي الكفاءة الخاصة، فيما بدا اللواء محمد عمران في موقف حائر بين الطرفين، وهو ما جعل صلاح جديد يركّز جهوده لاستمالة

سليم حاطوم إلى صفه، ليكون رأس الحربة في المواجهة العسكرية في ما عرف بحركة 23 شباط 1966، وانتهت باعتقال الرئيس أمين الحافظ، بعد مهاجمة منزله وإصابته وابنته في معركةٍ دامية، قتل فيها كثيرون من قوة الحرس الرئاسي وقوات المغاوير المهاجمة، وانتهت باعتقال الرئيس أمين الحافظ، وكثيرين من قيادات الحزب والدولة، ومؤسس اللجنة العسكرية السابق اللواء محمد عمران، وزجّهم في السجن، ليغدو صلاح جديد القائد الفعلي للحزب والدولة.

لم تمض أشهر، إلا و تمّت تصفية الأقوياء العسكريين من الطائفة الدرزية، إثر تمرّد سليم حاطوم في السويداء، وما جرّه عليه من وبال انتهى باعتقاله وتصفيته في السجن. وكان قد سبقه اعتقال اللواء فهد الشاعر، اتهاماً له بمحاولة التحضير لانقلابٍ، ليُستنزف الجيش مزيداً من قياداته على أبواب حرب يونيو/ حزيران 1967، والتي ما زالت التحقيقات فيها غير مكشوفة الوثائق، عن دور وزير الدفاع حافظ الأسد الذي أمر بإذاعة بيان سقوط القنيطرة عبر الإذاعة، قبل حدوث المواجهة وما تبعه من هروب قائد الجبهة، أحمد المير ملحم، متنكراً على ظهر حمار، والتوجيه إلى الخطوط الأولى على الجبهة بالانسحاب الكيفي عن طريق الأراضي السورية واللبنانية، وإعادة التجمع في حمص لا في دمشق العاصمة.

المستغرب بعد هزيمة 1967 أن التحقيقات في دور حافظ الأسد لم تفض إلى نتيجة عملية، بل زادت سيطرة الأسد على مفاصل الجيش ومراكزه الحساسة

المستغرب بعد هزيمة 1967 أن التحقيقات في دور حافظ الأسد لم تفض إلى نتيجة عملية، بل زادت سيطرة الأسد على مفاصل الجيش ومراكزه الحساسة بالتخلص من ضباطٍ عديدن، غير خاضعين لسيطرته التامة، كالعميد (السنّي) أحمد سويداني رئيس الأركان، والعضوين الإسماعيليين في اللجنة العسكرية منذ التأسيس، أحمد المير ملحم

الذي تم إبعاده وعبد الكريم الجندي رئيس الاستخبارات الذي انتهى دوره انتحاراً (أو نحراً) في مكتبه في ظروف لم يتم الكشف عن ملابساتها . وبذلك تكون اللجنة العسكرية بقيادة جديد قد تخلصت من جميع أعضائها من غير العلويين، ولم يبق من أعضائها غير صلاح جديد وحافظ الأسد بعد إطاحة عمران أيضاً . المستغرب أيضاً أن صلاح جديد مهندس هذه الصراعات والنهايات، وعلى الرغم مما يروى عن تجلي صراع نفوذ بينه وبين مرؤوسه حافظ الأسد لم يحرّك ساكناً تجاهه، ما يجعل الاحتمال وارداً بتنسيق خفي، أو بتوافق ضمني بينهما ، للتخلص من جميع رفاق المرحلة السابقة، قبل أن يحين أوان استفراد أحدهما بالسلطة المطلقة من دون منغصات. لعل ذلك ما يفسّر تحول الصراع بين صلاح جديد وحافظ الأسد إلى الاحتدام، عقب أحداث أيلول في الأردن 1970، حين رفض حافظ الأسد ، من موقعه وزيراً للدفاع، مؤازرة سلاح الجو.

أيقن صلاح جديد أن الساحة لا بد أن تكون لأحدهما فقط، فدعا إلى مؤتمر حزبي استثنائي، استمر نحو أسبوعين، وكانت نتائجه، بعد جلسات مطولة من النقاش، تتجه إلى فصل الأسد وفريقه من الحزب وإقالته من منصبه ومحاسبته على عدم إطاعة الأوامر، وأدواره السابقة المسكوت عنها في التحقيقات. وكان حافظ الأسد جاهزاً لممارسة الدور الذي لعبه مرات ومرات مع صلاح جديد ، فحرّك قواته إلى قلب العاصمة، لتعتقل جميع الموجودين من القيادات البعثية، وليعلن بعدها ما أسماها بالحركة التصحيحية (16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1970)، متخلصاً من جميع مناوئيه، والواقفين مانعاً في طريق تفرّده في السلطة حاكماً مطلقاً من دون خصوم، بعد سبع سنوات من حكم البعث، تحوّل الجيش الوطني خلالها إلى عقائدي فطائفي، ليأتي عليه بعدها حين من الدهر يحوله شيئاً فشيئاً ، وبشعارات معلنة، إلى جيش أسدي.

« في عام ١٩٦٠ تنادى مشايخ النصيرية لعقد اجتماع في قرية القرداحة يحضره كبار الضباط النصيرية، وعلى رأسهم كل من محمد عمران ومحمد نبهان وصلاح جديد وحافظ أسد . وكان الهدف الرئيسي من هذا الاجتماع التداول والاتفاق على كيفية انخراط الضباط النصيريين في صفوف حزب البعث لاستغلاله وجعله سلّماً للوصول إلى الحكم.

وفي نهاية الاجتماع اتّخذت القرارات التالية:

١ً . منح عمران رتبة « البابية » وتكليفه بالتخطيط للمنظمات العسكرية وكيفية توزيعها على

المنظمات الوطنية لاستغلالها والتستّر بها .من ناحية الظاهر . ٢ً

. الموافقة على بقاء عمران في صفوف الوحدويين

٣ً . التغرير بالضباط الدروز والاسماعيلية للتعاون معهم .

٤ً . منح عزت جديد رتبة « نقيب » في المذهب .

٥ً . الموافقة على احلال ابراهيم ماخوص محلّ والده في رتبته الدينية .

٦ً . تكليف المشايخ لدعوة أبناء الطائفة للتضامن والتعاون وتشجيعهم للانخراط في الجيش .

اجتماع حمص

عقد بعد ١٨ تموز سنة ١٩٦٣ لدراسة النتائج المتأتية عن الدور الذي لعبه محمد

نبهان في حوادث ١٨ تموز وأدى إلى تسريح أكثر من ٤٠٠ ضابط من أنصار عبد الناصر .

وضم الاجتماع عدداً أكبر من المشايخ بالإضافة إلى كل من الضباط الآتية أسماؤهم: عزت جديد، محمد عمران، حافظ أسد، إبراهيم ماخوص. وفي نهاية الاجتماع اُتّخذت القرارات التالية:

١ً . ترفيع محمد نبهان إلى رتبة « نجيب » تقديراً لدوره الفعال في ١٨ تموز.

٢ً . منح محمد عمران الوشاح البابي الأقدس وتكليفه بمتابعة نشاطه في حقل الناصريين.

٣ً . إعادة النظر بالتخطيط الموضوع بشأن انضمام المزيد من أبناء الطائفة المثقفين إلى حزب البعث والدخول باسم الحزب في الكليات العسكرية ومؤسسات الجيش.

٤ً . التخطيط البعيد لتأسيس الدولة النصيرية وجعل عاصمتها حمص.

٥ً . تكليف صلاح جديد بقيادة وتوجيه العناصر النصيرية في الجيش ومنحه أرفع رتبة عسكرية « مقدم ».

٦ً . مواصلة نزوح النصيرية من كافة قرى الريف إلى المدن وخاصة حمص واللاذقية وطرطوس.

٧ً . منح حافظ أسد رتبة « نجيب »، وهي تلي رتبة جديد.

٨ً . منح عزت جديد وعلي حماد رتبة « المختص« .

٩ً . السعي لاستئصال العناصر الدرزية والإسماعيلية الموجودين في صفوف الجيش والعمل على احلال العناصر النصيرية محلّهم.

١٠ ـ تسليم القيادة المدنية السياسية إلى إبراهيم ماخوص واعداده ليكون رئيساً لوزراء الدولة

النصيرية المنشودة.

في هذه الأثناء بعثت مجلّة الصياد مندوبها إلى المناطق العلوية وكتب فيها تقريراً

بعنوان: « العلويون. هؤلاء يحكمون سورية اليوم! »، جاء في التقرير: « العلويون يحكمون

سورية اليوم بوجههم الحقيقي بعد أن تستّروا طويلاً وراء حزب البعث. قال صلاح جديد

لأمين الحافظ في اجتماع مجلس الثورة: « إن الكتّل الاقليمية، وبالذات كتلة العلويين هي

المضمون ولاؤها للحكم القائم في سورية؛ فوجودها أساسي لحمايتكم ». وكان الكلام موجهاً

بالطبع لسائر أعضاء حزب البعث وحكومة الحافظ. ـ وقَبِل البعث بالحقيقة المرة ليحكم...

وتطورت الأيام.. وحدث ما حدث.. وظهر العلويون فجأة في المقدمة.. إنهم يحكمون سورية اليوم... »

وتوالت الاجتماعات

فكان اجتماع في « جب الجراح » بتاريخ ٣٠ كانون الثاني سنة 1964

٨ تقرر القضاء على الطائفة الإسلامية قضاء مبرماً، وتوجيه الضربة القاضية للدروز والمسيحية، ثم إلغاء التعليم

الديني الإسلامي والمسيحي، ومصادرة المدارس الخاصة لكلا الطائفتين حتى يسهل الانحلال الخلقي.

وكان اجتماع آخر في « صبورة » بتاريخ ١٤ نيسان سنة ١٩٦٨، وآخر في دمشق بتاريخ ٣ أيار من السنة نفسها، وآخر في بيت النجيب حافظ أسد ضم كلاّ من المقدم صلاح جديد وابراهيم ماخوص وشفيق عبدو والشيخ علي ضحية والشيخ أحمد سلمان الأحمد والشيخ سليمان العلي وأسعد تقلا وعلي نعيسة ومحمد الفاضل وزكي الأرسوزي وأنيس خير بك وعزت جديد وسهيل حسن وغيرهم. . .

**« المؤامرة الطائفية »**

نفّذ النصيريون ما جاء في هذه المقررات تنفيذاً دقيقاً . ولا يكون لنا مجال للشك إذا ماعرفنا ما دار وما قيل حول حرب الجولان. وننقل للقارئ ما جاء في الصحافة آنذاك من

معلومات رسمية أكّدت صحتها :

: « . . . وذات يوم، قالها الدكتور سامي الجندي في « الحوادث » ما يلي

عدد كبير من الناس، ملء فمه، في دار السفارة بباريس، حرفياً: لن يجرؤوا على لمس ظفر صغير من أظافر خالد (أخيه المحبوس بتهمة قتل سيدة)، وإذا فعلوا، فلكل حادث حديث. . . » وصمت الدكتور الجندي قليلاً،

ثم فجر القنبلة :

« في أيار ،١٩٦٧ قبل حرب حزيران بأقل من أسبوعين، تلقّيت إشارة رسمية من وزارة الخارجية في دمشق تطلب منّي مقابلة أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية الذي كان يزور باريس آنذاك. إنني أحتفظ بتلك الإشارة الرسمية، وبما هو أخطر منها: انّني أحتفظ بسجل كامل للمقابلة ذاتها، ولما قيل فيها. وسأله أحد الحاضرين مذهولاً: هل تعني أنّك قابلت أبا ايبان في باريس في أيار الماضي وعشية الحرب؟ وقال سامي الجندي بهدوء: نفّذت أمراً من دولتي واجتمعت إليه ساعة ونصف، ولدي تسجيل كامل عن المقابلة. . . قال لي ايبان: إن القوات الإسرائيلية لن تصل إلى أبعد من القنيطرة حتى ولو كانت الطريق إلى دمشق مفتوحة. . . ».

وأكّد محمد أنور السادات بعد في ١ أيار سنة ١٩٧٩ ما جاء في هذه المعلومات إذ قال: « إن الألغام قد أُزيلت يومها من هضبة الجولان والقنيطرة قبل دخول الإسرائيليين، وإن السلطة قد بادرت إلى إعدام الضابط الذي أعلن عن سقوط الجولان قبل سقوطه ».

وأكّدت « الحوادث » معلوماتها هذه من حكومة دمشق نفسها، فقالت: « لقد تبرعت حكومة دمشق مشكورة، فأكّدت خلال الأسبوع الماضي المعلومات التي كانت « الحوادث » قد نشرتها في العدد قبل الماضي عن قصة سامي الجندي، والتي يمكن تلخيصها بأن سفير سوريا السابق في باريس كان قد ذكر في مجتمع خاص، بأن حكومته كلّفته خلال الأسبوع الذي سبق عدوان ٥ حزيران بمقابلة وزير الخارجية الإسرائيلية أبا ايبان في باريس، وأنّه قابله فعلاً لمدة (٥) ساعة ونصف »

وجاء أيضاً في « الحوادث » أبا ايبان وينفّذها صلاح جديد في سوريا:

« نحن مضطرون اليوم، للعودة إلى معلومات خطيرة كانت « الحوادث » قد نشرتها

في العدد ٥١٨ بتاريخ ١٤ تشرين الأول عام ١٩٦٦ أي قبل حرب حزيران بحوالي تسعة

أشهر، نقلاً عن مصادر عليمة في باريس: « جاء في هذه المعلومات يومها:

« إن الحكم الحالي في دمشق قد سحب الأسلحة من غير العلويين في الجيش السوري،

لا على مستوى الضابط فقط، بل على مستوى الجنود أيضاً . وإن ذلك جرى في معظم الكتائب

التي يتألّف منها الجيش السوري.

« وقالت المعلومات: إن هذا الوضع في الجيش السوري هو مقدمة لتشجيع العلويين المسيطرين على الحكم للانسحاب بقواتهم، بعد فترة قليلة من بدء الهجوم الأردني على سوريا . . . وتقضي الخطة بانكفاء العلويين إلى الأراضي التي تشكّل قاعدة دولة العلويين القديمة، التي حاول الفرنسيون اقامتها أيام الانتداب، وهي تمتد من شمال لبنان إلى اللاذقية » .

وفي سوريا (المستفيدون) هم « العاملون على تحقيق حلم إقامة الدولة العلوية،المتنكرون في ثياب حزب البعث والثورية الاشتراكية، والمتغرغرون صباح مساء بشعارات حرب التحرير الشعبية » .

نتيجة

تمكنت النخبة العسكرية التي قامت بسلسلة من الانقلابات منذ أواخر الأربعينيات وحتى منتصف الخمسينيات من قيادة البلاد نحو تغيير اجتماعي سياسي من خلال تصدير نفسها للشعب كنخب تقدمية تقف في مواجهة الرجعية، وتسعى إلى القضاء على الإقطاع والفساد، وإلى قيادة "مواجهة ناجحة" مع الكيان الإسرائيلي وهي ادعاءات كاذبة وحجج واهية .

ومع أن الصراع بين المؤسستين السياسية والعسكرية تصدر المشهد السياسي في سوريا منذ الأربعينيات، إلا أنه يعود بجذوره لإشكالية التداخل بين الحقلين السياسي والعسكري منذ الثلاثينيات، وهو ما خلق نوعا من "ازدواجية الحكم"، كما ساهمت ممارسات الإقصاء والاستبعاد والتصفية بين الأحزاب السياسية، وفي صفوف الحزب الواحد، وبين المدنيين والعسكر، وبين العسكر أنفسهم، في تفتيت وإضعاف كلا المؤسستين. وهو موضوع القسم الثالث من الكتاب.

أن صراع العسكر فيما بينهم جاء على مرحلتين وفي شكلين؛ فالمرحلة الأولى كانت في فترة الأربعينيات والخمسينيات، وكان الصراع فيها بين كتل الجيش صراعا سياسيا أيديولوجيا يتقاطع أحيانا مع طموحات شخصية وسلطوية، ويعكس التنوع السياسي والأيديولوجي السائد في الساحة السياسية المحلية والعالمية.

لقد استثمر العسكر في الطبقة السياسية لبناء تحالفات والوصول للسلطة، وفي الوقت نفسه قامت الطبقة السياسية بدورها بتوظيف عناصر عسكرية في صراعاتهم السياسية والأيديولوجية لخدمة مصالحها أيضا" .

في فترة الستينيات، واتخذ فيها الصراع طابعا شخصيا ومصلحيا بين "رفاق السلاح" و"رفاق الحزب"، "إذ إنه كان صراعا مدفوعا بطموحات شخصية وسلطوية، يتقاطع أحيانا مع مشروعٍ سياسي اقتصادي، وتغلفه وتدعمه وتغذيه الاختلافات الأيديولوجية والطائفية والإقليمية"

وفي هذه الفترة بدأ العسكر بتشكيل ما سمي بـ"الجيش العقائدي" الذي مَوَّه في البداية الصراعات والانقسامات بين جماعة صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد، وأصبح الجيش يشكل دعامة محورية للنظام السياسي، والذي أصبح بدوره عبارة عن تزاوج أو تعايش "حزب–جيش" وليس مجرد حكم عسكري.

التفكير ملياً في أصلِ السردية الطائفية للجيش السوري، الذي ضُخّ فيه العنفُ المُنهج وفقاً للاستنساباتِ السياسية للنظام الحاكم، فإنّ نواةَ هذا الجيش تأسّست ما بعد اكتمال احتلال الفرنسيين سورية، الذين أعلنوا عن افتتاحِ مكاتب "قوات الشرق الخاصة"، لتجنيدِ الشبّان، خصوصا من الأقليات، فالتحقت بها أعدادٌ كبيرةٌ من العلويين الذين ركزتْ فرنسا، بشكلٍ رئيسي، على انضمامهم إليها، كما انخرط بها شبّانٌ من الإسماعيليين والأرمن والأكراد والشركس، وبات عديدها جاهزاً عام 1921. وفي الحقيقة، وفّرت هذه القوات للشبّان العلويين عملاً ودخلاً مستقراً في ظلّ البطالة العالية في الجبل، بالإضافة إلى انفتاحهم الواسع على العالم الحديث، بعد قرونٍ من العزلةِ والتهميش والاضطهاد. وكان الغرض من إنشائها استخدامَها قوّةً محليّةً ضاربة، للتصدّي لأيّ تحرّكٍ ضد الانتداب في أنحاء سورية كافة.

ومع مرورِ الوقت تصاعد نفوذُ الضباط العلويين في القواتِ الخاصة، ونمتِ التجربةُ العسكرية في أوساطِ شباب الطائفة. إثر ذلك، تدارستِ القوى الوطنية وضعَها بقلقٍ شديد، نظراً إلى ارتباطها بالمؤسسةِ العسكرية الفرنسية.

وبينما رأى القسمُ الأعظم ضرورةَ حلّها بعد جلاء الفرنسيين، فريقٌ آخر اقترح بقاءها لتكونَ نواةً للجيش الوطني، بعد التأكّد من وطنيّة ضباطها . بحكم أنّ أصحابَ الرتب العالية من هذه القوات كانوا من أبناء الأقليات الذين يغلب ولاؤهم العائلي والإثني والطائفي على ولاءاتهم الوطنية والقومية. وبعد الجلاء، قرّرتِ الحكومةُ فتحَ بابِ الكليّةِ العسكرية في حمص لجميع أبناء سورية من دون أدنى تمييز. وفي حين كان أبناءُ المدن يشقّون طريقهم إلى الوظائف الحكومية والمهنِ الحرّة، جذبت الكليةُ العسكرية أبناءَ الأقليات الذين لم يأملوا في الحصولِ على فرصِ عملٍ لضعفِ تأهيلهم العلمي والمهني، فوجدوا في السلكِ العسكري وظيفةً واعدة. وقد استثمرتِ الأحزابُ العقائدية التي كانت قد بدأت في التشكّل هذه الفرصة، كي تدفعَ الشبّانَ من أعضائها (والقسم الأكبر منهم من أبناء الأقليات) إلى الانتسابِ للكلية الحربية، فيصبحوا ضباطاً تعتمد عليهم في تحقيق طموحاتها السياسية لاحقاً . في وقتٍ ارتكبت فيه العائلاتُ المدينية التجارية، وعائلاتُ الملّاكين في الأرياف، غلطةً تاريخية سيدفع أفرادها ثمنها غالياً لاحقاً، تجلّت في تعاليهم عن الخدمةِ في الجيش، ما جعل أعداءهم الطبقيين أصحاب نفوذٍ وسلطةٍ في القواتِ المسلّحة، استعملوها في ما بعد لاستلامِ مقاليد الحكم في سورية.

بدل أن تكونَ الطائفيةُ مُعطىً وجودياً قَمَعَه نظامٌ علمانيّ مُفترض، كانت في الواقع ثمرةَ السلوكِ السياسي لهذا النظام بالذات بعد انقلاب 8 آذار

وبعد الاستقلال، شكّلتِ الأقلياتُ المذهبيةُ والعرقيةُ نواةَ الجيش الوطني، من جنود وعرفاء ورقباء وصغار الضباط. كما أنّ انتشارَ العقائد والتيارات السياسية في هذه الفترة جعل من الجيشِ الحاضن الأساسي لتفريخِ الثوراتِ والانقلاباتِ المسلحة، في وقتٍ بدأتْ فيه روائحُ التكتّل الطائفي تفوح داخل الجيش السوري بعد انقلاب 8 آذار/

مارس (1963) . وبدل أن تكونَ الطائفيةُ مُعطىً وجودياً قَمَعَه نظامٌ علمانيّ مُفترض، كانت في الواقع ثمرةَ السلوك السياسي لهذا النظام بالذات. والتسريحاتُ بالمئات استهدفت جميعَ الضباط من أبناء المدن الكبرى، حتّى فرغتْ أسلحةٌ كاملة من ضباطها الرئيسيين، كسلاحِ الطيران، وسلاح البحرية، والآليات. كذلك اتُبعت الخطة نفسها حيال صفّ الضباط والجنود، حتّى أصبح من المتعارف عليه أنّ ألويةً كاملة، بأركان حربها وصفّ ضباطها وجنودها، وقفٌ على طوائف معينة، كاللواء السبعين واللواء الخامس مثلاً.

## هزيمة الدروز والصراع العلوي العلوي

كان استبعاد سليم حاطوم الضابط الدُّرزي من مكاسب انقلاب 23 فبراير/شباط 1966م، بل وبقاؤه على رتبته السابقة للانقلاب، وعمله في حراسة مبنى الإذاعة والتلفزيون السوري، وهو الذي أقدم على هذا الانقلاب وكان صاحب اليد العُليا في نجاحه، مع صعود العلويين بقيادة صلاح جديد وحافظ الأسد، قد أثار نقمته وحفيظته، إذ أدرك مدى الخيانة والخسارة التي تعرض لها، فراح يُجمع شتات أمره من جديد، متحالفا مع الأعضاء القدامى المؤمنين بمبادئ المؤسسين للحزب ميشل عفلق والبيطار، ومُلتجِئا هذه المرة إلى أفراد طائفته من الضباط الدروز وبعض قيادات السنة في الجيش آنذاك، لكن محاولته باءت بالفشل والانكشاف وذلك في سبتمبر/أيلول 1966م، وكان صلاح جديد وحافظ الأسد يملكون القوة الكبرى في الجيش السوري فضلا عن سلاح الطيران الذي أجبر سليم حاطوم على الهرب واللجوء إلى الأردن.

وقد قُبِض على حاطوم بعد هزيمة يونيو/حزيران 1967م، حيث دخل إلى سوريا ظنًّا منه أن صفحة الماضي قد طويت، وأن رفاقه القدامى سيتّحدون معه من جديد بعد الهزيمة، لكن ما حدث كان العكس؛ إذ عُذِّب تعذيبا شديدا ثم أُعدم رميا بالرصاص في 26 يونيو/حزيران 1967م، وبهذا تُخُلِّص من أهم الجماعات أو الكتل المناوئة للعلويين في الجيش من الضباط والقيادات السنية والدُّرزية المناوئة، إما بالسجن والنفي وإما بالقتل والتصفية، ودخلت سوريا في منعطف النكسة والهزيمة فخسرت الجولان والقنيطرة، وكان من اللافت أن وزير الدفاع حافظ الأسد قد رقَّى نفسه آنذاك من رتبة لواء إلى فريق في ظل أجواء الهزيمة المذلة تلك، كما يروي الرئيس السوري الأسبق أمين الحافظ في شهادته على العصر .

وبهذا أصبح العلويون سادة الجيش السوري، بل والسلطة في البلاد موزعة بين صلاح جديد المسيطر على الحزب والحكومة والجناح المدني، وحافظ الأسد المسيطر على الجيش والأجهزة العسكرية، لكن سرعان ما ظهرت الخلافات العلنية بين الرجلين في التوجهات الإقليمية والفكرية وقتها بعد هزيمة يونيو، وعمل حافظ الأسد في أثناء عام 1968م على إحكام سيطرته على الجهاز العسكري، واستطاع أن يفصله عن قيادة الحزب المدنية، كما أصدر أوامره بمنع أعضاء القيادة القُطرية أو مسؤولي الحزب المدنيين الآخرين من زيارة أقسام تنظيم الحزب العسكري أو القيام باتصالات مباشرة مع قطاع الحزب العسكري، كما مُنِع ضباط الجيش بدورهم من إجراء أي اتصالات مباشرة مع سياسيي الحزب المدنيين إلا عن طريق القنوات الرسمية لقيادة تنظيم الحزب العسكري.

وهكذا خُلِقَت "ازدواجية السلطة" بين القائدين العلويَّيْنِ، وكانت القطيعة بين الفريقين حين استطاع حافظ الأسد منع أي اتصالات بين الجانبين منذ فبراير/شباط 1969م، ويصفها نيقولاس فان دام "بما يشبه الانقلاب العسكري"، ثم

استطاعت قوات الأسد السيطرة على مبنى إذاعة دمشق ومبنى إذاعة حلب، بالإضافة إلى مكاتب أكبر جريدتين سوريتين "البعث" و"الثورة"، وفرض الرقابة العسكرية على نشرات الأخبار والتعليقات السياسية وجميع البرامج السياسية والثقافية والإعلامية.

انتصار السلاح

استمرت معركة كسر العظام بين الفريقين، كان الطرف الأقوى فيها حافظ الأسد الذي كان يسيطر على وزارات السلاح، ويقضي على ذوي المناصب الاستخبارية والعسكرية المؤيدة لصلاح جديد ونور الدين الأتاسي، ليفرض حافظ الأسد كلمة الفصل والنهاية بانقلاب عسكري ألقى فيه القبض على صلاح جديد والأتاسي في 13 نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1970م، وبعدها بعام واحد فقط يعلن نفسه كأول رئيس علوي للجمهورية السورية، يبدأ فيها فصلا جديدا من احتكار وتوريث السلطة في الطائفة العلوية، بل وفي بيت حافظ الأسد .

وبفعلِ جملةٍ من التظلّماتِ الناجمةِ عن سلطةٍ سياسيةٍ انتهازية، أُعيد إنتاج المزايا التفضيلية الطائفية التي طُبّقت على أعلى المستويات، فكان الضباطُ "الموثوقون" من الأقليات يتكتلون في قطاعاتِ الجيشِ الهامة سياسياً واستراتيجياً القريبة من دمشق، بينما استبعد "غير الموثوقين" على الأساس نفسه لكونهم من السنّة. ولم تقتصر الروابطُ الطائفية على القيامِ بدورٍ هامٍ في تعيينِ الضباط في المراكز العسكرية العليا، بل أيضاً في المستوياتِ الدنيا، وكان من الممكن أنْ تتلاشى سلطةُ القادة السنّة على الطواقم العلوية إلى الصفر، لدى إعطاء الضباط العلويين العاملين في الوحداتِ المسلّحة الأخرى تعليماتهم لأقرانهم في العقيدة بعدم تنفيذِ الأوامر. وقد تمَّ التعبيرُ بوضوحٍ عن مثل هذه الاتصالات الجانبيةِ

المحظورة في تصريحاتِ اللواء محمد عمران، الذي أعلن صراحةً أنّ محمود حمرا (المتحدر من حماة) لا يستطيع قيادة كتيبته في اللواء السبعين المدرّع، لأنّ 70% من صفّ الضباط في الكتيبة يقودهم علي مصطفى المؤيد لمحمد عمران.

جيشٌ عقائدي مبرمجٌ على ذاكرةِ الخوفِ واللاثقةِ الطائفية، مؤمناً بأنّ حمايةَ النظام هي حمايةٌ للطائفةِ المضطهدة تاريخياً، وأنّ زوالها "حكماً" من زواله

وثمّة أدلة قطعية على وجودِ استراتيجيةٍ ممنهجة داخل الجيش، تستهدفُ تفجيرَ الصراعِ الطائفي بين الأقليات الريفية الضاربةِ جذورها في منابع الخوف والتهميش، وبين الكتلةِ المدينية العريقة سياسياً. في وقتٍ سعى الجميعُ فيه، وبشكلٍ فجّ، إلى الاستحواذِ على السلطة من منطلقٍ جهوي أو طائفي. وما لبث أنْ ازداد عددُ أعضاء الأقليات في سلكِ الجيش السوري على حسابِ الأغلبية السنيّة، واستدعى هؤلاء عديدين من الضباط وصفّ الضباط، الذين تربطهم بهم أواصر عائلية أو عشائرية لتعضيد مراكزهم الجديدة التي حصلوا عليها بصورةٍ سريعةٍ في انقلاب عام 1963. وعلى الرّغم من أنّ رئيسَ البلاد، ورئيسَ المجلس العسكري، ووزيرَي الدفاع والداخلية، كانوا من السنة، فإنّ الضباط العلويين البارزين، أمثال صلاح جديد وحافظ الأسد، قد حظوا على الدوام بمساندةِ جماعاتٍ عسكريةٍ قويةٍ من الأغلبيةِ العلوية التي التفّت حولهم. وأصبح اتهامُ الرئيس أمين الحافظ لرئيسِ الأركان صلاح جديد علنياً بأنّه يعمل على بناءِ كتلةٍ علوية طائفيةٍ داخل الجيش، الأمر الذي أدّى إلى نشوء كتلتين متنافستين عملت كلٌّ منهما لضمانِ بقائها: كتلةٍ سنيّةٍ التفت حول أمين الحافظ، وأخرى علوية التفت حول صلاح جديد وحافظ الأسد. وأدّى هذا الاستقطاب العلني والطائفي داخل الجيش السوري إلى وقوع انقلاب 23 شباط/ فبراير (1966)، فقُضي على أمين الحافظ بالسجن ثم بالنفي إلى لبنان عام 1967. بعدها تولى صلاح جديد منصبَ أمين عام مساعد للقيادة القُطرية

لحزب البعث، أما حافظ الأسد فقد ترقّى من قيادةِ سلاح الطيران ليصبحَ وزيراً للدفاع. كلّ هذا من خلف رئيسٍ مدني صوري لم يكن يملك من أمره شيئاً، هو نور الدين الأتاسي.

وأسفر انقلابُ شباط عن تصفيةِ مزيدٍ من القياداتِ البارزة للضباط السنّة، ليزدادَ تمثيلُ أعضاء الأقليات الدينية مرّة أخرى، لكن هذه المرّة من دون توازنٍ واضح. وبعد إطاحةِ صلاح جديد، الندّ القوي لحافظ الأسد، نصّب الأخير نفسه أوّلِ رئيسٍ علوي في صورةٍ فاقعةٍ لديكتاتورٍ مستبدّ، ليبدأ فصلٌ جديدٌ من احتكارِ السلطة وتوريثها في بيت الأسد، القائم على إرثٍ ثقيلٍ من الحتميات الطائفية والعنصرية. وعلى الرغم من تقلُّد الضباط التابعين لطوائف دينية أخرى مهامَّ عسكرية عليا، فإنّ أغلبيةً علويةً تسيّدتِ المناصب المفصلية والحسّاسة في الدولة السورية، وكانت قادرةً على سحقِ أيّ مقاومةٍ أو انقلابٍ محتمل ضدّ النظام الحاكم. لتدخل سورية منذئذ حقبةَ دولةٍ براغماتية تستثيرُ المشاعر الطائفية لحمايةِ سلطتها الاستبدادية المقدّسة، يحميها جيشٌ عقائدي مبرمجٌ على ذاكرةِ الخوفِ واللاثقةِ الطائفية، مؤمناً بأنّ حمايةَ النظام هي حمايةٌ للطائفةِ المضطهدة تاريخياً، وأنّ زوالها "حكماً" من زواله.

### خامسا: قيام مجتمعات طائفية سورية منغلقة على ذاتها.

اذ دخلنا في عمق البنية المجتمعية لجميع المكونات السورية، لوجدنا فيها انقسامًا داخليًا من نوعٍ ما، سواء بين أتباع الدين الواحد والقومية الواحدة أم بين بين الأديان والقوميات المختلفة. وقد بقيت هذه الانقسامات وتعمّقت مع مرور الوقت، بسبب عدم وجود أجواء صحيّة للحوار والنقاش حولها. وكان الكبت والقمع هما الأداتان الأساسيتان اللتان استخدمتهما السلطة السياسية الأمنية في نظام الحكم خلال الخمسين عامًا الماضية على الأقل، لمنع مثل هذه

الحوارات. جعل هذا من الريبة والتوجس والخوف والانغلاق على الذات وعدم معرفة الآخر أسسًا صلبة راسخة للتعامل بين المكونات السورية .

ان من أحد الشواهد على الظاهرة الطائفية في سوريا هو الوضع الديموغرافي القائم على العزلة الطائفية والعرقية فلو القينا نظرة عامة على الجغرافية البشرية السورية سنرى بوضوح هذا الأمر ومكننا بيان ذلك بشئ من التفصيل .

o التجمع النصيري نراه محصورا فيما يسمى بجبال العلويين ويمتد من الجبال المطلة على البحر المتوسط شمالا وحتى طرطوس جنوبا .

. التجمع الدرزي وهو محصور في منطقة جبل الدروز او جبل العرب بالآضافة لبعض القرى في اجولان السوري المحتل .

. التجمع الإسماعيلي ومراكزه في مصياف والسلمية والقدموس بعض القرى .

. التجمع المسيحي : غالبية المسيحيين في دمشق هم من المسيحيين العرب. أما الأرمن فإن دمشق تشكل واحدة من بؤر تواجدهم الرئيسيَّة في سوريا، حيث أنها تُعد ثالث أكبر مركز لهم في البلاد بعدَ حلب والقامشلي. تحوي المدينة أعدادًا كبيرة من المسيحيِين أغلبهم من الروم الأرثوذكس الإنطاكيين والروم الملكيين الكاثوليك، وتشير التقديرات أن المسيحيين يشكلون حوالي 15% إلى 20% من سكان المدينة. وتعتبر دمشق مقر ثلاث بطريركيات للروم الأرثوذكس الإنطاكيين والروم الكاثوليك وثالثة للسريان الأرثوذكس، كما تعتبر مقر أبرشية لأغلب الطوائف المسيحية السورية

الأخرى. تشير التقديرات أنه يوجد 700000 عضو في بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس في سوريا، وهم الجزء الأكبر من السكان المسيحيين إلى جانب 400000 من السريان وحوالي 100000 من الأرمن.

يتوزع الانتشار المسيحي بشكل خاص في باب توما وباب شرقي وحي القصّاع. ومن الأحياء والضواحي المختلطة والتي تضم سكان من المسيحيين والموحدون الدروز والسنَّة حي التضامن، وجرمانا، وصحنايا. عدا أن دمشق تعتبر مقرًا دائمًا لثلاثة صروح بطريركية إنطاكية أبرزها الكنيسة المريمية، وكنيسة الزيتون، وتوجد إلى جانب هذه الكنائس الأثرية كنائس حديثة النمط المعماري مثل كنيسة الصليب في القصاع.

كانت حلب أيضًا موطنًا لإحدى أغنى المجتمعات المسيحية الشرقية وأكثرها تنوعًا في الشرق ويقطن المسيحيون في أحياء مستقلة بهم كحي السريان الجديدة والسريان القديمة والسليمانية والعزيزية ويتركز الأرمن في حي الميدان

وهناك قرى خاصة بالمسيحين تابعة للمحافظات السورية كمحردة في حماة وشين في حمص وصافيتا في طرطوس كما لهم تجمعات وقرى في السويداء ويعيش في مدن الجزيرة السورية عدد كبير من المسيحيين والأرمن والأشوريين والسريان في أحياء خاصة بهم في القامشلي والحسكة والمالكية وغيرها .

**سادسا : استلام العلويين للسلطة والتأسيس لحكم الطائفة.**

نَمت النزعة القومية وتحولت إلى حركة سياسية واضحة المعالم، بعد تأسيس "الجمعية العربية الفتاة" في باريس، والتي أسسها مجموعة من الطلاب العرب عام 1891 التي دعت الى مواجهة الحُكم العثماني للبلدان العربية.

ولقد أثَّرت هذه الجمعية على الفكر القومي العربي ومَهَّدت للمؤتمر العربي في باريس عام 1913، الذي ضَم مجموعة من المُفكرين والسياسيين والقوميين العرب، حيث تم وضع الهدف الأساسي وهو: "البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بالدم من عِداية الأجانب وإنقاذها من صبغة السيطرة والاستبداد"، كان هذا المؤتمر هو الشرارة الأولى لبدء الثورة العربية التي انطلقت من الحجاز عام 1916.

في دمشق أسَّس زكي الأرسوزي حزب البعث العربي، وكان كلٌّ من ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار قد أسَّسا حركة الإحياء العربي، وفي العام 1947 اندمجا تحت اسم حزب البعث العربي الاشتراكي .

لقد كان حزب البعث هو الحمار الذي نقل الطائفية كم مركزها في جبال العلويين ووضعها على رأس السلطة في دمشق

ولقد بدأ حزب البعث حكمه لسوريا في أذار 1963 ولقد رأينا الصراعات التي حصلت في سوريا من فترة الاستقلال وحتى العام 1970 .

من الناحية العملية والفعلية لم يحكم البعث سوريا سوى سبع سنوات كان الصراع فيها على أشدهبين المدنيين البعثيين ورفاقهم الأعداء في اللجنة البعثية العسكرية التي كان يتزعمها العلويين حافظ الأسد وصلاح جديد وفي العام 1970 ولما أستقر الأمر لزعيم هذه اللجنة حافظ الأسد أزاح رفيقه العلوي من طريقه وأصبح هو الأمين العام للحزب والأمين القطري ورئيس الجمهورية والقائدالأعلى للجيش والقوات المسلحة ورئيس الجبهة الوطنية التقدمية وقائدالدولة والمجتمع

لم يغب عن وعي هذا الرجل يوما من الأيام حياته ومنشأه في طائفة أسست على التقية والعناد والمواجهة وعقيدة الانتقام والأخذ بالثارات فكان داهية من دواهي عصره في اتقان وظيفة التقية والنفاق لذلك وكي يبقى على مانص عليه الدستور من ان دين رئيس الدولة هو الإسلام فأعلن الرجل اعتناقه الإسلام فغير هو دينه ولم يغير دين الدستور وهذا قمة المراوغة والنفاق .

ليس هذا فحسب ولأنه يؤمن بالعقيدة الباطنية فظل طول حياته يعمل وفقها فظاهره شيء وباطنه شيئا متناقضا تماما لذلك وكما قلت امتطى الحمار البعثي واعتنق القومية كدين أخر وراح يروج لنفسه زعيما قوميا عربيا كيف لا وعبدالناصر كان قد قال دمشق قلب العروبة النابض وجعل من نفسه لا من دمشق قلب هذه العروبة المنافقة .

بقي الأسد عشر سنوات يعمل وفق هذا المنهج في العلن وفي الخفاء كان يؤسس لحكمه الطائفي له ولأولده من بعده فعمل طيله هذه الفترة على :

أولا : تأسيس جيش تحت مسمى الجيش العقائدي وقام بتشكيل فرقه وألويته تعيين قادته الذين أغليتهم من العلوية والباقي من السنة الذين باعوا أنفسهم له كما باعها من قبل الزعماء البعثيين السنة والعسكرين مثل خدام والأحمر ومشارقة وطلاس وغيرهم كثيرون بينما كانت قياداتاالجيش والمخابرات في يدثلاثة من أقوى صباط النصيرية على حيدر وعلي دوبا وعلي مخلوف بينما اختار شقيقه رفعت الأسد ليؤسس ميليشيات سرايا الدفاع المخصصة لقمع الشعب وتركيعه وعينه نائبا له وهكذا بدأ بتأسيس الدولة من الدوائر الكبيرة ليصل الى أصغر حلقة فيها

وليس كتابنا خذا مخصصا للبحث في تفاصيل حقبة حكم حافظ الأسد فهذا يتطلب بجد ذاته كتبا بل مجلدات لكن نحاول الأخذ من تلك الفترة ما يهم موضوع بحثنا هذا .

سابعا : الرد السني الطائفي وأحداث حماة 1980

الإخوان المسلمون في سوريا هي الفرع السوري لجماعة الإخوان المسلمين، تأسست علي يد الشيخ مصطفى السباعي حيث تعرف على الشيخ حسن البنا مؤسس الجماعة خلال فترة دراسته في الأزهر بمصر، وظلت الصلة قائمة بينهما بعد عودته إلى سوريا، حيث اجتمع العلماء والدعاة ورجال الجمعيات الإسلامية في المحافظات السورية وقرروا توحيد صفوفهم، والعمل تحت جماعة واحدة وبهذا تأسست منهم جماعة الإخوان المسلمين لعموم القطر السوري. وهي تُعرف نفسها بأنها جزء من جماعة الإخوان المسلمين العالمية التي أسسها الشيخ حسن البنا في مصر، وكان أول مراقب لها في سوريا الشيخ مصطفى السباعي بين عامي 1945 و1964، وينتشرون في مدن حلب وحماة وحمص ودمشق. بعد اعتقال المرشد الثاني للإخوان حسن الهضيبي والحكم بإعدامه خلال مواجهة الإخوان المسلمين في مصر مع الحكومة العسكرية التي تشكلت بعد ثورة يوليو/ تموز 1952، شكل الإخوان المسلمون في الأقطار العربية مكتبا تنفيذيا تولى الدكتور مصطفى السباعي رئاسته كقيادة جديدة للإخوان المسلمين وقائم بأعمال المُرشد العام من سوريا بدلا من مصر، تم حظر جماعة الإخوان المسلمين السورية منذ انقلاب 1963 من قبل حزب البعث العلماني القومي العربي، لعبت جماعة الإخوان المسلمين دورًا رئيسيًا في المعارضة ضد حزب البعث العلماني خلال الفترة 1976–1982 كما رفضوا وجود رئيس غير مسلم لسوريا كون حافظ الأسد من الأقلية النصيرية كما يدعوا حزب البعث للإلحاد والعلمانية، تعرض الإخوان المسلمون في سوريا مطلع ثمانينيات القرن العشرين لحملات قمع دامية من قبل

نظام حزب البعث أوقعت آلاف القتلى خاصة في مدينة حماة خلال التمرد المسلح الذي قام به الإخوان المسلمون وغيرهم من الإسلاميين السنة في حماة بدعم من العراق حيث تم قصف المدينة بسكانها بالطائرات فيما عُرف بمجزرة حماة، ثم تم تصنيفها كجماعة إرهابية منذ 1982م بعد التمرد المسلح للجماعة في مدينة حماة، كما أصدرت حكومة حزب البعث قانون بإعدام أي منتمي أو مؤيد للإخوان في سوريا وهاجر العديد منهم هربًا من عقوبة الإعدام. كانت جماعة الإخوان المسلمين في المنفى من بين 250 موقعًا على إعلان دمشق لعام 2005 ، وهو بيان وحدة للمعارضة السورية بما في ذلك التجمع الوطني الديمقراطي العربي، والتحالف الديمقراطي الكردي، ولجان المجتمع المدني، والجبهة الديمقراطية الكردية. وحركة المستقبل، والدعوة للإصلاح "السلمي التدريجي" على أساس التوافق، وعلى أساس الحوار والاعتراف بالآخر ".

## تمرد الإخوان المسلمين في سوريا

هي سلسلة من الانتفاضات والتمردات المسلحة من قِبل جماعات إسلامية سنيّة معظمهم من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين حصلت في سوريا في الفترة الممتدة من عام 1976 حتى عام 1982. كانت الانتفاضات موجّهة ضدّ حكومة حزب البعث التي كانت تُسيطر على السلطة في سوريا حينها ما تسبّب في عددٍ من العمليات المسلّحة من هنا وهناك هذا عدى عن الاغتيالات الممنهجة في صفوف الأطراف المتحاربة. خلال تلكَ الأحداث العنيفة؛ هاجمَ الإسلاميون المدنيين والعسكريين على حدٍ سواء ونفس الأمر فعلتهُ الحكومة حيثُ قتلت عشرات المدنيين في الغارات الانتقامية التي كانت تشنّها بين الفينة والأخرى. وصلت الانتفاضة ذروتها عام 1982 حينما حصلت مجزرة حماة التي راحَ ضحيّتها ما بينَ 1000 حتى 25000 شخص بمن فيهم مدنيين ومتمردين وغيرهم الكثير.

## خلفية

وقع الصدام الأول بين حزب البعث والإخوان المسلمين في سوريا بعد فترة وجيزة من الانقلاب البعثي عام 1963 والذي مكّنَ حزب البعث من تقلّدِ مقاليد السلطة في سوريا. منذُ البداية؛ كانت الجماعات الإسلامية السياسيّة وأبرزها الإخوان المسلمين تُمثّل أقوى معارضة للحكومة الجديدة. أدى «تجريم» جماعة الإخوان المسلمين عام 1964 من قِبل الحكومة إلى «تطرفها»؛ ففي عامي 1964 و1965 انتشرت الإضرابات والمظاهرات الشعبيّة في جميع أنحاء المدن الرئيسية في سوريا وخاصة في حماة لكنّ الجيش تمكّن من فضها بالقوّة. لقد كانت مدينة حماة «معقلًا للتيار المحافظ وللإخوان المسلمين» ولطالما شكّك حزب البعث في ولائها للدولة.

في 31 كانون الثاني/يناير من عام 1973؛ أعلنَ الأسد عن الدستور الجديد الذي تسبّبَ في أزمة وطنية؛ فعلى عكس الدساتير السابقة لم يَشترط هذا الدستور أن يكون رئيس سوريا مسلمًا مما أدى إلى «مظاهرات شرسة» في حماة وحمص وحلب نظمتها جماعة الإخوان المسلمين حيثُ وصفوا الأسد بأنه «عدو الله» ودعوا إلى «الجهاد ضد حُكمِه».

### التمرد المتقطع (1976–1979)

في أعقاب الوصاية السورية على لبنان في عام 1976؛ اغتِيل عددٌ من الضباط والموظفين الحكوميين السوريين البارزين فضلاً عن عددٍ من المدنيين. معظم الضحايا كانوا من الطائفة العلوية ما يُشير ضمنيًا إلى أنّ المهاجمين كان لهم مخطط مُعيّن وبالرغمِ من ذلك لم تتمكّن لا الدولة ولا جهاز الاستخبارات من تحديدِ الذي يقفُ وراء عمليات القتل والاغتيال، بينما وُجّهت أصابعُ الاتهام نحوَ الإخوان المسلمون الذين كانوا يحتقرون العلويين ويعتبرونهم من غير

المسلمين. في تلك الفترة؛ سرت شائعات وتكهنات تُفيد بأن حكومة صدام حسين في العراق قد قدّمت الدعم اللوجستي والعسكري للإخوان المسلمين في سوريا .

### الثورات المحلية (نوفمبر 1979–يناير 1982)

حصلَ في 16 حزيران/يونيو 1979 مجزرة مدرسة المدفعية في حلب حيثُ قام أحد أعضاء هيئة التدريس ويُدعى إبراهيم يوسف ، بتجميع الطلاب في قاعة الطعام ثم استقبلَ المسلحون الذين فتحوا النار على الطلاب مباشرة. حسبَ الرواية الرسميّة؛ فقد سقطَ في هذهِ المجزرة 32 قتيلًا معظمهم من شباب الطائفة العلويّة فيما تقولُ مصادر غير رسميّة إن عدد القتلى بلغ 83 طالبًا . كانت هذه المجزرة من تنفيذِ جماعة إسلامية سنية تابعة للإخوان المسلمين أو مُختَرَقة منهم كما ساعدَ عدنان عقلة – الذي أصبح فيما بعد قائدًا للمجموعة – في التخطيط للمجزرة.

كانت هذه المذبحة بمثابة إعلان حربٍ مدنيّة واسعة النطاق ضد العلويين؛ حيثُ تبعها استهدافٌ مباشرٌ لمقرات حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم بما في ذلك مراكز الشرطة والمركبات العسكرية والثكنات والمصانع وأهداف أخرى. في مدينة حلب لوحدها وبالتحديدِ من 1979 حتى عام 1981؛ قتل «المُهاجِمون» أكثر من 300 شخص معظمهم من البعثيين والعلويين وبالرغمِ من ذلك فقد أدانَ العشرات من رجال الدين المسلمين عمليات القتل والاغتيال هذه بما في ذلك الشيخ محمد الشامي الذي قُتل في مسجده في الثاني من شباط/فبراير عام 1980.

في الأيام التي سبقت 8 آذار/مارس 1980 (الذكرى السابعة عشرة للانقلاب البعثي)؛ أُصيبت جميع المدن السورية تقريباً بالشلل بسبب الإضرابات والاحتجاجات التي تطوّرت فيما بعد إلى معارك ضاريّة مع قوات الأمن. شاركت في هذهِ المعارك العديد من المنظمات – الدينية منها والعلمانية – بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين ثمّ تصاعدت

الأحداث إلى حدّ شنّ حملة واسعة النطاق في مدينة حلب بعدما أرسلت الحكومة الآلاف من الجنود المدعومين بالدبابات والمروحيات لبسطِ السيطرة على المدينة وما حولها مما تسبّبَ في مقتل مئات المتظاهرين واعتقال ثمانية آلاف. بحلول نيسان/أبريل من نفسِ العام؛ كانت الحكومة قد نجحت – بالاستعانة بالقوّة العسكرية المُفرطة – في القضاء على الانتفاضة في المنطقة.

في 26 حزيران/يونيو 1980؛ نجى الرئيس السوري حافظ الأسد من محاولة اغتيال بعدما ألقى المهاجمون قنبلتين على موكبِهِ ثمّ أطلقوا رشقات نارية باتجاههِ في العاصِمة دمشق. أثارت محاولة الاغتيال هذهِ غضب القوات الحكومية وفتحَت شهيّتها نحو الانتقام؛ وفي 27 حزيران/يونيو 1980 قامت سرايا الدفاع – المكوّنة من جنود غالبيتهم علويين – بذبحِ ما قُدّر بـ 1152 سجينًا في سجن تدمر وبعدَ أقل من شهر؛ سنّت الحكومة قرارًا يقضي بإعدام كل من ينتسبُ لجماعة الإخوان المسلمين كما منحت المنضمّين لها مدة شهرٍ واحدٍ لتسليم أنفسهم.

في آب/أغسطس من عام 1980 وبعد هجوم على الجنود المتمركزين في مدينة حلب؛ أعدمَ الجيش السوري ما يقرب من 80 شخصًا من سكان الأحياء الموجودة بالقربِ من موقع الهجوم من دون محاكمة. بحلول نيسان/أبريل 1981؛ وبعد هجوم فاشل على قريةٍ علوية بالقرب من حماة؛ أعدمَ الجيش السوري من جديد حوالي 400 من سكان المدينة الذين اختيّروا بشكل عشوائي وخاصّة الذكور الذين تزيد أعمارهم عن 14 سنة. في وقتٍ لاحق من عام 1981؛ قام أكثر من ألف من المنتمين للإخوان المسلمين بتسليم أنفسهم على أمل الهروب من عقوبة الإعدام. معظم هؤلاء الذين سلموا أنفسهم كانوا طلابًا تقلّ أعمارهم عن 25 عامًا من مدينة دمشق وغيرها من المدن الكبيرة بالإضافةِ إلى آخرين كانوا يعملون في وظائف التعليم والطب والهندسة. وفي آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر وتشرين الثاني/نوفمبر 1981؛

نفذت جماعة الإخوان المسلمين ثلاث هجمات بسيارات مفخخة ضد أهداف حكومية وعسكرية في دمشق مما أسفر – حسب مصادر رسميّة – عن مقتل مئات الأشخاص.

**انتفاضة حماة (فبراير 1982)**

سُحقت الانتفاضة بالكامل بعدَ مجزرة حماة الدموية عام 1982 والتي قتل فيها الآلاف من المتمردين والجنود والمدنيين الأبرياء، ففي الثاني من شباط/فبراير 1982؛ قادَ الإخوان ثورة كبرى في حماة وسيطروا بسرعة على المدينة ثمّ رد الجيش بقصف المدينة (التي كان عدد سكّانها حوالي 250000) لعدّة أيام متتالية مما أسفر عن مقتل ما بين 1000 و 25000 شخص. شكلت أحداث حماة هزيمة كُبرى للإخوان ولباقي الحركات الإسلاميّة التي كانت تؤيدها في سوريا .

قائمة الاغتيالات

الأفراد بين عامي 1976–1979

هذه قائمة مُصغّرة بأبرز الشخصيات المُغتَالة من عام 1976 وحتى 1979:

قائد مدينة حماة العقيد علي حيدر (قُتل في تشرين الأول/أكتوبر 1976)

رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد الفضل (قُتل في شباط/فبراير 1977)

قائد السلك الصاروخي ، العميد عبد الحميد رزوق (قُتل في حزيران/يونيو 1977)

عميد أطباء الأسنان السوريين الدكتور إبراهيم نعمة (قُتل في آذار/مارس 1978)

مدير شؤون الشرطة في وزارة الداخلية العقيد أحمد خليل (قتل في آب/أغسطس 1978)

المدعي العام عادل ميني من محكمة أمن الدولة العليا (قُتل في نيسان/أبريل 1979)

طبيب الرئيس حافظ الأسد الدكتور محمد شحادة خليل (قُتل في آب/أغسطس 1979)

الأفراد بين عامي 1980–1982

هذه قائمة مصغّرة أخرى حول أبرز الشخصيات المغتالَة في الفترة الممتدة من 1980 وحتى 1982:

سليم اللوزي ناشر مجلة الحديث في لبنان (قُتل على يد سوريين في آذار/مارس 1980)

رياض طه رئيس نقابة الصحفيين في بيروت (قُتل في تموز/يوليو عام 1980)

بَنان الطنطاوي زوجة المدير العام السابق للإخوان المسلمين عصام العطار (قُتلت في آخن في تموز/يوليو 1980)

صلاح البيطار أحد مؤسسي حزب البعث (قُتل في باريس في 21 تموز/يوليو 1980)

وعلى الرغم من عدم ثبوت تورط الحكومة السوريّة رسميًا في قائمة الاغتيالات هذه؛ لكنّ أصابع الاتهام وُجّهت لها من جديد في العديد من الحالات في سوريا وفي لبنان ودول أخرى

**ثامنا : تذمر المسيحين السوريين على أحداث لبنان .**

يشير التدخل السوري في الحرب الأهلية اللبنانية إلى التورط العسكري للجيش العربي السوري وغيره من الهياكل العسكرية والاستخبارية للجمهورية العربية السورية البعثية في الحرب الأهلية اللبنانية. لقد بدأ التدخل في عام 1976، بعد عام من اندلاع الحرب اللبنانية، عندما بدأ الجيش السوري في دعم الميليشيات المارونية ضد منظمة التحرير الفلسطينية والميليشيات اليسارية. أسست سوريا ميليشيا تابعة لها هي جيش التحرير الفلسطيني. لقد تم إضفاء الشرعية على التدخل لاحقًا بحجة قوات الردع العربية التابعة للجامعة العربية. لكن في وقت لاحق، تغير الموقف، وحولت سوريا الدعم إلى حركة أمل، بينما كانت لا تزال تدعم بعض الميليشيات الفلسطينية والمارونية. وفي عام 1982، تحاربت سوريا إسرائيل للسيطرة على لبنان

## تدخل عام 1976

في 22 يناير 1976، توسط الرئيس السوري حافظ الأسد في هدنة بين الجانبين، بينما بدأ سرًا في نقل القوات السورية إلى لبنان تحت ستار جيش التحرير الفلسطيني من أجل إعادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى النفوذ السوري ومنع تفكك لبنان. ومع ذلك، استمر تصاعد العنف. وفي مارس 1976، طلب الرئيس اللبناني سليمان فرنجية من سوريا التدخل رسميًا. وبعد أيام، أرسل الأسد رسالة إلى الولايات المتحدة يطلب فيها منهم عدم التدخل إذا كان سيرسل قواته إلى لبنان.

وفي 8 مايو 1976، هَزم إلياس سركيس، الذي كانت تدعمه سوريا، فرنجية في انتخابات رئاسية أجراها البرلمان اللبناني. ومع ذلك، رفض فرنجية التنحي. في 1 يونيو 1976، دخل 12 ألف جندي سوري نظامي إلى لبنان وبدأوا في شن عمليات ضد الميليشيات الفلسطينية واليسارية. وضع هذا سوريا على الجانب نفسه مثل إسرائيل، حيث

بدأت إسرائيل بالفعل في تزويد القوات المارونية بالأسلحة والدبابات والمستشارين العسكريين في مايو 1976. كان لسوريا مصالحها السياسية والإقليمية الخاصة في لبنان، الذي كان يؤوي خلايا من الإسلامويين السنّة والإخوان المسلمين المناهضين للبعث.

ومنذ يناير، كان مخيم تل الزعتر في شرق بيروت محاصرًا من قبل الميليشيات المسيحية المارونية. وفي 12 أغسطس 1976، تمكنت القوات المارونية، بدعم سوري، من سحق الميليشيات الفلسطينية واليسارية المدافعة عن المخيم. قتلت الميليشيات المسيحية ما بين 1000 إلى 1500 مدني، الأمر الذي أثار انتقادات شديدة لسوريا من العالم العربي.

وفي 19 أكتوبر 1976، وقعت معركة أيشيا، عندما هاجمت قوة مشتركة من منظمة التحرير الفلسطينية وميليشيا شيوعية قرية أيشيا، وهي قرية مارونية معزولة في منطقة معظمها مسلمة. أطلق سلاح المدفعية التابع لجيش الدفاع الإسرائيلي 24 قذيفة (66 كيلوغرام من مادة تي إن تي لكل منها) من وحدات مدفعية ميدانية أمريكية الصنع 175 ملم على المهاجمين، لصد محاولتهم الأولى. ومع ذلك، عاد كل من الشيوعيين ومنظمة التحرير الفلسطينية ليلًا، عندما جعلت الرؤية الضعيفة المدفعية الإسرائيلية أقل فعالية بكثير. لقد فرّ السكان الموارنة من القرية لكنهم عادوا في عام 1982.

وفي أكتوبر 1976، قبلت سوريا اقتراح قمة الجامعة العربية في الرياض الذي أعطى سوريا تفويضًا بإبقاء 40 ألف جندي في لبنان باعتبارهم قوة ردع عربية مُكلفة بتفكيك المقاتلين واستعادة الهدوء. كانت الدول العربية الأخرى أيضًا جزءً من قوات الردع العربية، لكنها فقدت الاهتمام في وقت قريب نسبيًا، وتُركت سوريا مرة أخرى تحت السيطرة الوحيدة مع وجود قوات الردع العربية كدرع دبلوماسي ضد الانتقادات الدولية. توقفت الحرب الأهلية

رسميًا عند هذه النقطة، واستقر هدوء مضطرب على بيروت ومعظم مناطق لبنان. ولكن في الجنوب، بدأ المناخ في التدهور نتيجة للعودة التدريجية لمقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، الذين طُلب منهم إخلاء وسط لبنان بموجب شروط اتفاقيات الرياض. خلال 1975–1977، قتل 60 ألف شخص.

### حرب المائة يوم (1977)

كانت حرب المئة يوم نزاعًا ضمن مرحلة الأعوام 1977 حتى 1982 من الحرب الأهلية اللبنانية وقد وقعت في العاصمة اللبنانية بيروت حيث دارت بين تحالف ميليشيات الجبهة اللبنانية المسيحية بقيادة رئيس حزب الكتائب بشير الجميل والقوات السورية التابعة لقوات الردع العربية.

معركة زحلة (1980–1981)وقعت معركة زحلة خلال الحرب الأهلية اللبنانية، بين ديسمبر 1980 ويونيو 1981. عانت مدينة زحلة خلال فترة السبعة أشهر لعدد من النكسات السياسية والعسكرية. كان اللاعبون الرئيسيون المعارضون من جهة، القوات اللبنانية بمساعدة سكان بلدة زحلة، وعلى الجانب الآخر، القوات المسلحة السورية، التي كانت جزءً من قوات الردع العربية لحفظ السلام، بمساعدة بعض فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. ومن الناحية الديموغرافية، تعتبر زحلة واحدة من أكبر المدن المسيحية في لبنان. وبالقرب من ضواحي البلدة، سهل البقاع، الممتد على طول الحدود السورية. وبالنظر إلى قرب زحلة من سهل البقاع، فقد شَكَّت القوات المسلحة السورية من تحالف محتمل بين إسرائيل والجبهة اللبنانية في زحلة. هذا التحالف المحتمل لن يهدد الوجود العسكري السوري في سهل البقاع فحسب، بل كان يُعتبر تهديدًا للأمن القومي من وجهة نظر السوريين، نظرًا لقربه بين زحلة والطريق السريع بين بيروت ودمشق. وبالتالي، وكاستراتيجية قمع، سيطرت القوات السورية على الطرق الرئيسية المؤدية إلى المدينة والخروج منها

وحصنت الوادي بأكمله. وعند ديسمبر 1980، ازداد التوتر بين القوات اللبنانية في زحلة والمسلحين اليساريين المدعومين من سوريا . ومن أبريل إلى يونيو 1981، وطوال فترة الأشهر الأربعة، واجهت حفنة من أعضاء القوات اللبنانية، بمساعدة المقاومة المحلية الزحلاوية، آلة الحرب السورية ودافعت عن المدينة من التدخل السوري والغزو المحتمل.

## تاسعا : الممارسات العنصرية الطائفية في المجتمع السوري

فإن النظام السوري هو المسؤول الأول عن انتشار السياسات الطائفية والعنصرية في المجتمع السوري. فالنظام الأسدي قام، خلال الأربعين عاما الماضية، بتبني سياسات تهدف إلى التفرقة ما بين السكان على أسس طائفية، واثنية، بالإضافة إلى القمع الممنهج للحركات الاعتراضية والمعارضات اليسارية والعلمانية، مع سيطرة شبه كاملة على مفاصل الحركة النقابية وإسكات أصوات الاحتجاج الاقتصادية والعمالية، التي تستطيع أن توحّد المواجهة ضد السياسات الطائفية. وكل هذه الأمور شجعت صعود خطاب طائفي، مترافقا مع صعود أكبر للتيارات المحافظة والرجعية، التي تتبلور اليوم على أشكال الحركات الأصولية والطائفية، كجبهة النصرة، مثلا. ومن هنا فدور اليسار الثوري لا يكون بالتملّص من الانخراط في السيرورة الثورية، لكونها تحتوي على عناصر رجعية وطائفية، بل بالعكس تماما، فعلى اليسار أن يواجه، ويبيّن أن مصدر هذه السياسات الطائفية هو النظام نفسه، وأن ضرب هذا الخطاب الطائفي لا يمكن أن يتم إلا مع سقوط المروّج الأول للطائفية، وهو النظام، وكذلك وعلى نفس القدر من الأهمية، بالوقوف بجزم ضد العناصر الطائفية والعنصرية من داخل الثورة السورية.

فتخطي الطائفية، كما يقول أسامة مقدسي، "إذا كان ذلك ممكنا، يتطلب قطعا آخر، لا يقل جذرية، بالنسبة للجسم السياسي، عما كان قد تم مع صعود الطائفية، بالنسبة للنظام القديم. إنه يتطلب تعريفاً جديداً للحداثة".

فالنضال ضد الطائفية، هو جزء لا يتجزأ من النضال ضد النظام القائم، ويتطلب فصلا جذريا عن الماضي، وعن السياسات الطائفية والعنصرية. وهذا يتطلب بالإضافة إلى مواجهة النظام مواجهة العناصر التي تسعى من خلالها بعض دول الخليج العربي إلى قولبة الصراع القائم ضد النظام ليكون صراعا طائفيا، لتنجو هي بدورها من الموجات الثورية التي تجتاح العالم العربي. فالطائفية يمكن تحطيمها إذا فقط عملنا من أجل الديمقراطية الفعلية، والعدالة الاجتماعية والمساواة، والعلمانية والاستقلال الحقيقي.

قد نجح النظام إلى حدً كبيرٍ في التغرير بأكثرية الطائفة العلويّة، من خلال شبكة المصالح التي ربطت أفرادها ومجموعاتٍ نافذةٍ فيها بالطغمة الحاكمة، وأيضاً نجح نسبياً في إخفاء توجهات السلطة ونزعتها الطائفيّة، إلى حدً ما، عن بقيّة أفراد المجتمع في دفع جماعاتٍ وأفرادٍ من الطوائف إلى واجهة الأجهزة الإداريّة والتنفيذيّة التي لا تملك من السلطة في الأمور السياسية المفصليّة سوى تنفيذ الأوامر لصاحب السيادة، المتمثل في العصبة العلويّة السلطويّة. ومن خلال الشراكة الزبائنيّة التي أقامتها من موقع السيد مع كبار المستثمرين السنة والتجار والصناعيّين في المدن الكبرى. وفي الحالتين، حاولت العصبيّة العلوية السلطوية إخفاء موقعها كطغمة حقيقيّة دينها الحقيقي هو السلطة والنفوذ والثروة، وأن المذهبية لا تعني لها سوى الاستثمار السلطوي لتعزيز سطوتها على الدولة والمجتمع. في المقابل، صار الأمر في الوعي العام وفي الممارسة أنّ الجماعات الأخرى التي تشارك هذه "الطغمة العصبوية" في الاقتصادي والسياسي، بقيت تحتل مواقع الدرجة الثانية في هذه الشراكة، بدءاً بمؤسسة حزب البعث والمؤسسات النقابيّة، وكذلك أصحاب المال،

فقد سلمت تلك الفئات، ضمنيّاً وجهراً، بأنّ للعصبيّة العلويّة السلطويّة الموقع المهيمن في الدولة والسلطة، وتأخذ الموقع الأول في شتى المجالات، ولها القرار الحاسم. سلَّموا بأن تكون مؤسسة الجيش والمخابرات حكراً على أفراد طائفة بذاتها، أو على الأقل وجود أفرادها في المواقع المركزيّة لهذه المؤسسة، وصاحبة السطوة والقرار.

وعلى هذا، حدث نوعٌ من تقسيم العمل، احتلت فيه تلك العصبيّة العلويّة، بفعل سطوتها على المؤسسات القمعيّة والسياديّة، والقهرية والباطشة، موقعاً متميزاً مقارنةً ببقيّة الجماعات الأخرى، حين احتلت وظيفة القهر والإرعاب، وحازت على موقع السيد والموجّه للمجتمع بعدما امتلكت القرار السياسيّ السياديّ، والمرجعيّة للهيمنة على الشأن الاقتصاديّ والثقافيّ والاجتماعيّ، وهو ما تلخصه المادة الثامنة من الدستور التي تعطي حزب البعث موقع القيادة للدولة والمجتمع، و"البعث" هنا رداء وسخ للجسم السلطويّ الصلب الذي يمسك بمؤسسات القوة والسطوة للدولة، ويحكم على مؤسساتها الأخرى بالتبعية.

ولقد وصلت عملية الانصهار هذه بين السلطة والعصبية العلوية إلى ذروتها مع حقبتي الأسد الأب والابن، اللذين استطاعا التلاعب بالتنوع الطائفي، بطريقةٍ تجعل للطائفية ركائز اجتماعية واقتصادية وسياسية تؤسّس لكل طائفة وظيفة اجتماعية وسلطوية تتميز بها عن الأخرى. "استطاع (الأسد) أن يسيطر على الجيش، وعيّن الموالين له من الطائفة قادةً له، فتحوّل الجيش إلى الولاء لطائفة. وقد استغلّ الأسد التاريخ الطويل للقمع الذي عاشه العلويون سابقاً

من أجل تعزيز التضامن بين أبناء الطائفة، فكثيراً ما لوّح باحتمال حدوث حمام دم جديد في معركة الطوائف إذا تخلى عن السلطة. وبذلك، ربط حافظ الأسد إنقاذ الطائفة العلوية بمصيره الشخصي. وحظي الأسد بولاء أبناء طائفته، ما جعله يختار بينهم رجال الأمن والقوات الخاصة" (كارولين دوناتي). وقد كشفت الثورة السورية في مجرياتها

التحيزات الطائفية، ومفاعيل الممارسات الطائفية لنظامٍ أتقن اللعبة الطائفية ومارسها بطريقة مدمرة، فوضع الجيش بتركيبته الطائفية في وجه المجتمع، فهذا "الجيش العقائدي" لم يتربّ إلّا على الولاء للطائفية، مرموزاً لها بـ"القائد"، وعلى الحذر من الشعب إن لم نقل الكراهية له. هان على هذا الجيش وضع البندقية في صدر أبناء سورية الطامحين للحرية. وجدت هذه العصبة الطائفة من المناسب لشعورها وعقلها ولمصالحها أن ترفع شعارها المجَلّل بالعار: الأسد أو نحرق البلد .

مقابل ذلك عمدت الأجهزة الأمنية السورية إلى اتباع سياسات مذهبية وطائفية وإثنية للتفرقة بين المواطنين ومنع اندماجهم، حيث شجعت بشكل صامت إقامة مناطق ذات لون طائفي واحد، أو اثني واحد، حيث نجد مدينة بانياس الآن مقسومة بين شق سني وآخر علوي، و في مدينة القطيفة نجد أن منطقة الضباط التي يتبع أغلبها للعلويين محاطة بسور يفصلها عن قسم المدينة ذات الغالبية السنية، إضافة إلى وجود أحياء بأكملها محسوبة على طائفة ما، فسنجد مدينة جرمانا تحسب للدروز والمسيحيين، و منطقة المزة ستة وثمانين للعلويين و دوما وحرستا للسنة رغم أن تلك المناطق ليست صافية بالمطلق إلا أنها ترسخت في الوعي الشعبي بهذا الشكل، مما أدى إلى بقاء الحالة الاجتماعية السورية في وضع "حسن جوار طائفي" وفق تعبير المفكر القومي ياسين الحافظ، أو "تشكل طائفي للمجتمع وإشغال النظام الموقع الحصري لضبط التفاعل بين جماعات تقل التفاعلات المستقلة في ما بينها"، كما يقول الكاتب ياسين الحاج صالح. وإن كانت السلطة لم تشجع الحالة السابقة كما يرى البعض أي أنها نشأت بفعل طائفية المجتمع، فمما لاشك فيه أنها تبقى مسؤولة عن الأمر لعدم قيامها بواجبها في منع تشكل ظواهر طائفية واضحة، وعدم العمل على تحقيق الاندماج الاجتماعي اللازم.

سياسة احتكار الطائفية هذه بدأت في سوريا بشكل أكثر وضوحا بعد خروج السلطة منتصرة من أحداث الثمانيات حيث نشب آنذاك الصراع المسلح بين الإخوان المسلمين وهم حزب إسلامي طائفي يحاول تمثيل السنة في سوريا والعالم العربي، وبين النظام الذي ينظر له الإخوان على أنه نظام علوي، حيث وفّر الإخوان للنظام ذريعة على طبق من ذهب، حين رفعوا شعار "إسقاط النظام العلوي" في ثمانيات القرن الماضي، لنكون أمام أوّل حالة طائفية تعلن عن نفسها بهذا الشكل بعد استقلال سوريا، وهي الفرصة التي سيستغلها نظام الأسد فيما بعد لسحق أي حديث بالطائفية تحت شعارات علمانية زائفة لبناء سياسة احتكار الطائفية التي حكم بها، وذلك بعد أن شدّ الأقليات الدينية باتجاهه التي هددها صعود الإخوان، وخاصة الطائفة العلوية التي عمل النظام على إلحاقها به بشكل كلي تقريبا، حيث نقلت آني ولورانت شاربي في كتابهما "سياسة وأقليات في الشرق الأدنى – الأسباب المؤدية للانفجار": "في آب/اغسطس 1980 اختار حافظ الأسد الاحتفال برمضان في القرداحة، مسقط رأسه، بدلا من جامع بني أمية الكبير في دمشق، كما كان يجري التقليد وجمع إليه بهذه المناسبة أهم زعماء الطائفة العلوية الدينين، وأوصاهم برص الصفوف لمواجهة الأزمة، حاضا إياهم على تحديث العدة الدينية لإحكام قبضتها على الطائفة وتثبيت دعائم الروابط المنحلة"، لنكون أمام أول حالة علنية تثبت لجوء السلطة السورية بوضوح إلى الطائفية لمواجهة الإخوان الساعين إلى تطييف الصراع في سوريا .

بعد ثمانيات القرن الماضي، سيزداد حضور الطائفية في سوريا بشكلها المستتر هذا، أي صمت مطلق وتآخي ظاهري مع طائفية كامنة في المجتمع، مقابل حضور مستتر لها في أجهزة الدولة الظاهرة ( مناصب الجيش القيادية ومجلس الوزارء) وحضور طاغي في أجهزة الدولة السورية السرية كالأمن و المخابرات، وقد عبر الشاعر السوري فرج بيرقدار الذي كان عضوا في اللجنة المركزية لحزب العمل الشيوعي ( وهو حزب يساري معارض منذ ثمانينات القرن

الماضي، وقد دخلت أغلب كوادره السجن) وسجن أعواما طوال في سجن الأسد عن ذلك، حيث كتب: "حين اعتقِلتُ في المرة الأولى من قبل المخابرات الجوية عام 1978 لم أتعرَّض لشتائم طائفية. . في آخر اعتقال لي عام 1987 كانت الشتائم الطائفية لي وللآخرين سمة سائدة" .

وقد تجلّت سياسة السلطة هذه في عدد من المحطات، منها حين سجنت المعارض البارز "ميشيل كيلو" في عام 2006 بسبب كتابته مقال تحت عنوان " نعوات سورية" جاء فيه "ومع أن الطوائف ضرب من بنية تحتية للوعي العام في سورية، فإن أحدا لا يجرؤ علي الحديث عنها، ليس لاعتقاد الناس أنها غير موجودة، بل خوفا من سلطة تدعي أنها أقامت وحدة وطنية صهرت الشعب في بوتقة ألغت جميع أنواع الفروق العقائدية والإثنية، وجعلت أي حديث عن طوائف خيانة وطنية مثبّتة تستحق العقاب" معبّرا بذلك عن الوضع الذي وصلته الطائفية في سوريا، الأمر الذي دفع السلطات لمحاكمته وسجنه، رغم معرفتها يقين المعرفة أنّ ميشيل ليس طائفيا ولا يريد "إثارة النعرات الطائفية"، إلا أنّ السلطة لم تكن بوارد السماح بهذا الأمر لأنه يمس أساسا من أسس هيمنتها، لضرورة عدم اللعب بالموزاييك الداخلي المستقر، وهو ما دفع الكاتب بشار العيسى لعنونة مقاله "أوراق النعوة الطائفية تعتقل الكاتب ميشيل كيلو" جاء فيه: "يكون ميشيل كيلو، قد ارتكب غلطة الشاطر، باجتيازه خط النار في تناول المحظور، مثلث المحرمات: الطائفة، العائلة، والعسكر، في مد إصبع الإتهام إلى الجرح الطائفي، بل بالقبض على المتهم، الطائفية، بالجرم المشهود" .

ورغم أن السلطة اعتقلت ميشيل لأنه اجتاز حدا من الحدود التي احتكرتها لنفسها ( وهي الطائفية) إلا أنها لم تظهر أبدا أنها اعتقلته لهذه الأسباب، بل أوحت بذلك إيحاءا، لإيصال رسالة لكل الناشطين والسياسيين والمجتمع أنها لن تسمح بأن تصبح المسألة الطائفية مجال حوار عام، لأن هذا سيؤدي على المدى البعيد لفقدانها ورقة الطائفية التي

توظفها في ضبط المجتمع وضرب مكوناته ببعضها البعض. وثانيهما: تأكيد استمرارها في سياسة احتكار الطائفية تلك.

في مثال آخر، أصدر المعارض السوري رياض سيف في فترة ربيع دمشق "حركة السلم الاجتماعي" التي تحدث بها عن فسيفساء اجتماعية في سوريا، وكانت هي أوّل تعبير بطريقة ملطفة عن الطوائف في سورية، حيث جاء فيها: "يمتاز الشعب السوري بتعددية عرقية ودينية لكون سورية مهداً للأديان السماوية والحضارات القديمة"، ليتم اعتقاله، و إنهاء ربيع دمشق خوفا من "جزأرة" سورية كما قال نائب الرئيس السوري السابق المنشق عبد الحليم خدام آنذاك.

في أحداث الثمانيات يروي البعض أن السلطة حين كانت تريد أن تعتقل أعضاء حزب العمل الشيوعي في قرية ما من قرى الساحل، كان رجال الأمن يقومون بكتابة شعارات طائفية على جدران القرية ليلا، من قبيل " يسقط النظام العلوي الطائفي"، و بعدها بأيام يتم اعتقال المناضلين، فكان أهل القرية البسطاء يربطون بين حدث الاعتقال والكتابات ليبدو وكأن المناضلين الشيوعيين اعتقلوا لأنهم كتبوا تلك الشعارات، فيحقق النظام أهداف ثلاثة من ذلك، هي:

(1) شد عصب الطائفة لديه عبر تقديم نفسه أنه الحامي لها.

(2) تأكيد الربط بينه وبين الطائفة كصمام أمان خلفي وكوقود يستخدم لحمايته بنفس الوقت.

(3) تشويه صورة هؤلاء المناضلين في بيئاتهم الاجتماعية، خاصة أن الأمر يرفق بشائعات مكثفة تدفع الناس نحو الخوف وتصديق كل ما يقال.

الأمثلة السابقة تعطي مؤشر لكيفية استخدام السلطة للورقة الطائفية، فهي لم تكن سلطة طائفية إطلاقا، لأن السلطة الطائفية التكوين يكون الاهتمام بالطائفة وتحسين أوضاعها من صلب اهتماماتها وتأخذ وضع الطائفة في كل اعتباراتها وسياساتها كمثل السلطتين السعودية والإيرانية القائمتين على بينة طائفية صلبة، في حين أن السلطة المستخدمة للطائفية لا تعدو أن تكون الطائفة في حساباتها أكثر من ورقة تستخدمها بين أوراق أخرى لإدامة السيطرة، وهو حال النظام السوري الذي احتكر الطائفية لنفسه دون أن يكون طائفيا في العمق، لأن " النظام متمركز حول السلطة لا حول مشاعر التضامن الطائفي التي لا تعدو كونها وسيلة مأمونة لنيل السلطة" كما يقول ياسين الحاج صالح، وذلك من خلال منع المجتمع والأحزاب السياسية من الحديث بالطائفية أو تداولها على مستوى الإعلام، إضافة إلى اعتماده ممارسات طائفية.

ولأن أفعال وسياسة أي سلطة يكون لها صدى ما في المجتمع وتحدث تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية في من يقع عليهم أفعال السلطة، فإن هذا الأمر أدى في سوريا من جملة تحولات كثيرة إلى ولادة ما أسميه "الطائفية المستترة" فلا هي متجاوزة باتجاه حالة وطنية أرقى، و لاهي ظاهرة بوضوح بحيث يمكن رؤيتها وتلمسها وبالتالي معالجتها، فبقيت الطائفية السورية كامنة ومستترة في حالة كمون، بانتظار انفجار المرجل الذي كان لابد منه، والذي جاء بعد أشهر من بدء الانتفاضة السورية، بسبب رمي السلطة لكل أوراقها الطائفية من جهة، واتجاه المعارضة في غباء قل نظيره للعب بالورقة الطائفية إياها ظنّا منها أنها تسهل مهمتها في إسقاط النظام، نزولا عند أجندة خارجية لا تهدف

إلا تأجيج الطائفية التي تكون مدخلها للتدخل في الحالة السورية، تحت شعار حماية الأقليات الذي رفعته السياسات الاستعمارية ضد السلطنة العثمانية.

عاشرا : التحالفات الطائفية والعرقية المحلية والأقليمية في سوريا .

انتشر التمييز الطائفي والعرقي في الحرب الأهلية السورية بين أتباع الطوائف الدينية وأبناء الجماعات العرقية المختلفة. من الممكن النظر إلى بعض أجزاء الصراع في سوريا على أنها جزء من صراع أوسع، وانعكاس للانقسام الطائفي على المستوى الإقليمي، بالإضافة لذلك، كان للخلافات والصراعات والتحالفات الإقليمية المرتبطة بالقضايا القومية أثر على طبيعة الصراع ونتائجه. نتيجة لما سبق، تعرّضت مُختلف الطوائف الدينية والمجموعات العرقيّة لانتهاكات حقوقية على أساس طائفي أو عرقي، من قبل القوات الرئيسية المتصارعة في الحرب الأهليّة. وقد أدى الانقسام والعنف الطائفي إلى زيادة تهديد الأقليات الدينية. كما انضم عدد كبير من السكان إلى ميليشيات وجماعات تتّسم بطابع طائفي أو عرقي، وتدفّق مسلّحون من عدّة دول للقتّال في هذه الجماعات.

لقدكان الهم الوحيد لحافظ الأسد هو الاحتفاظ بالسلطة وتوريثها لأبناءه وخاصة بعد أن كشفت أحداث حماة الوجه الحقيقي لحكمه القائم على الطائفية والعنصرية ولقد وضع الطائفة العلوية كلها في حالة صراع دموي مع السنة خاصة الذين يشكلون الأغلبية في البلاد ومن أجل ذلك فلقد عمد الى خلق تحالفات طائفية وعرقية لذلك فلقد حسن علاقاته مع الأكراد وسمح لهم بتأسيس الأحزاب الكردية بل جعل لزعيم حزب العمال الكردستاني الكردي التركي الموضوع على رأس قائمة الأرهابيينوالمطلوبين في تركيا جعل له مراكز تدريب في غوطة دمشق كما ساهمت

مخابراته في مساعدة عناصر بي كي كي بالتسللل الى تركيا والقيام بأعمال تفجير وقتل هناك مما دفع بتركيا الى وضع قواته على طول الحدود مع سوريا مطالبة الأسد بتسليم أوجلان أو الحرب .

ولقد خلق الأسد جبهة غير معلنة تعمل في الخفاء بين العلويين والأقليات الطائفية والعرقية في سورية لمواجهةالأغلبية السنية ولقد استمال المسيحيين ومنحهم بعض الميزات وجعلهم من المقربيين وهكذا فعل معالأسماعاعيليينوالدروز أعداء العلويين فقربهم ووضعوا في مناصب ومراكز حساسة في الدولة .

الا أن أخطر تحالف طائفي صنعه الأسد كان تحالفه مع ايران فور استلام الخميني لتلك الدولة ولم تمضي سنوات حتى كان الأسد الحليف العربي الاستراتيجي لها للوقوف في وجه العرب عامة وأهل سوريا خاصة .

لذلك فلقد سمح بتأسيس أعتى حزب طائفي هو حزب الله في لبنان ولم تمضي عدة سنوات ليصبح هذا الحزب دولة داخل الدولة اللبنانية ليسلطوه على المسلمين والمسيحيين والدروز ولقد رأينا كيف دخلهذا الحزب علنا مع بشار الأسد ضد سنة سوريا وكيفت ارتكبت ميليشياته والميليشيات الشيعية العراقية أفظع المجازر والجرائم بحق السوريين

## حادي عاشرا : انفجار القنبلة الطائفية عام 2011

**الثورة السورية.. متى بدأت شرارتها الأولى؟ وما أبرز مراحلها ونتائجها؟**

انطلقت الثورة السورية من احتجاجات شعبية عفوية سلمية في المناطق السورية المهمشة عام 2011 تطالب بالحرية والكرامة والانعتاق، ووضع حد للقمع والفساد والدكتاتورية، لكنها سرعان ما عمت معظم مناطق سوريا . وقمع نظام الرئيس بشار الأسد بالسلاح المظاهرات السلمية فسقط مئات الآلاف من الضحايا، وتشرد الملايين نزوحا في الداخل السوري ولجوءاً في مختلف بقاع العالم، وتحولت سوريا إلى أزمة دولية وساحة للصراع بين القوى الإقليمية والدولية.

**إرهاصات ما قبل الانطلاق**

لا يمكن النظر إلى الثورة السورية بمعزل عن الربيع العربي الذي انطلق بالثورة التونسية في 17 ديسمبر/كانون الأول 2010، تبعها سقوط النظامين المصري والليبي، مما مد الأفق أمام السوريين حول إمكانية إحداث تغيير سياسي حقيقي، ففي 17 فبراير/شباط 2011 أهان شرطي سوري مواطنا وضربه، فتجمع الناس في منطقة الحرية بقلب دمشق وانطلقت هتافات تؤيد الشاب مثل "الشعب السوري ما بينذل" و"حاميها حراميها"، إلا أن هذه الهتافات تحولت فيما بعد إلى "بالروح بالدم نفديك يا بشار" بعد قيام وزير الداخلية السوري بحل الأمر لمصلحة الشاب.

لكن أعقب هذه الحادثة اعتصام نظّمه ناشطو المجتمع المدني أمام السفارة الليبية تأييدا للثورة الليبية يوم 22 فبراير/شباط 2011، ورددوا فيها شعارات تطالب بالحرية مثل "يا حرية وينك وينك حكم معمر بينا وبينك"، وشعار "خاين يلي بيقتّل شعبو".

وفي مدينة درعا جنوب البلاد اعتقلت قوات الأمن السورية مجموعة من الأطفال من مدرسة الأربعين نهاية شهر فبراير/شباط 2011، على خلفية كتابتهم عبارات على سور مدرستهم مثل "الشعب يريد إسقاط النظام" و"إجاك الدور يا دكتور"، محاكاة للعبارات التي رفعها المتظاهرون في دول الربيع العربي.

واقتيد الأطفال إلى فرع الأمن السياسي في درعا وتعرضوا للتعذيب، وحين خرج أهالي درعا للمطالبة بمعرفة مصير أولادهم جاءهم الرد من رئيس فرع الأمن السياسي عاطف نجيب، قريب بشار الأسد، وطلب منهم العودة ونسيان أطفالهم وإنجاب أطفال آخرين. مما مهد لخروج مظاهرات شعبية لاحقا في درعا .

شرارة انطلاقة الثورة السورية

شهد تاريخ 15 مارس/آذار انطلاق الثورة السورية بأول مظاهرة نظمها ناشطو المجتمع المدني في سوق الحميدية وسط دمشق، حيث ردد المتظاهرين شعارات تنادي بالحرية منها "الله سورية حرية وبس"، فسارعت قوات الأمن إلى مهاجمة المظاهرة وفضها واعتقال عدد من الناشطين المشاركين فيها .

ودعت صفحات مؤيدة للثورة إلى مظاهرات حاشدة في المدن السورية يوم الجمعة 18 مارس/آذار 2011 تحت اسم "جمعة الكرامة" فتحركت عدة مدن سورية، منها دمشق وحمص وبانياس ودير الزور ودرعا، وكانت مظاهرة درعا حاشدة على خلفية طرد مسؤولي نظام الأسد الأهالي الذين طالبوا بالإفراج عن أطفالهم المعتقلين، وردت قوات النظام السوري بالرصاص الحي لتفريق المظاهرة، مما أدى إلى سقوط أول شهداء الثورة السورية، منهم حسام عياش ومحمود جوابرة.

تتالت المظاهرات بعد ذلك وانضمت المدن السورية والقرى إلى المظاهرات تباعا، وتحول تشييع الشهداء إلى مظاهرات حاشدة حملت طابع السلمية، وطالبت بالحرية والتغيير.

واجه النظام السوري المظاهرات جميعها بالقمع والرصاص الحي والاعتقالات والانتهاكات والاعتداءات على من خرج في المظاهرات وعلى أهالي المنطقة التي جرت فيها، كما نفذ عمليات مداهمة واعتقالات للناشطين السوريين والمتظاهرين السلميين، ونصب الحواجز في المدن وأطرافها والأرياف.

وأدى القمع الذي انتهجه النظام السوري في مواجهة المظاهرات السلمية إلى تحول شعاراتها من الحرية والمطالبة بالتغيير إلى الدعوة إلى إسقاط النظام ورفض حكم بشار الأسد .

## لجان التنسيق المحلية

نشأت التنسيقيات والمجالس المحلية في المحافظات والمدن السورية والأرياف مع انطلاق الثورة السورية، وهدفت إلى توحيد الجهود، ومتابعة الحراك الميداني والتخطيط له، وتنظيم الوضع العام على أرض الواقع، وتوسع دورها مع الوقت فانبثقت منها لجان إعلامية، وحقوقية وإغاثية وسياسية.

وعملت التنسيقيات والمجالس المحلية على توثيق الانتهاكات والتواصل مع الجهات الرسمية لإمدادها بأسماء المعتقلين والشهداء والانتهاكات التي تحدث في المنطقة.

وأصبحت التنسيقيات والمجالس المحلية هي التي تدير المجتمع في ظل الحصار والقصف الذي تعرضت له بعض المناطق، وهي المسؤولة عن الإغاثة، وإصدار تقارير عن الانتهاكات التي يمارسها النظام.

ولتوحيد جهود التنسيقيات أُنشئت الهيئة العامة للثورة السورية، وهي تحالف يضم 40 جماعة معارضة من التنسيقيات واتحادات التنسيقيات، وأُعلن عنها يوم 18 أغسطس/آب 2011، من خلال بيان أوضح أن هدف الهيئة هو بناء "دولة حرة ديمقراطية" من خلال توحيد الجهود على أرض الواقع وعلى جميع الأصعدة، والالتزام بتحقيق أهداف الثورة ومبادئها الأساسية.

## الانشقاقات وعسكرة الثورة

بدأت الانشقاقات في صفوف الجيش السوري النظامي منذ الشهر الثاني للثورة، إذ يعد المجند وليد القشعمي من الحرس الجمهوري في قيادة قاسيون من أوائل من انشقوا عن الجيش النظامي عبر تسجيل مصور بُثَّ على الإنترنت يوم 23 أبريل/نيسان 2011، أعلن فيه انشقاقه عن الجيش النظامي.

وأوضح أن السبب هو أن الضباط أمروهم بمواجهة مظاهرة سلمية وإطلاق النار على المتظاهرين العزل من نساء وأطفال ورجال باستخدام الذخيرة الحية، إلا أن وليد وبعض زملائه رفضوا ذلك وانضموا للمظاهرة رامين أسلحتهم ومحتمين بالمتظاهرين إلى أن هرّبوا إلى مكان آخر.

تتالت الانشقاقات بعد ذلك برتب مختلفة، ففي يوم 7 يونيو/حزيران 2011 انشق ضابط برتبة ملازم أول يدعى عبد الرزاق طلاس، وأوضح في تسجيل مصور أن سبب انشقاقه هو الممارسات غير الإنسانية واللاأخلاقية بحق المواطنين. وبعد يومين من الشهر نفسه أعلن المقدم حسين هرموش انشقاقه عن الجيش النظامي، وأوضح أن السبب هو قتل المدنيين العزل، وهرب إلى مدينة إدلب وبدأ بتأسيس "حركة الضباط الأحرار" داعيا من خلالها الضباط والجنود إلى الانشقاق والالتحاق به.

## تأسيس الجيش السوري الحر

أُسس الجيش السوري الحر بمبادرة من العقيد رياض الأسعد، أرفع الضباط المنشقين رتبة، على خلفية بيان أصدره يوم 3 أغسطس/آب 2011 دعا فيه الجنود المنشقين إلى تنظيم أنفسهم. وازدادت أعداد المنشقين والملتحقين بالجيش الحر مع مرور الوقت، وتوزع وجوده في مختلف المناطق الثائرة.

وهدف الجيش الحر إلى حماية الأهالي والمدنيين من سطوة النظام ومداهماته والاعتداءات على المتظاهرين، ثم تطور الأمر فيما بعد لتنفيذ عمليات ضد جيش النظام السوري واستهداف مقاره، كان أولها الهجوم الذي استهدف مقرا للمخابرات الجوية في حرستا على أطراف دمشق يوم 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2011.

وحمل مقاتلو الجيش السوري الحر في بداية انشقاقهم أسلحتهم التي كانت معهم، وغنموا بعض الأسلحة من العمليات العسكرية التي نفذوها، كما اشتروا أسلحة أخرى من "الشبيحة" (مليشيات موالية للنظام)، واختلفت مصادر تمويل الجيش الحر باختلاف كتائبه، فمُوَلت بعض الكتائب من جهات داخلية من تجار أثرياء ومؤيدين للجيش، ومُوّلت أخرى من جهات خارجية منها تنظيمات سياسية أو دول مختلفة بطريقة غير مباشرة. إلا أن التمويل لعب دورا مهما في التوجه الأيديولوجي والقرارات الأساسية في المعارك على الأرض، مما أدى إلى خسائر بشرية وخسائر في المناطق.

ومع نهايات عام 2011 كان الجيش السوري الحر يتوزع في مناطق مختلفة ويسيطر عليها، في كل من إدلب وريف حلب وريف حماة وحمص والقصير والغوطة وبعض مناطق درعا .

## ظهور جهات أخرى في القتال

وفي أكتوبر/تشرين الأول 2015 أُعلن عن تشكيل "قوات سوريا الديمقراطية"، أو كما تعرف باسم "قسد" وعرّفت عن نفسها بأنها "قوة عسكرية وطنية موحدة لكل السوريين تجمع العرب والأكراد والسريان وكافة المكونات الأخرى"، وتتألف من مجموعة من الفصائل المسلحة معظمها تابع للأكراد . وتتمركز سيطرتها على مناطق شمال شرق سورية.

وظهرت خلال السنوات الـ12 جهات قتالية أخرى مثل تنظيم الدولة الإسلامية، وجبهة النصرة وغيرهما ، إلا أن هذه الجهات انحلت، وبعضها انتهى والآخر انضوى تحت جهات قتالية أخرى.

## حصار المدن والقصف

حين عجز النظام عن إيقاف المظاهرات وفقد قدرته في السيطرة على المدن والبلدات الثائرة حاصر المدن وانتهج سياسة الأرض المحروقة، فقطع الإمدادات الغذائية والطبية عن السكان، وتعمد إحداث مجاعات، وتزامن ذلك مع قصف مستمر بالمدفعية والرشاشات الثقيلة والطيران على المدن المحاصرة مستهدفا المباني السكنية والبيوت، مما أدى إلى حدوث مجازر وسقوط الكثير من الشهداء والجرحى والإصابات، وعجزت المستشفيات الميدانية عن تدارك الوضع لا سيما مع قطع الطرق والمساعدات الطبية.

ومع استمرار الحصار لجأ النظام إلى محاولات اقتحام للمدن والسيطرة على أحياء فيها ، وكلما اقتحم حيا أحدث فيه مجزرة، ودافع الجيش الحر في الدفاع عن المدن التي حوصرت وقاتل على جبهاتها إلى أن اضطر إلى الانسحاب أو

الاستسلام وإحداث هدنة مع النظام، نتيجة لوحشية القصف وغالبا ما كانت تنتهي الأمور بترحيل كل من في المدينة أو القرية إلى إدلب، أو السماح لهم بالبقاء ضمن شروط النظام، مع شرط خروج المقاتلين وتسليم أسلحتهم.

وقد تكرر هذا المشهد مع مدن سورية كثيرة منها أحياء في مدينة حمص كبابا عمرو والخالدية والقصير، وحلب والغوطة وكثير من المدن والبلدات التي استطاع النظام استعادتها والسيطرة عليها من خلال سياسة الأرض المحروقة.

القصف الجوي والسلاح الكيماوي

استخدم النظام الأسلحة الثقيلة على اختلاف أنواعها من أسلحة حارقة وذخائر عنقودية وصواريخ سكود وقذائف هاون، وبعد سنة من الثورة بدأ بالقصف الجوي من خلال البراميل المتفجرة التي تحشى بمواد معدنية ومواد متفجرة ترمى من المروحيات، وسجلّت أول عملية قصف في مارس/آذار 2012، ثم استخدم الطيران الحربي في يوليو/تموز 2012، واستهدفت المنشآت المدنية كافة من منازل وبيوت ومدارس ومؤسسات مجتمع مدني ومستشفيات ونقاط طبية ومستشفيات ميدانية وأسواق شعبية وتجمعات مدنية وغيرها، وأحدثت فيها مجازر كبيرة.

كما استخدم النظام الأسلحة الكيماوية باختلاف أنواعها، إذ وثقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان تنفيذ النظام السوري 222 هجوما كيميائيا في مختلف أنحاء سوريا، وتسببت هذه الهجمات في مقتل 1510 أشخاص وإصابة ما يزيد على 11 ألفا آخرين.

وتعد مجزرة الغوطة أشهر المجازر الكيماوية التي نفذها النظام، والتي حدثت يوم الأربعاء 21 أغسطس/آب 2013 واستهدفت مناطق من الغوطة في ريف دمشق، إذ قصفها النظام السوري براجمات صواريخ محملة برؤوس كيماوي أدت إلى سقوط مئات الشهداء وإصابة الآلاف.

التمثيل السياسي للثورة السورية

مع نهاية عام 2011 تشكل المجلس الوطني السوري، ليكون الممثل السياسي للثورة ويجمع الأطياف السياسية السورية كافة، وترأسه حينها برهان غليون وتكون من 310 أعضاء اختيروا بالتوافق بين المجموعات المعارضة المشاركة وهي: "الحراك الثوري" و"كتلة المستقلين الليبراليين" و"إعلان دمشق" و"المنظمة الآشورية" و"الإخوان المسلمون وحلفاؤهم" و"ربيع دمشق" و"الكتلة الوطنية الكردية" و"الكتلة الوطنية"، إلى جانب عدد من الشخصيات الوطنية المستقلة.

وهدف المجلس إلى خدمة الحراك الوطني وتحقيق أهداف الثورة وتشكيل حكومة انتقالية، لكنه واجه مجموعة من الانتقادات وحدثت فيه تصادمات لعدم قدرته على تمثيل أطياف المعارضة كلها، فسعى إلى توسيع عضويته بضم كتل سياسية وثورية جديدة في اجتماع أقيم في مدينة الدوحة في نوفمبر/تشرين الثاني 2012، نجم عنه تشكيل "الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة"، وانضم تحته المجلس الوطني ليشكل 60% من حجم الائتلاف، وتكون الائتلاف من ممثلين عن معظم أعضاء قوى الثورة والمعارضة.

شهدت الثورة السورية تدخل أطراف خارجية لمساندة النظام في القتال ضد الثوار، وأسهمت في بقاء النظام والإحالة دون سقوطه، ومن هذه الأطراف:

المليشيا الطائفية

وثقت عدة تقارير حقوقية وصحفية مشاركة مليشيات طائفية في دعم النظام ومساندته عسكريا منذ بدء الثورة السورية، وتحدثت التقارير عن وجود ما لا يقل عن 35 ألف مقاتل ينتمي أغلبهم إلى العراق ولبنان وإيران وأفغانستان يقاتلون إلى جانب النظام السوري، وأسهم وجودهم في استعادة النظام لمساحات كبيرة من يد الثوار لا سيما في ريف دمشق وريف حمص وريف حلب.

كما سجلت مجازر عديدة قامت بها هذه المليشيات وانتهاكات حقوقية كبيرة من خلال الأساليب الوحشية التي تنتهجها في عمليات المداهمة والاعتقال والقتل وذبح المدنيين والتشنيع بهم.

وقد أعلنت بعض هذه الحركات بشكل واضح مشاركتها مع النظام مثل إعلان الأمين العام لحزب الله مشاركة جنوده في معركة القصير التي حدثت في أبريل/نيسان 2013، وقتالهم جنبا إلى جنب مع جنود النظام ودفاعهم عنه.

إيران

تعد إيران حليفا سياسيا وعسكريا للنظام السوري من قبل الثورة، إلا أنها أسهمت في إطالة عمر النظام ومنع سقوطه من خلال دعمه على عدة مستويات. فعلى الصعيد الاقتصادي وصلت الديون الإيرانية على النظام السوري ما يزيد على 35 مليار دولار. كما عملت إيران على إمداد النظام السوري بالأسلحة والمقاتلين، وقد ظهر التدخل الإيراني في

سورية بشكل علني وواضح في مختلف المجالات، لا سيما عسكريا، إذ شكلت معركة القصير 2013 نقطة تحول رئيسية في دور إيران العسكري، فلم يعد دورها محصورا بالدعم والإمداد وإنما تحول إلى تولي بعض ضباط الحرس الثوري قيادة المعارك والعمليات.

بالإضافة إلى وجود قواعد عسكرية ومخازن أسلحة ومصانع صواريخ للحرس الثوري وقاعدة دفاع جوي ومقرات للميلشيات في مناطق مختلفة من المدن السورية والقرى. ومدت إيران نفوذها في سوريا من خلال المؤسسات الثقافية والدعوية والخيرية وتأسيس جامعات ومعاهد ومراكز ثقافية، وتجمعات دعوية لنشر المذهب الشيعي مثل المجلس الإسلامي الجعفري الأعلى في سوريا والهيئة العلمائية الشيعية.

ويتهم نشطاء الثورة السورية إيران بالسعي نحو التغيير الديمغرافي في المنطقة من خلال تغيير التركيبة السكانية وترسيخ الوجود الإيراني، لا سيما في منطقة السيدة زينب والقلمون وحمص وريفها الغربي وتحديدا القصير وحلب والزهراء ونبل ودير الزور وريفها الشرقي ومدينة البوكمال.

روسيا

دعمت روسيا النظام السوري سياسيا ودبلوماسيا منذ بدء الثورة السورية على مدار 5 سنوات، ثم تطور الأمر لتشارك معه عسكريا فبدأت سفن الإمدادات العسكرية وطائرات النقل العملاقة تصل إلى الموانئ والمطارات السورية في شهر يونيو/حزيران 2015، وأُنشئت قاعدة حميميم جنوب اللاذقية بـ25 كيلومترا، وسُجل أول هجوم للطيران الروسي يوم 30 سبتمبر/أيلول 2015 من خلال استهداف مواقع للجيش السوري الحر حول حمص.

وتدّعي روسيا شرعية تدخلها من خلال أمرين، الأول أن التدخل كان "بدعوة من نظام شرعي" وهو النظام السوري، والثاني تستند فيه إلى قرار مجلس الأمن رقم 2249، والذي يتيح للأعضاء "اتخاذ التدابير اللازمة لمنع وقمع الأعمال الإرهابية" على الأراضي الواقعة تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا والعراق.

إلا أن المنظمات الحقوقية ترد على تدخل روسيا بأن النظام السوري هو "نظام غير شرعي" لاستيلائه على الحكم بالقوة والإرهاب والتهديد، وأنها انتهكت القانون الدولي بارتكاب جرائم إنسانية وجرائم حرب. وقد تسببت القوات الروسية بمجازر متعددة أدت إلى مقتل ما يزيد على 7 آلاف شخص بينهم ما يزيد على 2000 طفل، واستهداف أكثر من 1243 مركزا حيويا من مدارس ومنشآت طبية وأسواق وغيرها حتى نهاية عام 2022.

العقوبات الدولية

سنت الولايات المتحدة الأميركية قانون عقوبات على النظام السوري عرف باسم "قانون قيصر"، وقيصر هو مجند في الجيش السوري كانت مهمته التقاط صور في الأماكن التي جرت فيها جرائم مدنية، ومع بداية الثورة السورية أصبحت مهمته التقاط صور لجثث المدنيين الذين قتلوا تحت التعذيب على يد النظام السوري، ثم انشق عام 2013، وبحوزته 55 ألف صورة لمعتقلين وقتلى داخل معتقلات النظام السوري، وقد هرب بالتعاون مع منظمات حقوقية دولية.

وكان نواب أميركيون قد قدّموا مشروع قانون عام 2016 يهدف إلى إيقاف قتل الشعب السوري بالجملة والوصول لتسوية مع النظام ومحاسبة منتهكي حقوق الإنسان.

ثم بعد المناقشات أقر الكونغرس بمجلسيه النواب والشيوخ القانون في ديسمبر/كانون الأول 2019 ووقع عليه الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب كجزء من قانون ميزانية الدفاع لعام 2020، ودخل حيز التنفيذ في يونيو/حزيران 2020. وحمل التشريع اسم "قانون قيصر" نسبة للمصور، ويهدف إلى وقف القتل بحق الشعب السوري.

ويفرض قانون قيصر عقوبات على:

الأجانب المتورطين في معاملات مالية مع مؤسسات تابعة للحكومة السورية.

الجهات التي تقدم الدعم العسكري للحكومة السورية.

الميليشيا التي تحارب مع النظام السوري من أي دولة أخرى.

الجهات التي تقدم الدعم المالي أو التقني أو المعلوماتي للحكومة السورية.

الجهات التي تساعد على توسعة الإنتاج المحلي من الغاز أو النفط ومشتقاته.

الجهات التي تقدم الطائرات أو الخدمات المرتبطة بالطيران لأهداف عسكرية.

المسؤولين عن جرائم الحرب والانتهاكات ضد المدنيين، ومنهم: الرئيس السوري ورئيس الوزراء ونائب الرئيس السوري وقادة القوات المسلحة البرية والبحرية والاستخبارات وقادة الأفرع الأمنية ومسؤولين في وزارة الداخلية والمخابرات والشرطة وقادة الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري والمسؤولين عن السجون.

وقد روج النظام لمقولة مفادها أن القانون يتسبب في قطع المساعدات الإنسانية، إلا أنه لا علاقة لقانون قيصر بذلك، فمنظمة الأمم المتحدة ومنظمات إغاثية أخرى ما زالت تقدم الدعم للمتضررين في مناطق النظام.

ضحايا الثورة السورية حتى العام 2023

وثقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان مقتل 230224 مدنيا بينهم 15272 قتلوا تحت التعذيب، بالإضافة إلى اختفاء واعتقال 154816 شخصا، وتشريد قرابة 14 مليون سوري.

كما وثقت وجود ما لا يقل عن 874 اعتداء على منشأة طبية، و1416 اعتداء على مكان عبادة، و1611 اعتداء على مدرسة، بالإضافة إلى استباحة المنشآت الحيوية وتحويلها لمراكز اعتقال ونقاط عسكرية، وتدمير مناطق كبيرة من سوريا في محافظات متعددة.

## عود على بدء

ان هذا السرد التاريخي الموسع عن تاريخ الطائفية في سوريا ورموزها وحروبها يثبت مع الوقائع والأحداث الحاصلة صحة مقولتنا بأن الظاهرة التعصبية وخاصة الطائفية تعد من المكونات الأساسية للذهنية السورية المعاصرة وهي حقيقة اذا تجاهلناها فهذا يعني الفشل الكامل في إيجاد حلول حقيقية لمأساة الشعب السوري كما يعد هذا التجاهل سد كبير يعيقنا في الوصول الى دولة مدنية تقوم على مبادئ جديدة يحكمها القانون والديمقراطية ومبدأ العدل والمساواة وتقوم على بناء وطن يتمتع بصفات الوطن المعروفة وبالتالي بناء مواطن يشعر بكرامته ووطنيته .

# ثانيا

## التعصب العرقي

التعصب العرقي ( القومي )

العنصرية العنصرية، والتمييز العنصري، وكره الأجانب، وما يتصل بذلك من تعصب تحدث على أساس العنصر أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو العرقي، وأن الضحايا يمكن أن يعانوا من أشكال متعددة أو متفاقمة من التمييز استناداً إلى أسس أخرى ذات صلة مثل الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره أو الملكية أو المولد أو أي وضع أخر.

أولئك الذين ينفون أن يكون هناك مثل هذه الصفات الموروثة (صفات اجتماعية وثقافية غير شخصية) يعتبرون أي فرق في المعاملة بين الناس على أساس وجود فروق من هذا النوع تمييزاً عنصرياً . بعض الذين يقولون بوجود مثل هذه الفروق الموروثة يقولون أيضاً بأن هناك جماعات أو أعراق أدنى منزلة من جماعات أو أعراق أخرى. وفي حالة المؤسسة العنصرية، أو العنصرية المنهجية، فإن مجموعات معينة قد تُحرَم حقوقاً و/أو امتيازات، أو تؤثر في المعاملة على حساب أخرى.

بالرغم من أن التمييز العنصري يستند في كثير من الأحوال إلى فروق جسمانية بين المجموعات المختلفة، ولكن قد يتم التمييز عنصرياً ضد أي شخص على أُسس إثنية أو ثقافية، دون أن يكون لديه صفات جسمانية. كما قد تتخذ العنصرية شكلاً أكثر تعقيداً من خلال العنصرية الخفية التي تظهر بصورة غير واعية لدى الأشخاص الذين يُعلنون التزامهم بقيم التسامح والمساواة.

وبحسب إعلان الأمم المتحدة فإنه لا فرق بين التمييز العنصري والتمييز الإثني أو العرقي.

هناك بعض الدلائل على أن تعريف العنصرية تَغير عبر الزمن، وأن التعريفات الأولى للعنصرية اشتملت على اعتقاد بسيط بأن البشر مقسّمون إلى أعراق منفصلة. يرفض جُل علماء الأحياء وإخصائيوا علم الإنسان وعلم الاجتماع هذا التقسيم مُفضِلين تقسيمات أخرى أكثر تحديداً و/أو خاضعة لمعايير يمكن إثباتها بالتجربة، مثل التقسيم الجغرافي الإثنية أو ماضي فيه قَدر وافر من زيجات الأقارب.

أصل الكلمة وتعريفها واستخدامها

في القرن التاسع عشر، اعتقد العديد من العلماء بأن البشر يمكن تقسيمهم إلى أعراق. المصطلح «عنصرية» هو اسم يصف حالة كون شخص ما عنصريًا، أي اعتقاد الشخص بأنه يمكن أو يجب تصنيف البشر إلى أعراق ذات قدرات وميول مختلفة، مما يُحفّز بدوره الإيديولوجيات السياسية التي تهدف إلى توزيع الحقوق والامتيازات على أساس الفئات العرقية حيث يتم تميز عرق بحقوق وامتيازات أكثر من الآخر. قد يكون المصطلح «عنصري» صفة أو اسم، والصفة هنا تستخدم لتصف الشخص الذي يحمل تلك المعتقدات. أما أصل كلمة «عرق» فهو غير واضح. اتفق علماء اللغة بشكل عام على أن هذا المصطلح جاء اإلي اللغة الإنجليزية من اللغة الفرنسية الوسطى والتي كان يتحدثها الفرنسيون في القرن الرابع عشر وحتى القرن السابع عشر، لكن لا يوجد اتفاق عام مماثل حول كيفية وصوله إلى اللغات المنحدرة من اللاتينية. ولكن ظهر مقترح حديث ينص على أنه مشتق من الكلمة العربية رأس (ra's)، والتي تعني «رأس أو بداية أو أصل»، أو من الكلمة العبرية روش (rosh) التي لها نفس المعنى. اعتقد المؤسسون الأوائل لنظريات العرق بأن بعض الأجناس أدنى من غيرها، وبالتالي اعتقدوا أن المعاملة التفاضلية للأجناس لها ما يبررها تمامًا. بُنيت هذه النظريات المبكرة علي فرضيات البحث العلمي الزائفة؛ وتُعرّف المساعي الجماعية لتحديد

وتشكيل فرضيات حول الاختلافات العرقية بشكل كافٍ بالعنصرية العلمية، ومع ذلك اعتبر هذا اللفظ مغلوط، بسبب نقص الأدلة العلمية الفعلية التي تدعم هذة الادعاءات.

حالياً، يرفض معظم علماء الأحياء والأنثروبولوجيا والاجتماع تصنيف الأجناس طبقًا لمعايير محدّدة و/أو معايير تجريبيّة مثل الجغرافيا أو العرق أو تاريخ زواج الأقارب. حتى الآن، هناك القليل من الأدلة في أبحاث الجينوم البشري التي تشير إلى أنه يمكن تعريف العرق بطريقة صحيحة لتحديد التصنيف الجيني للبشر.

وكما يوضح لنا التاريخ فإن الاستخدام الشائع لكلمة عنصرية حديث نسبيًا. حيث انتشرت الكلمة في العالم الغربي في ثلاثينيات القرن الماضي، عندما تم استخدامها لوصف الأنتمائات الاجتماعية والسياسية للنازية، التي تعاملت مع «العرق» علي أنه وحدة سياسية محددة بشكل طبيعي. من المتفق عليه عمومًا أن العنصرية كانت موجودة قبل استخدام هذا المصطلح، ولكن لا يوجد اتفاق واسع على تعريف واحد لما يوصف العنصرية وما لا يوصف بالعنصرية. اليوم، يفضل بعض علماء العنصرية استخدام مفهوم العنصرية في التعددية العنصرية، من أجل التأكيد على العديد من الأشكال المختلفة التي لا تندرج بسهولة تحت تعريف واحد. كما يجادلون بأن أشكالًا مختلفة من العنصرية قد ميزت فترات تاريخية ومناطق جغرافية مختلفة. يلخص جارنر التعاريف المختلفة الموجودة للعنصرية ويحدد ثلاثة عناصر مشتركة واردة في تلك التعريفات للعنصرية. العنصر الأول هو العلاقة التاريخية الهرمية القوية بين مجموعات البشر؛ والعنصر الثاني هو مجموعة من الأفكار الأيديولوجية حول الاختلافات العرقية؛، والعنصر الثالث هو الممارسات والأفعال التمييزية.

القانون

على الرغم من أن العديد من البلدان حول العالم قد أقرت قوانين تتعلق بالعرق والتمييز، إلا أن أول قانون دولي هام لحقوق الإنسان طورته الأمم المتحدة كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (UDHR) الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام 1948م. يقر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بأنه لكي يعامل الناس بكرامة، فإنهم يحتاجون إلى حقوق اقتصادية وحقوق اجتماعية والتي من ضمنها التعليم والحق في المشاركة الثقافية والسياسية والحرية المدنية. وينص كذلك على أن لكل فرد الحق في هذه الحقوق «دون تمييز من أي نوع كالعرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره أو الأصل القومي أو الاجتماعي أو الملكية أو المولد أو أي وضع آخر».

لا تُعرّف الأمم المتحدة «العنصرية». ومع ذلك، فإنها تُعرف «التمييز العنصري». وذلك وفقًا لاتفاقية الأمم المتحدة الدولية لعام 1965م بشأن القضاء على جميع أشكال التمييز العنصري.

يقصد بتعبير «التمييز العنصري» أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم علي أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الإثني ويستهدف أو يسُتتبع بتعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها، علي قدم المساواة، في المجال السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو في أي مجال آخر من مجالات الحياة العامة.

في إعلان منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) لعام 1978م بشأن العرق والتحيز العنصري (المادة 1)، تنص الأمم المتحدة على أن «جميع البشر ينتمون إلى نوع واحد وينحدرون من سلالة مشتركة. متساوون في الكرامة والحقوق ويشكلون جميعًا جزءًا لا يتجزأ من الإنسانية».

لا يميز تعريف الأمم المتحدة للتمييز العنصري بين التمييز على أساس العرق والإثنية، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن التمييز بين الاثنين كان محل نقاش بين الأكاديميين، بما في ذلك علماء الأنثروبولوجيا . وبالمثل، في القانون البريطاني، تعني عبارة «المجموعة العرقية» أي مجموعة من الأشخاص يتم تحديدهم بالرجوع إلى عرقهم أو لونهم أو جنسيتهم (بما في ذلك الجنسية) أو أصلهم العرقي أو القومي.

في النرويج، حُذفت كلمة «العرق» من القوانين الوطنية المتعلقة بالتمييز لأن استخدام هذة الكلمة كان يعتبر غير أخلاقي ومسبب للمشاكل. يحظر قانون مناهضة التمييز النرويجي التمييز على أساس العرق والأصل القومي والنسب ولون البشرة.

## العلوم الاجتماعية والسلوكية

### المقالة الرئيسة: علم اجتماع العلاقات الإثنية والعرقية

عرف علماء الاجتماع «العرق» بالبنية الإجتماعية. هذا يعني أنه على الرغم من أن مفاهيم العرق والعنصرية تستند إلى خصائص بيولوجية يمكن ملاحظتها، فإن أي استنتاجات مستخلصة حول العرق على أساس تلك الملاحظات تتأثر بشدة بالإيديولوجيات الثقافية. العنصرية كأيديولوجية موجودة في المجتمع على المستويين الفردي والمؤسسي.

في حين أن الكثير من الأبحاث التي أُجريت خلال نصف القرن الماضي أو نحو ذلك قد ركزت على «العنصرية البيضاء» في العالم الغربي، يمكن العثور في الروايات التاريخية على الممارسات الاجتماعية القائمة على أساس التميز بين الأعراق في جميع أنحاء العالم. وبذلك يمكن تعريف العنصرية بشكل مفصل لتشمل التحيزات الفردية والجماعية

وأعمال التمييز التي ينتج عنها مزايا مادية وثقافية تُمنح للأغلبية أو لمجموعة اجتماعية مهيمنة. فنجد أن تلك العنصرية البيضاء المزعومة تركز على المجتمعات التي يشكل فيها السكان البيض الأغلبية أو المجموعة الاجتماعية المهيمنة. ذكرت الدراسات التي أجريت على هذه المجتمعات ذات الأغلبية البيضاء أنه يُطلق على على كل أنواع المزايا المادية والثقافية عادةً اسم الامتياز الأبيض.

الدراسات التي أجريت على العرق والعلاقات بين الأعراق هي من أبرز المجالات في كلاً من علمي الاجتماع والاقتصاد. يركز الكثير من الأدب الاجتماعي على العنصرية البيضاء. كانت مؤلفات العالم الاجتماعي دبليو إي بي دو بوا أول أمريكي من أصل أفريقي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد من أوائل الأعمال الاجتماعية حول العنصرية. كتب دو بوا "إن مشكلة القرن العشرين هي مشكلة خط اللون." في عام 1993م عرف ويلمان العنصرية على أنها من المعتقدات المسموح بها ثقافيًا والتي بغض النظر عن النوايا المعنية، فإنها تدافع عن المزايا التي يتمتع بها البيض بسبب أن لأقليات العرقية كانت تشغل الوظائف التبعية". في كل من علم الاجتماع والاقتصاد غالبًا ما تُعرف نتائج الأعمال العنصرية بعدم المساواة في الدخل والثروة وصافي الثروة وكيفية الوصول إلى الموارد الثقافية الأخرى (مثل التعليم) بين جميع الطوائف العرقية.

في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي غالبًا ما تُستخدم الهوية العرقية واكتساب تلك الهوية كعامل في دراسات العنصرية. تؤثر الأيديولوجيات العنصرية والهوية العرقية على تصور الأفراد للعرق والتمييز. في عام 1999م عرف كلاً من كازناف ومادين العنصرية على أنها «ظام شديد التنظيم من الامتياز الجماعي القائم على 'العرق' الذي يعمل على جميع مستويات المجتمع ومتماسكًا بأيديولوجية متطورة من سيادة اللون أوالعرق. ويبدو أن المركزية العرقية (مدى

اعتراف الثقافة بالهوية العرقية للأفراد) تؤثر على درجة التمييز التي يراها الشباب الأمريكي من أصل أفريقي في حين أن الأيديولوجية العنصرية قد تعوق الآثار العاطفية الضارة لذلك التمييز». وجد سيلرز وشيلتون في عام 2003م أن العلاقة بين التمييز العنصري والاضطراب العاطفي كانت معتدلة بسبب الأيديولوجية العرقية والمعتقدات الاجتماعية.

يذهب بعض علماء الاجتماع أيضًا ولا سيما في الغرب حيث كثيراً ما تُعاقب العنصرية سلباً في المجتمع إلى أن العنصرية تغيرت من كونها تعبيراً صارخاً إلى تعبير أكثر تبطنًا عن التحيز العنصري. الأشكال الأحدث للعنصرية «الأكثر خفية والأقل قابلية للاكتشاف» والتي يمكن اعتبارها جزءًا لا يتجزأ من العمليات والهياكل الاجتماعية هي أكثر صعوبة في الاستكشاف وكذلك التحدي. بينما ظهر أنه في حين أن العنصرية العلنية أو الصريحة في العديد من البلدان أصبحت من المحرمات بشكل متزايد، حتى بين أولئك الذين يظهرون مواقف صريحة للمساواة، لا تزال العنصرية الضمنية أو المكروهة قائمة دون وعي.

تمت دراسة هذة العملية دراسة مستفيضة في علم النفس الاجتماعي بوصفها رابطات ضمنية ومواقف ضمنية، وهي عنصر من عناصر الإدراك الضمني. المواقف الضمنية هي التقييمات التي تحدث دون وعي واع بموضوع الموقف أو بالنفس. هذه التقييمات بشكل عام إما أن تكون مواتية أو غير مواتية، وهي تأتي من التأثيرات المختلفة للتجارب الفردية. لا تُحدد المواقف الضمنية بوعي (أو بشكل غير دقيق) من آثار التجارب السابقة التي ترتبط بشكل غير مباشر بالمشاعر أو الأفكار أو الإجراءات المواتية أو غير المواتية تجاه الأشياء الاجتماعية. هذه المشاعر أو الأفكار أو الأفعال لها تأثير على سلوك الفرد الذي قد لا يكون على علم به.

لذلك، يمكن أن تؤثر العنصرية اللا واعية على معالجتنا البصرية وكيف تتعمل عقولنا عندما نتعرض بشكل لا شعوري لوجوه بألوان مختلفة. عند التفكير في الجريمة على سبيل المثال، ترى عالمة النفس الاجتماعي جينيفر إل إبرهارت من جامعة ستانفورد أن «السواد مرتبط جدًا بالجريمة، فأنت على استعداد لاختيار هدف هذة الجريمة.» ويمكن أن تتسبب عنصرية اللاوعي في سلوكنا تجاه الآخرين أو حتى تجاه الأشياء." وبالتالي يمكن أن تنشأ الأفكار والأفعال العنصرية من قوالب نمطية ومخاوف لسنا على علم بها . على سبيل المثال حذر العلماء والناشطون من أن استخدام الصورة النمطية "الأمير النيجيري«للإشارة إلى المحتالين الذين يطلبون رسومًا مسبقة هو أمر عنصري، أي اختزال صورة نيجيريا إلى دولة من المحتالين والأمراء المحتالين، وهذا ما يفعله ولا يزالون يفعلونه بعض الأشخاص عبر الإنترنت، هو الصورة النمطية التي يجب استبعادها».

التعصب العرقي في العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا، وكذلك في الخطاب العامي الإنجليزي يعني تطبيق ثقافته أو عرقه كإطار مرجعي؛ من أجل الحكم على الثقافات والممارسات والسلوكيات والمعتقدات والأشخاص الآخرين بدلاً من استخدام معايير الثقافة الخاصة المعنية.

لذلك نظراً لأن هذا الحكم غالباً ما يكون سلبياً يستخدم بعض الأشخاص المصطلح أيضاً؛ للإشارة إلى الاعتقاد بأن ثقافة المرء متفوقة أو صحيحة أو طبيعية أكثر من جميع الآخرين، خاصة فيما يتعلق بالتمييزات التي تحدد الهوية الثقافية لكل عرق مثل: اللغة والسلوك والعادات والدين ففي الاستخدام الشائع، يمكن أن تعني أيضاً أي حكم متحيز ثقافياً على سبيل المثال: يمكن رؤية التمركز العرقي في الصور المشتركة للجنوب العالمي والشمال العالمي.

لمحة عن التعصب العرقي:

ترتبط النزعة العرقية أحياناً بالعنصرية أو التنميط أو التمييز أو كره الأجانب، ومع ذلك فإن مصطلح "المركزية العرقية" لا يتضمن بالضرورة وجهة نظر سلبية عن عرق الآخرين أو يشير إلى دلالة سلبية، حيث النسبية الثقافية هي نقيض المركزية العرقية والتي تعني فهم ثقافة مختلفة بشروطها الخاصة دون أحكام ذاتية.

لقد تم تطبيق مصطلح "المركزية العرقية" لأول مرة في العلوم الاجتماعية من قبل عالم الاجتماع الأمريكي ويليام ج. سمنر ففي كتابه الصادر سنة 1906 بعنوان (Folkways) يصف سومنر المركزية العرقية بأنها "الاسم التقني لوجهة نظر الأشياء التي تكون فيها مجموعة الفرد هي مركز كل شيء، ويتم قياس كل الآخرين وتصنيفهم بالرجوع إليها"، كما وصف المركزية العرقية بأنها تؤدي في كثير من الأحيان إلى الكبرياء والغرور والإيمان بتفوق المجموعة وازدراء الغرباء.

مع مرور الوقت تطورت المركزية العرقية جنباً إلى جنب مع تطور التفاهمات الاجتماعية من قبل أشخاص مثل المنظر الاجتماعي ثيودور دبليو أدورن، في شخصية أدورنو الاستبدادية، حيث وضع هو وزملاؤه في مدرسة فرانكفورت تعريفاً أوسع للمصطلح كنتيجة لـ "تمايز مجموعة داخل المجموعة" مشيراً إلى أن المركزية العرقية "تجمع بين الموقف الإيجابي تجاه المجموعة العرقية / الثقافية ( في المجموعة) مع موقف سلبي تجاه المجموعة العرقية / الثقافية الأخرى (المجموعة الخارجية) "، حيث كل من هذه المواقف المتجاورة هي أيضاً نتيجة لعملية تعرف باسم التعريف الاجتماعي والهوية الاجتماعية المضادة.

أصل التعصب العرقي:

مصطلح المركزية العرقية مشتق من كلمتين يونانيتين: "عرقية" وتعني الأمة و"كينترون" وتعني المركز، ويعتقد العلماء أن هذا المصطلح صاغه عالم الاجتماع البولندي لودفيج جومبلوفيتش في القرن التاسع عشر، على الرغم من أن النظريات البديلة تشير إلى أنه شاع المفهوم فقط بدلاً من اختراعه.

لقد رأى المركزية العرقية كظاهرة مشابهة لأوهام مركزية الأرض ومركزية الإنسان، حيث عرف المركزية العرقية بأنها "الأسباب التي بموجبها تعتقد كل مجموعة من الناس أنها احتلت دائماً أعلى نقطة ليس فقط بين الشعوب والأمم المعاصرة، ولكن أيضاً فيما يتعلق بها لجميع شعوب الماضي التاريخي".

لاحقاً في القرن العشرين اقترح عالم الاجتماع الأمريكي ويليام ج. سمنر تعريفين مختلفين في كتابه سنة 1906 فولكوايز، حيث ذكر سمنر أن "المركزية العرقية هي الاسم التقني لوجهة النظر هذه للأشياء التي تكون فيها مجموعة الفرد هي مركز كل شيء، ويتم قياس كل الآخرين وتصنيفهم بالرجوع إليها"، حيث كتب أن "مشاعر التماسك والرفقة الداخلية والتفاني في المجموعة الداخلية والتي تحمل في طياتها شعوراً بالتفوق على أي مجموعة خارجية والاستعداد للدفاع عن مصالح المجموعة ضد المجموعة الخارجية ويعرف تقنياً باسم المركزية العرقية".

وفقاً لبوريس بيزوميك من سوء الفهم الشائع أن سومنر هو من ابتدع مصطلح المركزية العرقية، مشيراً إلى أنه في الواقع أدخل التعصب العرقي في التيار الرئيسي للأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية وعلم النفس من خلال منشوراته الإنجليزية.

أسباب التعصب العرقي:

يُعتقد أن المركزية العرقية هي سلوك مكتسب جزء لا يتجزأ من مجموعة متنوعة من المعتقدات والقيم للفرد أو المجموعة.

بسبب الانثقاف يتمتع الأفراد في المجموعات بإحساس أعمق بالولاء، ومن المرجح أن يتبعوا القواعد ويطوروا علاقات مع الأعضاء المرتبطين، فيما يتعلق بالثقافة يقال أن المركزية العرقية هي مشكلة عابرة للأجيال، حيث يمكن فرض الصور النمطية ووجهات النظر المماثلة وتشجيعها مع تقدم الوقت، وعلى الرغم من أن الولاء يمكن أن يزيد قبول الهامور بشكل أفضل إلا أن التفاعلات المحدودة مع الثقافات الأخرى يمكن أن تمنع الأفراد من فهم الاختلافات الثقافية وتقديرها مما يؤدي إلى مزيد من التمركز العرقي.

يقترح نهج الهوية الاجتماعية أن المعتقدات العرقية ناتجة عن تعريف قوي بثقافة الفرد التي تخلق بشكل مباشر نظرة إيجابية لتلك الثقافة، حيث وضع هنري تاجفيل وجون سي تيرنر نظرياً أنه من أجل الحفاظ على هذه النظرة الإيجابية يقوم الناس بإجراء مقارنات اجتماعية تلقي الضوء على المجموعات الثقافية المتنافسة في ضوء غير موات.

ذم التعصب العرقي أو القومي في الاسلام

عد الإسلام العصبية التي تقوم على أساس التفاخر بالأنساب والأحساب ويدخل في طيها نازع الكبر والتفاضل، جاهلية وضلالة ومن الخصال المذمومة التي نهى عنها وأمر بإبطالها

قال تعالى : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) الحجرات :13 . قال القرطبي في تفسير هذه الآية : " زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى" (الجامع لأحكام القرآن : 16/ 341 ) .

أما الأحاديث النبوية الناهية عن العصبية القبلية الجاهلية، فمنها على سبيل المثال ، حينما حدث شجار بين أنصاري ومهاجر، وتنادى بعضهم: يا للأنصار ! ! ، وتنادى آخرون: يا للمهاجرين ! ! ، ذم النبي(صلى الله عليه وسلم) ذلك الفعل، وجعله من دعوى الجاهلية؛ قائلاً ومحذراً من العصبية: " دعوها فإنها منتنة" (صحيح البخاري4/ 1998،

لأن مقتضاه أن ينصر كل واحد منهما أخاه، ولو كان مبطلا ، وإنما شأن المؤمن أن يقف مع الحق وينصر المظلوم برفع الظلم عنه، وينصر الظالم بمنعه عن الظلم لا يفرق بين من كان من قومه أو من غير قومه فالكل يشملهم وصف الإيمان

وقال صلى الله عليه وسلم :" يا أيها الناس ألاّ إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألاّ لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله(صلى الله عليه وسلم) . . .الحديث" (مسند الإمام أحمد38/474، رقم(23489) .

الاختلاف والتنوع وطرق والتعايش السلمي

وضع القران القواعد الأساسية للتعامل مع غير المسلمين،آمرا المسلمين بالبر والقسط تجاههم كما في قوله تعالى : ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ) الممتحنة : 8

ومنح الإسلام اليهود والنصارى حرية الاعتقاد ولم يجبرهم على الدخول في دين الإسلام وأعطاهم حرية في ممارسة جميع طقوس دينهم وشعائرهم من دونَ المساس بهم، فلكلَ ذي دِين دِينه ومذهبه ، قال تعالى ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) البقرة 256 .

وتتجلَّى سماحة الإسلام في معاملة النبي(صلى الله عليه وسلم) معهم والتي اتصفت بالإنصاف والإحسان إليهم، فسمح لهم بحرّيّة اختيار الدين، ولم يُجبرهم على اعتناق الإسلام

فضمنَ لهم حقوقَهم ومنع ظلم أيّ مسلمٍ عليهم، فكانت دماء أهل الذَمة وأموالهم وأعراضهم معصومة.

وكان(عليه الصلاة والسلام) يحسن إلى أهل الذمة، ويدفع عنهم الظّلم ، فعنه (صلى الله عليه وسلم) قال:"مَن ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"( سنن أبي داود4/658، رقم(3052) .

وكان عليه(الصلاة والسلام) يعود مرضاهم، ويرجو الله هدايتهم، فعن أنس بن مالك(رضي الله عنه) قال:" إن غلاما من اليهود كان يخدم النبي(صلى الله عليه وسلم) فمرض فأتاه النبي(صلى الله عليه وسلم) يعوده وهو بالموت فدعاه إلى الإسلام فنظر الغلام إلى أبيه وهو عند رأسه، فقال له أبوه أطع أبا القاسم فأسلم ثم مات فخرج رسول

الله(صلى الله عليه وسلم) من عنده وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه بي من النار"  مسند الإمام احمد :21/ 78، رقم( 13375) .

هذا هو خلق النبي عليه الصلاة والسلام مع غير المسلمين ، أما خلقه مع المسلمين فكان لا حدود له من الاحترام والمحبة والتسامح ولين الجانب ، فأين أصحاب القلوب القاسية التي تريق دم المسلمين باسم الإسلام وتشردهم باسم الدين وتكفرهم باسم العقيدة ، أين هم من هذا الهدي النبوي الشريف ، فلا يحق لأحد من الذين ينتسبون لهذا الدين أن يخرج عن هدي القرآن الكريم وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن يتمسك بهما ، وإلا خسر الدنيا والآخرة .

## تاريخ الأقليات القومية والعرقية في سوريا

لم يكن هناك أقليات عنصرية تستحق الذكر في هذا القطر قبيل عهد الانتداب، ولو سلّمنا جدلاً بوجود بعض الفئات الكردية والجركسية والأرمنية إلا أن السياسة التي كان يتبعها العثمانيون تجاه رعيتهم لم تكن لتفرق بين شعب وآخر بشرط أن يكون الأفراد من المسلمين. فكان كل مسلم يتمتع بما يتمتع به غيره دون أي اعتبار لعنصريته ولغته وتاريخ قومه([1]) . وقد كانت المشكلة التي تُدعى بمشكلة الأقليات ناتجةٌ عن سبب ديني إبان العهد العثماني لم تكن لتمت إلى العنصرية بشيء . ولهذا فإن مشكلة الأقليات العنصرية هي مشكلة طارئة على هذا الوطن، نشأت فيه منذ عهد قريب تحت تأثير عاملين:

أولاً: عامل اليقظة القومية التي أضعفت من قوى الدين كأساس لتربيط الأقوام المختلفة، والتي كان من نتائجها أن أخذت شعوب الإمبراطورية العثمانية تطالب باستقلالها وحريتها، تحدوها غاية واحدة، هي جمع شمل أبنائها تحت راية دولة موحدة تقوم على أساس قومي. لذلك أصبح وجود أي فئة من تلك الشعوب- الطامحة لخلق كيان خاص بذاتها – ضمن دولة أخرى لا تمت إليها بصلة من الناحية القومية، مدعاةً لاعتبارها أقلية عنصرية، ينظر إليها نظرة الحذر ولا يؤتمن جانبها .

ثانياً : عامل السلطة المنتدبة التي كان من غاياتها في سوريا إضعاف الروح القومية العربية بخلق شتى الميول والنزعات([2]) . ولهذا لم تتورع السلطة الفرنسية عن إدخال عناصر مختلفة بغية القضاء على وحدته القومية، فأباحت للكلدان والأشوريين والسريان من مهاجري خربوط وديار بكر أن يدخلوا سوريا وأقطعتهم الأراضي وأعطتهم الأموال، وأباحت للأكراد الطريدين من تركيا والأرمن أن يدخلوها وأعطتهم كل الحقوق والامتيازات الوطنية ثم فرّقتهم إلى مستعمرات ووضعتهم في المراكز المختلفة فصاروا أكثرية في القامشلي وجرابلس وقرق خان والحسكة ثم أصبح لهم وزن في حلب أيضاً([3]) . هذا فضلاً عما فعله الفرنسيون لإيقاظ النعرات الانفصالية بين تلك الأقوام.

وهكذا نجد أن الأغلبية من الأقليات العنصرية الموجودة حالياً في سوريا، هي وليدة عهد الانتداب إذ أنها استوطنت هذه البلاد واكتسبت حقوق أبنائها الشرعية في إبانه بفعل سلطة الدولة المنتدبة. وأهم هذه الأقليات، هي الأرمن والأكراد والشركس والأشوريون. وسنسعى الآن لدرس تاريخ كل منها في هذا القطر مع تبيان أوضاعه وميوله بشكل مقتضب بسيط.

## التركمان السوريون

هم مواطنون سوريون من أصل تركي. وقد عاشوا وأجدادهم في الوقت الحاضر في سوريا منذ العهد السلجوقي في القرن الحادي عشر. اليوم، يشكل التركمان السوريون ثالث أكبر مجموعة عرقية في البلاد، بعد العرب والكرد على التوالي.

خلال الحرب الأهلية السورية، شارك العديد من سكان تركمان سوريا في العمليات العسكرية ضد قوات الحكومة السورية وصارت تركيا هي التي توفر الدعم والحماية لهم. وفي الآونة الأخيرة، اتحدوا تحت أحد الهيئات الرئاسية الرسمية، وهي المجلس السوري التركماني وتم إنشاء الجناح العسكري للمجلس، وكتائب تركمان سوريا، لحماية المناطق التركمانية والسكان ومنع التغييرات العرقية فيها .

لقد كان للتركمان حضور واضح في سوريا منذ القرن الحادي عشر، عندما هاجرت قبائل التركمان الرحل في المنطقة من الأناضول وبلاد ما بين النهرين. وبحلول القرن الثاني عشر، أصبح التركمان على السلطة في سوريا في عهد عماد الدين زنكي، مؤسس السلالة التركية الزنكية، واستقر التركمان في ولاية حلب لمواجهة الصليبيين. في مقابل خدمتهم العسكرية، وزع زنكي الإقطاعات في المنطقة للتركمان. بحلول القرن الـ13، شكل التركمان جزءا من جيوش دمشق وحلب. كما كانوا يعيشون في أحياء تلك المنطقة، بما في ذلك ضواحي المدينة نفسها التي تسمى بالحيدر السليماني. وبالإضافة إلى ذلك، كان لهم وجود على الساحل السوري وفي الجولان. بعد أن دمر سلطان المماليك البحرية بيبرس، قارة أسكن التركمان في المدينة في 1265. بعد عامين أسكن بيبرس المزيد من التركمان في الساحل السوري لحماية المنطقة. كما تم الاستعانة بالتركمان في الاستيلاء على قلعة المرقب من قبل القائد المسلم لقلعة الحصن في 1280.

وأشار الكاتب المملوكي القلقشندي أن التركمان شكلوا وحدات في الجيوش النظامية من سوريا الكبرى. كما سجل الكاتب المسلم خليل الظاهري في القرن الخامس عشر الجنود التركمان بلغ عددهم 180000 في هذه الجيوش، وكذلك 20000 الأكراد.

التركمان سكنوا بشكل رئيسي في شمال سوريا حيث انتقلوا إلى أسلوب الحياة المستقرة، بدلاً من حياة التنقل. خلال العهد العثماني (1517–1917)، كانت المجتمعات التركمانية تتمتع بحكم شبه مستقل ويقودها رؤساء وراثيين، فالقبيلة كانت تعتبر الحاكم الفعلي في القرى السورية. وفقاً لسجلات سكان الإمبراطورية العثمانية في 1518، مجموع سكان إيالة حلب (والكثير منها هو حالياً جزء من تركيا) هو 54276، منهم 36217 ينتمون إلى السكان التركمان. خلال القرن السادس عشر، أسكن العثمانيون التركمان في المناطق الريفية حول حمص وحماة لكبح جماح البدو، ويكونوا بمثابة جباة للضرائب.

## الأرمن

تقع بلاد أرمينيا بين البحر الأسود وجورجيا من الشمال، وهضاب أذربيجان والجهة الجنوبية من بحر الخزر من الشرق، والضفة العليا لنهر الدجلة من الجنوب، ثم سهول الفرات الغربية من الغرب.

إن هذه الحدود الجغرافية لم تشكّل دولة ذات كيان موحد إلا مرة واحدة في التاريخ وذلك في عهد ديكران الكبير قبل التاريخ المسيحي بقرنٍ واحد([4]). وما عدا تلك الحقبة من التاريخ فإن بلاد أرمينيا قد وقعت بالتالي تحت سلطة

الميديين الفرس فالسلافيين فالرومان الشرقيين فالعرب المسلمين. ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة هذه البلاد الجغرافية وإلى أن أرمينيا كانت خلال تاريخها محاطة بإمبراطورية قوية دأبها السيطرة والتوسع([5]) .

ولما حدثت الحروب الصليبية على مسرح الشرق الأدنى تمكّن الأرمن بحكم حلفهم مع الصليبيين من إحداث مملكة كيليكيا ودعوها باسم أرمينيا الصغرى، غير أنها لم تلبث أن زالت من معالم الوجود يوم قوّض صرحها المماليك في القرن الرابع عشر للميلاد . أما أرمينيا الكبرى فإنها خضعت للنفوذ التركي منذ القرن الحادي عشر حين احتل السلطان ألب أرسلان عاصمتها عقب انتصاره على الإمبراطور رومانوس. وفي بداية القرن التاسع عشر أخذ الروس يتوسعون على حساب الإمبراطورية العثمانية في المقاطعات الشمالية من أرمينيا– ولقد تمّ لهم بعض ما ينشدون– حتى غدت بلاد أرمينيا في الوقت الحاضر مقسّمة بين تركيا وروسيا وإيران([6]) .

كان الأرمن يعيشون ضمن الإمبراطورية العثمانية على أساس ملّي، أي أن الدولة كانت تعترف بهم كطائفة دينية لها ما لغيرها من الامتيازات والحقوق. ولقد تمتعوا بجوٍ مملوء بالحرية، وكان العثمانيون ينظرون إليهم كعنصر كبير الفائدة للدولة خاصة فيما يتعلق بالناحيتين: التجارية والصناعية([7]) . على أن هذه الحالة لم تبق على ما كانت عليه في العهد الأول بل طرأ عليها تغيير أساسي عقب الحرب الروسية سنة 1877–1878م، فقد أصبحت العلاقات التركية الأرمنية بعد ذلك التاريخ قاسية صعبة، وحدثت مذابح عديدة ذهب ضحيتها ألوف من أبناء هذا الشعب. وكانت الدول الأوروبية الكبرى تتدخل بين حين وآخر وتجبر الحكومة العثمانية على تحسين حالته حسبما تتطلبه حاجاته المحلية، مع تأمين سلامته من هجمات الأكراد .

إلى ذلك الحين لم تكن أغلبية الشعب الأرمني واعية قومياً ، إلا ما ندر من المثقفين اللاجئين إلى أوروبا . لذلك تأسّست الجمعيات السرية الأرمنية وبدأت تعمل على إيقاظ الروح القومية بين مجموعة الشعب الأرمني وتحثه على تعلم لغة قومه والتحرر من ربقة النير العثماني . وكان العثمانيون في أول الأمر غير مبالين بتلك اليقظة القومية، ظناً منهم أن الشعب الذي يتغنى بتاريخه وأمجاده لا يشترط أن يثور لأجل الحرية والاستقلال في يوم من الأيام([8]) . وعندما أخذت الحركة تتطور سريعاً وبدأت تظهر أهميتها بالفعل، لاحظ الأتراك خطرها وصاروا يناوئونها بشدة وصرامة كانت تزداد بازدياد مقاومة ذلك الشعب الثائر . وهكذا نجد أن الروح القومية كانت تلتهب عند أبناء أرمينيا يوم اندلعت نيران الحرب العظمى، فكان لهم ما كان لغيرهم من الوعود التي جاد بها الحلفاء . تلك الوعود التي ما لبثت أن انهارت أمام الرفض التركي بالتنازل عن أية قطعة من أراضي تركيا أثناء مفاوضات الصلح التي دارت في لوزان سنة 1922-1923، فكانت النتيجة أن شتت شمل الأرمن وتفرقوا بين مختلف الأقطار . فنالت سوريا منهم عدداً كبيراً .

إذا ما استثنينا بضعة آلاف من الأرمن المقيمين في حلب منذ أواخر القرن التاسع عشر، لا نجد أية مستعمرة أرمنية في هذا القطر قبل حلول الانتداب . فالهجرة الأرمنية الواسعة حصلت أثر الجلاء الذي تمّ عن كيليكيا بعد "تفاهم" أنقرة سنة 1920، ثم حصلت هجرة واسعة أخرى سنة 1922 عقب الانتصار التركي على اليونان . هذا فضلاً عما كان يتسلل من جماعات صغيرة دون انقطاع . ولقد كان عمال الانتداب في سوريا يشجعون تلك الهجرات ويمدون أصحابها بالمال .

انتشر هؤلاء المهجرون الأرمن في جميع أنحاء سورية، غير أن الأغلبية منهم سكنت حلب وبيروت والإسكندرونة ودمشق، وبنت لنفسها أحياء خاصة في تلك المدن . لأن الأرمن أينما ذهبوا ومهما كانت الظروف، يؤسسون

كنائسهم بالقرب من مدارسهم ويعيشون متكتلين حولها ، وهم يفعلون ذلك قصد المحافظة على وحدتهم القومية التي لاقوا من أجلها شتى ضروب الاضطهاد([10]) . ولقد فشلت السلطات المنتدبة في إسكان بعضهم في القرى والمزارع، لأنهم لم يساهموا كما توقعت تلك السلطات في إغناء البلاد وتحسينها الزراعي مثلما كان شأنهم في جهات الأناضول. ولعل السبب في ذلك يعود إلى خوفهم من السكنى بين أكثرية مغايرة لهم بالعنصر والدين وحبهم أن يعيشوا متكتلين حول بعضهم داخل المدن حيث يعمل أغلبهم في الصناعات الصغيرة.

إن هذا الشعب الذي يعد مغايراً لأبناء هذا القطر العربي من حيث اللغة والتقاليد والعنصر، والذي يطمح لغير ما يطمح إليه أبناء البلاد الأصليون، قد فرض عليهم حتى بتجمعاته الكبيرة داخل المدن، تلك التجمعات المنعزلة الخطرة بالنسبة إلى وحدة البلاد القومية. ولقد منحت السلطات المنتدبة أفراد هذا الشعب جميعهم الجنسية السورية وما يترتب عليها من حقوق. فأصبحوا يمثلون في دوائر الدولة السورية وينتخبون إلى مجالسها الإدارية والنيابية. هذا على الرغم مما أظهره بعضهم من العداوة الواضحة تجاه قضية البلاد الوطنية في الثورة التي وقعت سنة 1925، وفي غيرها من المناسبات، وعلى الرغم من أنهم لا يزالون يحتفظون بلغتهم ويشكلون كياناً خاصاً ضمن المجموعة السورية. وعلاوة على ذلك فإن تمركز الأرمن على الشكل المعهود وكثرتهم العددية أدت إلى انخفاض مستوى المعيشة في سوريا وإلى خلق أزمة اقتصادية بين الطبقات العاملة لأبناء البلاد دامت عدة سنين([12]) . لهذا نجد أن السوريين العرب ينظرون إليهم حتى اليوم نظرة ملؤها الشك والارتياب، لأن موقف الأرمن أثناء الثورة السورية، وفي غضون عهد الانتداب ثم تكتلهم وانعزالهم داخل المجتمع السوري، وأخيراً ذلك الأثر الذي أحدثوه في أول الأمر من الناحية الاقتصادية، جميع هذه الأمور جعلت أهالي البلاد لا يطمئنون إليهم بل يوجسون منهم خيفة على وحدة الوطن واستقلاله. ونحن لا نستغرب هذه الشكوك وذلك الحذر اللذين يظهرهما السوريون تجاه هذا الشعب ما دام لا يزال منعكفاً على ذاته لا

يشارك سكان البلاد الأصليين حياتهم الاجتماعية ولا يبدي أية رغبة في الامزاج والتعرب هذا فضلاً عن أنه ما زال محافظاً على طابعه القومي وانقساماته السياسية التي نشأت قبل مجيئه إلى سورية. فالأرمن اليوم يتبعون سياسة حزبية خاصة تقتصر عليهم. وهم لا يشاركون البلاد حياتها السياسية إلا ضمن الجهاز الحكومي حيث يوجد بعض الأفراد الذين يمثلون طائفتهم بحكم القانون. أما ما عدا ذلك فلهم –كما أسلفنا– أحزابهم الخاصة التي وإن اختلفت من حيث التفاصيل والأسلوب إلا أنها جميعاً تتجه نحو غاية واحدة يحددها مبدأ واحد وهو بناء وطن قومي أرمني يضم أبناء هذا الشعب في ظل دولة حرة مستقلة.

لهذا يجد الأرمن الذين يعيشون في هذا القطر العربي أنفسهم، كما يقول الأستاذ باروناك توماسيان أمام أمرين. الأمر الأول هو الذهاب إلى أرمينيا السوفياتية التي ترحب بمقدمهم فيعيشون بين أخوانهم في تلك الديار. والأمر الثاني هو البقاء في سوريا مع العلم بأنه لا بد لهم من التعرب والتنازل عن فكرتهم القومية وما ينتج عنها من تكتل وانعزال.

والظواهر تدل على أن حل مشكلة الأقليات الأرمنية في هذه البلاد ستأتي عن طريق هذين الأمرين. إذ أن هنالك فئة كبيرة من الأرمن العمال ترغب في المهاجرة إلى أرمينيا السوفياتية، وهذه الفئة وجدت لهذه الغاية جميع المساعدات والتسهيلات. فقد غادر البلاد إلى روسيا عدد كبير منهم في الآونة الأخيرة. كما أن من سيبقى منهم من الأغنياء وأصحاب المصالح أصبح موقناً بأن مصلحته تقتضي عليه بالتعرب إن كان حقاً يبغي حياة هادئة مطمئنة.

## الجركس

يطلق هذا الاسم على تلك المجموعة من القبائل التي ترجع بأصلها إلى الجهة الغربية من القوقاس وإلى قسم من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود. إن هذه القبائل التي كانت تسكن هذه الجهات، قاومت بعنف مدة طويلة من الزمن حملات

الروس المتالية التي بدأها عليها بطرس الأكبر. وفي غضون حرب القرم قام الجراكسة بحركة ثورية ضد الروس ما لبثوا أن دحروا بعدها فكان الانتقام منهم شديداً للغاية حتى أن أغلبهم قد هاجر في تلك الأثناء. ولقد بلغ عدد المهاجرين منهم بين 1864–1878 أربعماية ألف وزعهم الأتراك العثمانيون على مختلف أنحاء الإمبراطورية. فنالت سورية منهم عدداً وافراً([26]) . ولم يكن تمركز الجراكسة في هذا القطر من الأمور السهلة في بادئ الأمر، لأن الدروز قاوموا ذلك التمركز الذي حصل بالقرب منهم بشدة وعناد ولم يذعنوا للأمر الواقع إلا بعد مضي سنين عديدة.

يعتنق هؤلاء القوم الديانة الإسلامية، وجميعهم من أتباع المذهب السني إلا ما ندر من الشيعة. لذلك فهم من الناحية العقيدية ينتمون إلى الأكثرية من السكان، غير أنهم يختلفون عن تلك الأكثرية من حيث العنصر واللغة والتاريخ. وهم حتى هذا اليوم يتكلمون لغتهم الخاصة فيما بينهم ويشكلون كتلاً منعكفة على ذاتها أينما وجدوا.

كان الجراكسة في عهد الانتداب الفرنسي ينقسمون إزاء الحركة الوطنية في سوريا إلى قسمين: قسم أظهر شعور الإخلاص والترابط تجاه الوطنيين المناضلين، وعمد إلى مساعدتهم بكل الوسائل دون إبطاء أو ملل، وأغلبه من الأفراد المسنين القدماء الذين ما زالوا يحفظون لهذه البلاد حسن وفادتها وضيافتها، والذين ما زال العنصر الديني يطبعهم بطابعه. وهذه الفئة من الشراكسة تبدي رغبة شديدة في التعرب لأنها تعتقد أن مصيرها أصبح معلقاً بمصير البلاد. أما القسم الآخر المكون بأغلبيته من الشبيبة الناشئة، فقد تعاون مع الأجنبي في محاربة القضية الوطنية، وكان يبدي نشاطاً كبيراً في بعض الأحيان لحمل السلطات على اعتبار الجراكسة أقلية عنصرية معترف لها ببعض الحقوق. ولقد ذكر الدكتور حلمي اللحام في رسالته عن الأقليات في سوريا بعض المطاليب التي تقدم بها نفر من الجراكسة إبان الانتخابات التي جرت لإيجاد المجلس التأسيسي نذكرها بالإيجاز.

1- الاعتراف بحقوق الأقلية الجركسية وتمثيلها في المجلس النيابي.

2- جعل القنيطرة منطقة مستقلة لهم.

3- إنشاء معهد ثقافي للشراكسة وتعليم اللغة الجركسية في جميع المدارس الابتدائية في جبلان.

4- أن يكون للجراكسة حرية الرأي والاجتماع، وكذلك أن تكون هنالك حرية تامة للصحافة الجركسية.

هذه هي بعض المطالب الذاتية التي كانت ترددها بعض الفئات الجركسية مدفوعة بذلك من الفرنسيين الذين اتبعوا سيادة التفرقة لكي يتمكنوا من السيطرة على هذا القطر العربي، ولكن حالت دون تحقيقها عقبات مختلفة أهمها انتشار هؤلاء القوم في أماكن متعددة بعيدة عن بعضها البعض. وعلى أثر هذا الإخفاق أخذ عدد الجراكسة الموالين للقضية الوطنية يزداد يوماً بعد يوم خاصة بعد أن أدركوا بأن الفرنسيين قد أركبوهم طريقاً خطراً وأنه لا يستبعد أن يتخلوا عنهم في أي وقت من الأوقات.

فالحركات التي قام بها الجراكسة خلال عهد الانتداب كان الدافع لها عمال فرنسا في سوريا. أما اليوم فهم لا يكونون أي خطر على كيان البلاد، وذلك بشهادة أولي الأمر، وبدليل الأسباب التالية:

أولاً: أن الجراكسة في سوريا لا يزيدون عن الخمسين ألف شخص، وهم مبعثرون في جميع أنحاء الوطن السوري. لذلك نجد أنهم لا يكونون أي خطر من الناحية العددية.

ثانياً: إن القسم الغالب منهم يعتقدون بوجوب تعربهم واندماجهم ضمن المجموع. وقد بدأ هؤلاء بالفعل بتدريس أبنائهم اللغة العربية وبتوجيه ناشئتهم توجيهاً وطنياً.

ثالثاً: ليس للجراكسة أي ادعاء تاريخي في هذا القطر وهجرتهم إليه واضحة الأسباب، هذا فضلاً عن أنها ترجع إلى عهد قريب.

## الأشوريون

على الرغم من كل الادعاءات التي يظهرها الأشوريون المعاصرون، فإن انتسابهم إلى الأشوريين القدماء الذين ازدهرت مملكتهم في الهلال الخصيب في القرن السابع للميلاد لم يثبت بعد([31]). والذي نعلمه عن هؤلاء اليوم هو أنهم كانوا في القرن التاسع عشر يقطنون المنطقة الجبلية في (هكارى) وبعضهم كان يسكن الجهة الشمالية من بلاد العجم. وكذلك كان هنالك فئة منهم تعيش في روسيا([32]). فلما اندلعت نيران الحرب العامة الأولى انحاز الأشوريون الذين كانوا تحت سلطة العثمانيين إلى معسكر روسيا وحلفائها وجاهروا الأتراك علناً بالعداء. غير أن الأتراك تمكنوا من طردهم من الجبال التي اعتصموا بها، فكان لا بد لهم والحالة هذه من الالتجاء إلى مدينة أورميا من بلاد فارس التي كان يحتلها الروس آنذاك. وحينما نشبت الثورة البلشفية تحرج موقف الأشوريين إلى درجة دفعتهم لأن يبذلوا جهوداً جبارة للالتحاق بالقوات البريطانية في بالعراق([33]).

منذ ذلك الحين والآشوريون يعيشون في العراق، إلى أن تمكن بعضهم من المهاجرة إلى روسيا والاستيطان في ربوعها، وليس من شأننا في هذا الفصل أن نذكر شيئاً عن مراحل القضية الأشورية في القطر العراقي. بل نكتفي بأن نشير إلى أن ثورتهم على الحكومة العراقية قد انتهت بالتجاء عدد منهم إلى سوريا، وكان ذلك نتيجة لقرار عصبة الأمم آنئذٍ([34]).

احتجت البلاد في ذلك الحين على إيوائهم في سوريا، غير أن الفرنسيين قد طاروا فرحاً بقرار عصبة الأمم هذا ولم يبالوا بالاحتجاجات، لأنهم كانوا ميالين إلى حشد كل الأجناس في منطقة الجزيرة لعلها يوماً تدين لهم بالطاعة والخضوع. استقر هؤلاء الأشوريون على ضفتي نهر الخابور الأعلى بين الحسجة ورأس العين، في مزارع بعضها ملك للدولة وبعضها اشترتها السلطات من الأفراد، وأسست لهم ناحية سموها ناحية الخابور مركزها موقع تل التمر. وكان عددهم يتراوح ما بين 10–12 ألف فقط، ويؤكد الخبيرون اليوم أنه لم يبق من هؤلاء الأشوريين الأعداد يتراوح بين 5–6 آلاف([35]).

يدين هؤلاء القوم بالمذهب الأرثوذكسي المسيحي وهم لا يزالون على طراز قبائل عصبية. منح الفرنسين هذه الأقلية الجنسية السورية بالإجماع، وذلك بعد مضي خمس سنوات على دخولها البلاد، كانت تتمتع خلالها بجميع الحريات والحقوق التي تتمتع بها أبناء سوريا. وهكذا عملت فرنسا مرة أخرى على إدخال عناصر أجنبية إلى هذا القطر بغية تنفيذ مآربها في فصل الجزيرة واستثمارها إلى الأبد. لهذا لا غرابة أن يجد المرء هذه الأقلية تسعى جهدها لبقاء الانتداب الفرنسي وتثير الفتن بقصد فصل الجزيرة من الوطن الأم. وبزوال الانتداب قد زال الخطر من هذه الأقلية البسيطة التي يمكن للمرء أن يتكهن بأنها لن تلبث طويلاً قبل أن تذوب في المجموع إذا تمكنت الحكومة من اتباع سياسة رشيدة تجاه الأقليات

# الأكراد

عند الحديث عن الأكراد السوريين، لا بد من التفريق بين نوعين منهم؛

الأول: هم الأكراد القدماء الذين سكنوا بلاد الشام منذ العهد الأيوبي وما قبله، وهؤلاء قد تعرّبوا ونسوا لغتهم وانصهروا بشكل كامل مع باقي مكونات الشعب العربي السوري إلى درجة أن أحد رموز الوطنية السورية، «إبراهيم هنانو»، هو أحد أولئك المتحدرين من الأكراد القدماء، وقد تولى بعضهم مقاليد حكم بلاد مثل «أديب الشيشكلي».

الثاني: هم الأكراد الذين يقطنون منطقة الجزيرة الفراتية أو محافظة الحسكة تحديدًا ومناطق أخرى متفرقة قريبة منها، الحريصون على كرديتهم، وهم الذين بدأت تطفو مشكلتهم على السطح منذ عام 1925، نتيجةً لما أطلق عليه «أرشاك سافراستيان» اسم «الاضطهاد التركي للأكراد» فيما بعد معاهدة لوزان؛ ما سبّب هجراتهم لشمال سوريا. كما يؤكد سافراستيان أنهم في مراحلهم الأولى عملوا مزارعين في جنوب خط سكة قطار بغداد في الأراضي السورية، وكل ذلك مع التأكيد على أنهم لم يشكلوا أغلبية في تلك المناطق أبدًا.

وهناك عدة حقائق تؤكد صحة هذا الكلام :

أولا : ان هؤلاء الأكراد الذين لجأووا الى الدولة السورية من تركيا أنتشروا على طول الحدود السورية التركية من ناحية عين ديوار في أقصى الشمال الشرقي وصولا الى عين العرب والتي تعرف باسم ( كوباني ) نسبة الى شركة إنكليزية كانت تعمل في تلك المنطقة بعرض لا يتجاوز الخمسة عشر كيلو متر وبطول يصل الى 600 كيلومتر .

وهم لم يستطيعوا الانتشار نحو الجنوب بسبب وجود وتوزع العشائر العربية جنوبا فلقد تمركزت عشيرة شمر في الشمال الشرقي من الجزيرة بينما استحوذت قبائل طي وعشائرها على الوسط ما يعرف اليوم بالقامشلي وجنوبها أما في الغرب فكانت تستوطن عشائر العدوان والبكارة وغيرهم لذلك انحصر الوجود الكردي في هذا المستطيل الحدودي .

ثانيا : لقد سبقت عملية النزوح الكردي من تركية عمليات نزوح للسريان والأرمن بسبب ما لحق بهم من عمليات تطهير عرقي على يد الأتراك والأكراد في الحرب العالمية الأولى وما تلاها بالأضافة لهجرة بعض الجماعات من عرب تركيا وخاصة من مناطق طور عابدين وماردين ولقد كان هؤلاء العرب مع السريان الفضل في تأسيس البلدات الحدودية وخاصة القامشلي في العام 1932 وما بعد .

وتجدر الإشارة إلى أن الأكراد (أكراد الأطراف) يعيشون في سوريا في ثلاثة أجزاء متفرقة رئيسية متاخمة لمواطن الأكراد خارج سوريا، وهي أجزاء من جبل الأكراد «كرد داغ» ومنطقة عين العرب وما حولها، إضافة للجزيرة السورية التي كانت مرتعًا للقبائل البدوية الرعوية العربية والكردية على حد سواء.

ويظهر تأثر القبائل الكردية البدوية المتنقلة– على جانبي ما عُرفت فيما بعد بكونها حدودًا دولية بين سوريا وتركيا– بالقبائل العربية حتى بلغ الأمر حد دخول عشائر كردية في قبائل عربية كبرى مثل قبيلة طيء.

ويُقرّر المؤرخ العراقي «محمد أمين زكي» أن الأكراد في سوريا– ما قبل 1925– كانوا يعيشون على شكل قبائل جوّالة، إلا أن منطقة الجزيرة شهدت هجرات كردية متلاحقة أدت لوجود كردي كبير فيها .

والأكراد السوريون غالبيتهم مسلمون سنيّون ويتكلمون باللهجة الكرمانجية بشقيها الشمالي والجنوبي (البهديناني)، وتوصل تقديراتٌ نسبتهم إلى نحو 10%؛ ما يجعلهم القومية الثانية في سوريا، وتُعد مناطقهم مناطق ثروة نفطية مثل حقول «رميلان» .

وتجدر الإشارة إلى أن حركات الانفصال في الشرق، ومنها الحركات الكردية، إنما برزت نتيجة للقسرية التي بُنيت بها الدولة الحديثة في الشرق، إضافة لاصطدامها مع طبيعة المجتمعات الشرقية التي لم تكن منسجمة مع الطبيعة الرأسمالية الناتجة عن الثورة الصناعية، على عكس الحركات الانفصالية في أوروبا التي كان للتأثير الاقتصادي العامل الأبرز في صعودها .

## مشكلة تركية

بالنظر إلى مُسبّبات نشوء المسألة الكردية في سوريا ومآلاتها، يمكن القول إن المسألة الكردية السورية مشكلة تركية في أصلها . ويمكن إعادة ذلك تاريخيًا إلى توقيع معاهدة لوزان عام 1923، والتي أنهت وجود «رجل أوروبا المريض» نهائيًا، بكونها بديلًا عن معاهدة سيفر عام 1920 لقد كان ذلك الاستبدال نتيجة لانتصارات الأتراك في حرب استقلالهم الوطني؛ مما حدا بالقوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى أن تستبدل معاهدة سيفر بمعاهدة لوزان؛ هذه الأخيرة التي نُظر إليها بكونها مماثلةً لمعاهدة «وستفاليا» ولكن بطابع شرقي أنهى ما عُرف بالمسألة الشرقية.

فيما بعد استطاعت القوى السياسية الكردية أن تعيد صوغ المسألة الكردية بكونها مشكلة سورية أصيلة، خصوصًا بعد أن حطمت معاهدة لوزان ما كان قد أُقر من اقتراحات لإنشاء كيان كردي قابل للتطور خلال سنة واحدة ليصبح دولة مستقلة في معاهدة سيفر.

وقد نُظر للأراضي التي أُزمع إنشاء كيان كردي عليها على أنها «كردستان الشمالية» من قبل الأكراد القوميين، وبكونها أرمينيا الجنوبية من قبل الأرمن القوميين، وبكونها تركية أو عربية شامية من قبل نظرائهم الأتراك أو العرب.

وقد وصف «ديفيد مكدول» حدود تلك الدولة الكردية التي كان مزمعًا إقامتها بأنها «مضيق ضيق له منفذ على البحر الأبيض المتوسط شمال لواء الإسكندرونة تمامًا والموصل والضفة اليسارية لنهر دجلة وصولًا إلى مندلي والجانب الشرقي من بحيرة أرومية». وقد جاءت بنود معاهدة لوزان التي عالجت موضوع الكيان الكردي في المواد 62 و63 و 64. وقد تناولت المادة 62 وضع اللجنة الثلاثية– من ممثلي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا– خطة الحكم الذاتي لمناطق الأكراد.

وتناولت المادة التالية أن على الأتراك أن يوافقوا على مقترحات اللجنة خلال ثلاثة أشهر، بينما عالجت المادة 64 إمكانية استقلال الأكراد خلال سنة وإمكانية انضمام ولاية الموصل العثمانية للدولة الجديدة.

وقد أدى قيام تركيا الحديثة على طريقة النمط القومي الأوروبي إلى ثورات عشائرية كردية، بلغت سبع عشرة ثورة بين عامي 1925–1938 ضد الدمج القومي التركي للأكراد؛ ابتداءً بثورة «سعيد بيران» عام 1925، وانتهاءً بثورة «سيد رضا» عام 1938. وقد بدأ بالقضاء على ثورة 1925 التدفقات البشرية الكردية المهجرة قسرًا إلى سوريا الانتدابية، وقد تركّز الثقل الكردي المهاجر آنذاك في منطقة الجزيرة السورية.

وقد كانت النظرة من أكراد سوريا لأنفسهم- ممثلين في حركة خويبون- على أنهم لاجئون ليس إلا؛ بدلالة خرائط الحركة نفسها التي لم تُشر لما يُعرف اليوم بالمناطق الكردية في سوريا في تلك الخرائط، وهي منطقة الجزيرة «منقار البط» وجبل الأكراد (كرد داغ) في عفرين وعين العرب، ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى خريطة عام 1948 التي لم تدخل من سوريا فيها- بكونها أرضًا كردية- سوى مناطق من عفرين. وذلك لم يتغير سوى في منتصف الأربعينيات، رغم التدخلات الفرنسية لاستغلال منطقة الجزيرة لمصالحها وإنشاء كيانات تُدار ذاتيًا وتُقارب بعض الأكراد مع المشاريع الفرنسية؛ لأن القيادات الكردية كانت في سوريا آنذاك قادمة أو مهتمة بمناطق الأكراد في تركيا والعراق فقط.

ولكن القوميين الأكراد يرفضون رد المسألة الكردية للأوضاع في تركيا؛ حيث يرون أن منطقة الجزيرة كانت على الدوام منطقة كردية، مُستدلين بالآثار الغابرة لبعض الشعوب القديمة، مع أن هناك خلافًا حول أصول الأكراد القديمة.

إن بلاد الأكراد الأصلية والموطن الذي يطالبون به اليوم، هو كردستان. وهي منطقة جبلية تضم ثلاث أقاليم هي أربيل والسليمانية ودهوك .

هذه المنطقة مقسمة من الناحية السياسية بين تركيا والعراق وإيران والقوقاس التابعة للاتحاد السوفياتي. وهنالك أكراد يقطنون غير هذه البقعة من الموطن التاريخي، موزعون في أقطار مختلفة كمصر وسوريا والأفغان.

إن صروف الدهر وتقلبات الزمان حالت دون تحقيق رغبات هذا الشعب المحارب في سبيل استقلال بلاده، ولكنه ظل في أغلب الأوقات ينعم بنوع من الحرية الذاتية ضمن البلاد التي كان يعيش فيها . وإن ضربنا صفحاً عن تاريخه القديم نجد أنه منذ أن تأسست الإمبراطورية العثمانية، كان سلاطين بني عثمان يتخذون الأكراد وقسماً من منطقة كردستان واسطة لعراكهم مع الصفويين الفرس. ولقد نتج من أثر هذا العراك الذي لعب فيه الأكراد دوراً عظيماً أن

بدأو يشعرون بأهميتهم السياسية. ولما استقرت الحدود التركية الفارسية، والتفت السلاطين إلى الحقل الداخلي كي يثبتوا نفوذهم ضمن الإمبراطورية الجديدة، استعانوا بهؤلاء القوم في تثبيت ذلك النفوذ وتحقيق السلطان المركزي. لكن العثمانيين لم يضمروا خيراً لهذا الشعب ولم تكن موافقتهم على منح الاستقلال الذاتي للأمراء الأكراد في مقاطعاتهم إلا حركة سياسية دفعتهم إليها الظروف في بادئ الأمر. فلما سنحت لهم الفرص لم يألوا جهداً في تنفيذ مآربهم والقضاء على ذلك الاستقلال. حتى أنه لم يأت القرن التاسع عشر على نصفه حتى زالت آخر المقاطعات الكردية من تركيا (بطليس، حكاري، سليمانية).

ثار الأكراد مرات عديدة في غضون ذلك القرن لمقاومة السياسة العثمانية الرامية إلى القضاء على الحرية الذاتية التي كانوا يتمتعون بها منذ القديم، ومنذ فجر القرن العشرين ظهرت إلى الوجود حركة كردية قومية كانت تستهدف تحرير كردستان وتوحيدها.

وتأسست لهذه الغاية عدة صحف ومجلات باللغة الكردية عقب ثورة الاتحاديين. وحينما انتهت الحرب العامة الأولى وانعقد مؤتمر الصلح الدولي في فرساي، سمع ذلك المؤتمر لمطاليب الوفد الكردي برئاسة الجنرال شريف باشا. فكان هذا الأمر داعياً لوضع بنود خاصة بالمسألة الكردية بمعاهدة سيفر سنة 1920، التي اشترطت في قسمها الثالث (البند 62، 63، 64) الحكم الذاتي وأخيرا الاستقلال في المناطق المكونة من أكثرية كردية في تركيا

. بيد أن النهضة القومية التركية ونضال الغازي مصطفى كمال جعل هذه الشروط لاغية المفعول حتى أنه لم يذكر عنها أي شيء بمعاهدة لوزان سنة 1923. وهكذا وجد الأكراد أنفسهم بالأخير مقسمين من الناحية السياسية بين عدة دول يتباينون عن أهلها عنصراً ولغة وتاريخاً.

من هذه الدول التي تحوي أقلية كردية، دولة سوريا . والأقلية الكردية التي نجدها في هذا القطر تقسم إلى قسمين.
قسم استوطنها منذ القديم أو خلال العهد العثماني– وأغلبيته قد تعرف بالعادات واللغة — وقسم دخلها إبان عهد الانتداب الفرنسي إثر الثورات التي قمعها الأتراك الكماليون بشدة وقساوة. ولهذا أرى من المستحسن أن تتعرض لدراسة وضع كل من هذين القسمين على حدة.

إن العناصر الكردية التي تعيش اليوم في القطر السوري موزعة على طول الحدود التركية — السورية في ثلاث مناطق تكاد أن تكون متصلة بعضها ببعض. وهي منطقة الجزيرة العليا ، منطقة الفرات، والمنطقة المسماة بكرداغ. وهنالك أيضاً بعض الفئات الكردية في دمشق وغيرها من المدن السورية.

أهم هذه المناطق الثلاث في الوقت الحاضر هي منطقة الجزيرة العليا وذلك بسبب قدوم اللاجئين الحديثين من تركيا وهي تمتد ما بين نهر دجلة ونهر الخابور. وأشهر العشائر الكردية الموجودة فيها هي (الأليان) و(الكوجر) و(المرسينية) و(الملية)، وجميعها تتعاطى الزراعة وتسكن أمكنتها الحالية منذ قديم الزمن. ومما يلفت النظر أن شيوخ هذه القبائل جميعاً يدعون نسبهم إلى أصل عربي صميم ويعتزون بهذه النسبة، وقبائلهم لا تنكر عليهم هذه النسبة ولا تكون مقلقة ومزعزعة لرئاستهم، بل على الضد من ذلك مثبتة ومؤكدة لهذه الرئاسة. ومن أمثلة ذلك أن شيوخ الملية يدعون نسبهم إلى بيت العبدي ويقولون أن هذا البيت في الأصل من قبيلة (الرولا) كما أن شيوخ الكيكية يدعون أنهم من بيت (الرستم) وهم بيت ينتمي إلى الهاشميين.

يتراوح عدد هؤلاء الأكراد النازحون الأولون بين الأربعين والخمسين ألفاً من النفوس. وهذا التقدير قريب من الحقيقة، ونضطر إلى استعمال العدد التقريبي لعدم وجود إحصاء رسمي. لقد كانت تلك القبائل الكردية حتى سنة 1925

جميعها تدفع (الخوة) وهي بمثابة الجزية إلى رؤساء عشيرة شمر، ولكن سطوة الحكم الفرنسي قد منعت هذه العادة وأنقذت الأكراد منها. وهم اليوم كما كانوا من قبل يحسون بضعف وعجز تجاه العرب، فلا ينافسونهم مكانتهم الاجتماعية، ولم تقم في رؤوسهم فكرة التقدم على العرب وما يزالون يعتبرون أنفسهم تبعاً للعرب وحاشية لهم. لهذا كله لم يقم خصام عنصري بين العرب والأتراك في تلك المنطقة وأغلب الأكراد هناك يسلكون طريق التعرب.

أما المنطقة الثانية، وهي منطقة الفرات فتمتد من قضاء عين العرب حتى سروج، ولقد كان أول من سكن هذه المنطقة من الأكراد في القرن الثامن عشر، البرازيون هؤلاء يدعون لأنفسهم أصلا عربياً. ولقد تعربوا بالفعل، وهناك فئة منهم تعيش الآن في مدينة حماة. أما الآن فإن تلك المنطقة تسكنها عشائر شيخان، وكيتكان، وعلاء الدين، وبيجان، وكثير من هذه العشائر قد امتزج بالقبائل العربية القاطنة حوله.

والمنطقة الثالثة وهي منطقة كرد داغ أو ما يدعوه البعض بجبال الأكراد، تسكنها العشائر الكردية التالية: العيكلي، شكككلي، وطورو، وكلها متحضرة تتعاطى الزراعة وتربية المواشي، إن أغلب هؤلاء قد تعربوا بعاداتهم، وكثير منهم يتكلمون اللغة العربية.

وهنالك كما أسلفنا، بعض الأكراد الذين يعيشون في المدن السورية كدمشق، لكن هؤلاء جميعاً قد تعربوا إلى درجة يصعب معها تمييزهم عن السكان الأصليين. وهكذا فإن أكراد سوريا القدماء كانوا دائماً على وفاق وتفاهم مع أبناء البلاد العرب في خدمة الوطن المشترك؛ ولم يظهروا أية نية أو رغبة في الحكم الذاتي في تلك الأمكنة التي يكونون الأغلبية من سكانها. غير أن السلطة المنتدبة كانت تحاول أن تعيق تمثيل هؤلاء الأكراد في المجموعة العربية، وذلك بواسطة الدس بينهم وفتح أبواب الهجرة إلى سورية أمام اللاجئين من أكراد تركيا الثوريين.

أصبح من الأمور الواضحة أن السياسة الفرنسية في سوريا كانت قائمة على تجزئة هذا القطر إلى عدة دويلات بغية السيطرة عليها . وتبعاً لذلك كان الفرنسيون ينهجون أية خطة من شأنها أن تزيد في انقسام البلاد وتفككها . لهذا وقفوا موقف المرحب والمشجع من الهجرة التي قام بها أولئك الأفراد المطرودون من تركيا حتى أنهم خلال عشر سنوات من سنة 1925 إلى 1935 دخل إلى هذا القطر من الأكراد المشردين ما يقارب 25000 – الخمسة والعشرين ألفاً . ولقد منحت السلطات هؤلاء المهاجرين الجنسية السورية بالإجمال دون أي اعتبار لمصلحة البلاد . وما كاد هؤلاء الضيوف الجدد أن يستقروا حتى أخذوا يثيرون القلاقل والمشاكل ويعملون على فصل الجزيرة لتحقيق رغبة طردهم الأتراك من أجلها . وكان ذلك بمساعدة الفرنسيين الذين حاولوا سنة 1936 أن ينظموا مضابط تتضمن طلب أهل الجزيرة نظاماً خاصاً أو حكماً لامركزياً ليقدم هذا الطلب حال إجراء التفاوض بين الفرنسيين والوفد السوري. فقامت حركة معاكسة لهذه الرغبة ونشط الوطنيون واستثاروا همم القبائل العربية والكردية معاً ونظموا مضابط بطلب الاتصال التام وشجب كل فكرة انفصالية، وتأييد الوفد السوري والاستقلال التام في كل محتوياته. ففشل الفرنسيون ومن معهم من الأكراد والأشوريين وغيرهم لأن المضابط الإيجابية الوطنية قد ضمت أكثر من تسعين بالمئة من السكان. وهكذا نرى كيف أن بعض الأكراد المهاجرين إلى سوريا خانوا البلاد التي آوتهم ومنحتهم حق المواطنة، وكان الأجدر بهم أن يتعظوا بأخوانهم القدماء الذين عاشوا بملء الحرية متفاهمين مع أبناء سوريا، وأن يعلموا بأن معونة الأجنبي لا تدوم.

السياسة الفرنسية الكولونيالية

كانت أبرز السياسات التي انتهجها الفرنسيون في سوريا هو تقسيمها طائفيًا وإثنيًا إلى دويلات أو أقضية مستقلة ذاتيًا تتبع للدويلات، عملًا بمبدأ «فرق تسد» divide et impera، وكانت تلك النزعة لدى الفرنسيين من أجل إيجاد توازن بين تلك الطوائف والعرب السنة أيضًا.

هذا الأمر ساعد على استقبال الانتداب الفرنسي للاجئين الأكراد الذين بدأ لجوؤهم إلى سوريا منذ عام 1925، عبر توجههم لمنطقة الجزيرة السورية التي كانت محط أنظار الفرنسيين لإكمال مشروعهم الإثني الطائفي التقسيمي؛ إذ كانت هناك نوايا لتشكيل عدة كيانات في منطقة الجزيرة، تحولت في الثلاثينيات من القرن العشرين لكيان واحد يضم العرب البدو والأكراد والكلدان/ الآشوريين؛ لمجابهة حكم الكتلة الوطنية بين عامي 1936–1939.

وقد ظهرت السياسة الفرنسية تلك جلية في تنامي أعداد السكان المطرد في الجزيرة السورية، فقد بلغ عدد سكان الجزيرة المسجلين فقط عام 1937 أكثر من 105 آلاف نسمة. هذه الأرقام تعني أن الهجرات الكردية أسهمت بتحويل المنطقة من البداوة للعمران بعد أن بقيت مدمرة منذ القرن الرابع عشر.

وقد شهد إقليم الجزيرة انخفاض نسبة النمو السكاني من 6.5% إلى 1% بين عامي 1943 و1947، مع أن ارتفاعًا قليلًا شهدته نسبة النمو السكاني في السنوات القليلة اللاحقة. لقد كان ذلك الانخفاض نتيجة عمل الحكومة السورية «الوطنية» في مرحلة ما قبل الاستقلال على تقييد تسجيل المكتومين خوفًا من المشروع الانفصالي الفرنسي في الجزيرة السورية، ومع ذلك فإن التدفق الكردي المهاجر من سوريا لم يتوقف.

هُنا لا بد من الإشارة للفروق بين أعداد الساكنين الحقيقية والمسجلين رسميًا؛ فقد استمرت هجرة الأكراد من تركيا نحو الجزيرة رغم إعادة تركيا لجزء من الأكراد لأماكن في العمق التركي.

ويمكن تلخيص أسباب الهجرة في الروابط العشائرية على جانبي الحدود؛ مما حدا بقسم كبير من الأكراد للهجرة نحو الجزيرة، التي مثّلت لهم جنة مقارنة بجحيم الأتراك؛ ذلك أن تحول الزراعة التركية للآلات بدأ في الوقت الذي انطلقت فيه الزراعة في الجزيرة، خصوصًا القطن الذي زاد الطلب عليه نتيجة للحرب الكورية، بالتزامن مع توجه مزارعين سوريين للعمل في الصناعات التحويلية الناشئة، التي استطاعت أن تستقطب عددًا كبيرًا من الأكراد أيضًا بسبب شح الأيدي العاملة، إضافة لفرار كثير من الشباب الكردي من التجنيد العسكري الإلزامي في تركيا .

يقول الدكتور حلمي اللحام في رسالته عن مشكلة الأقليات في سوريا بأن وضعية العناصر الكردية في سوريا تتطلب من الحكومة أمرين: أولاً، أن تسحب الجنسية السورية من أولئك المهاجرين الذين عملوا على إثارة الفتن والإساءة إلى البلاد، لكن دون أن تضطرهم إلى الرحيل عن البلاد . وأن تجري بحقهم مفعول قانون اكتساب الجنسية فيما إذا برهنوا عن إخلاصهم وتعاونهم في المستقبل. ثانياً: أن تسعى إلى رفع مستوى القبائل الكردية وتحضيرها، وأن تساعد بالطرق الإيجابية على إكمال تمثيلها من قبل المجموعة العربية. ورغم ما أجده في هذين الحلين من الحق، إلا أنني أرى بأن مسألة سحب الجنسية لا داعي لها الآن، هذا عدا عن أنها ليست من الحلول الملائمة للظرف السياسي الحاضر.

مخاوف ناصر من مسألة الحكم الذاتي كانت معطوفة على خشيته من امتداد المطالب إلى "القطر السوري"، لكنه سرعان ما بدا مؤيداً للحكم الذاتي طبقاً لما نقله عبد الجليل صالح موسى في مؤلفه المهم (جمال عبد الناصر والقضية الكردية في العراق 1952 – 1970) عن الصحفيّ إيريك رولو حيث أكد ناصر أنه "لا أحد يستطيع إنكار وجود الشعب الكردي، بالنتيجة فهو لديه حقوق وإحدى هذه الحقوق هو المطالبة بالحكم الذاتي"

جذّرت مفاهيم "التحرّر الوطني" ومناهضة الاستعمار العلاقة القصيرة بين العالم القومي الكردي المتشكّل وبين "العروبة" التي غدت مع ناصر أكثر قوّة وحضوراً، لا سيّما في ظل تنامي أدوار تركيا وإيران والاتجاهات العربيّة الموالية للاستعمار، وفيما اعتبر ناصر حماية الأمن القومي العربي تمرّ بحضور الأكراد، سعت مصر إلى تفهّم التطلّعات القومية الكردية والتي إن تحقق جزء منها فإنها قد تشكّل قوساً بشرياً يمتد في سوريا والعراق من مشارف الاسكندرون وصولاً إلى حدود فارس، الأمر الذي قد يحصّن البلاد العربية من الرغبات التوسعية التركية والإيرانية المشفوعة بدعم غربيّ.

لم يتمتع بعثيو سوريا والعراق بالوعي المطابق للواقع الذي تحلّى به ناصر في خصوص القضية الكردية، تحذيرات ناصر للكرد من التعاطي مع شاه إيران الذي كان يسعى إلى استغلال الورقة الكردية، كانت دقيقة، ومخاوف ناصر من قضم تركيا لشمال سوريا كانت محقّة أيضاً، ولعل غياب ناصر أفسح المجال واسعاً لمغامرات البعثيين العدمية، واللذين تسببا في تخريب العلاقة الكردية العربية التي كان من الممكن أن تكون في وضع مختلف لو أنّها أكملت مشوار ناصر "التحرريّ"، بل إن البَعثين تسببا فوق الدمار العميم لدولتيهما، في تحقق أكبر كوابيس ناصر التي خشيها، حيث إيران تتحكم في تضاعيف الأمور في بغداد ومن ذلك أيضاً أنها باتت تتحكّم في مصائر كرد العراق، فيما جسّدت تركيا

كابوسه الآخر وباتت تستأثر بمناطق شاسعة من الشمال السوري، وعليه يبدو أن فكرة الأمن القوميّ العربي تمرّ بالقضية الكردية، وبالتفاهم بين شعبين آن لهما تجاوز عقدة البعث، والبحث عن المشتركات بعيداً عمّا يريده أخصام العرب والكرد لهما في ذات الوقت.

قد يستصحب مديح عبد الناصر خسارة واحدنا للنقاش الذي قد يأتي على قصص تمكين الجيش من الحياة المدنية والحكم، والحروب الخاسرة التي خاضها الرجل، وسواها من مسائل هي بنت زمانها، لكن في الصورة أيضاً، ثمة طيف آخر من الألوان، حيث مسائل التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية والبحث عن عروبة لا تستكين للغرب ولا للدول الإقليمية، ويبقى أن لنظرة كرد العراق وناصر لحل مشكلات الأقليات بالوسائل السلمية مثال على إمكانية جلب جملتين من تراث العلاقة الكردية العربية ووضعهما على طاولة التفاهم بين هذين الشعبين، وحسب واحدنا أن يرتضي ما ارتضاه الشاعر عبدالرحمن الأبنودي في مطلع قصيدة كتبها عن جمال عبد الناصر: من يمدحه يطلع خاسر.

## موقف حزب البعث من الكرد

فالناس الذين يقطنون في هذه المنطقة – التي من الواضح انها لاتضم العرب وحدهم- يعتبرون في منظور البعث عرباً، لغتهم الرسمية هي العربية. أما الذي يصر على انتمائه غير العربي، فمصيره هو الطرد، وذلك بموجب المادة الحادية عشرة من المبادئ العامة من دستور حزب البعث التي تقول: "يجلى عن الوطن العربي كل من دعى أو انضم إلى تكتل عنصري ضد العرب وكل من هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية وكل من هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية".

فالوطن العربي وفق منطوق البعث، وذلك بموجب المبدأ الأول من من المبادئ الأساسية في الدستور المعني هو للعرب، "ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته" .

## حزب البعث والمسالة الكردية

استناداً إلى ما تقدم، يمكن الوصول إلى استنتاج عام مفاده ان حزب البعث لا يقر بوجود أية شعوب أو اقليات قومية في اطار التحديد الذي يضعه بنفسه للوطن العربي، بل ان اية مطالبة كهذه من قبل الشعوب أو الأقليات بالحقوق القومية الديمقراطية توضع لدى البعث في خانة المؤامرات الاستعمارية التي تستهدف طاقات العرب ووحدتهم، واشغالهم بمعارك هامشية.

ولم يشذ التعامل مع المسألة الكردية سواء في العراق أو سورية عن هذا التوجه البعثي العام. فميشيل عفلق على سبيل المثال – الذي يعد الأب الروحي للبعث – رفض الموافقة على ضم الأعضاء الكرد في الحزب الاشتراكي العربي الذي كان يترأسه أكرم الحوراني، إلى الحزب الجديد، حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان حصيلة الوحدة بين حزبه وحزب الحوراني، وذلك في عام 1953.

ولم يكن هذا الموقف عابراً أو مجرد نزوة شخصية, بل كان توجهاً عاماً يدخل في اطار الرفض لوجود مشكلة كردية حقيقة سواء في العراق او في سورية؛ وهذا ما ذهب اليه عفلق نفسه في خطاب ألقاه في العاشر من جزيران عام 1969، اذ اتهم فيه "الحركة الكردية في العراق على وجه التحديد بأنها جزء من المخطط الامبريالي"

ويمكننا بشكل عام أن نميز بين مرحلتين في سياق تناولنا لموقف حزب البعث السلطوي من المسألة الكردية. المرحلة الاولى هي: مرحلة الرفض المطلق 1963–1970.

في هذه المرحلة كان الجهد البعثي مركزاً على ضرورة القضاء على الحركة الكردية، سواء في سورية أو العراق، وعلى رفض الوجود الكردي بالمطلق. . . وهذا ما انعكس على مختلف المستويات الاعلامية والسياسية اليومية؛ بل لقد وصل الأمر بالسلطات السورية في ذلك الحين إلى ارسال حملة عسكرية بقيادة فهد الشاعر عام 1963 إلى كردستان العراق للمساعدة في التخلص من الحركة الكردية هناك. . . .

أما المرحلة الثانية، فهي التي بدات مع استلام حافظ الأسد للحكم في سورية عام 1970. في هذه المرحلة التزم البعث الاسلوب النفعي في التعامل مع القضية الكردية اقليميا ، وذلك لتعزيز مواقعه في لعبة المعادلات الاقليمية، كما انه في الوقت ذاته اراد توجيه أنظار الكرد في كردستان سورية ، وسورية بصفة عامة نحو الخارج، سواء باتجاه كردستان تركيا أو كردستان العراق؛ ليؤكد أن الكرد في سورية هم مجرد أقلية مهاجرة، لاذت بالبلد هرباً من الابادة. هذا في حين ان التاريخ الحديث لسوريا يبين كيف رسمت الحدود الشمالية لسورية– الكيان السياسي بناء على اتفاقيات اعتباطية بين كل من تركيا وفرنسا ، خاصة اتفاقية فرانكلين بويون عام 1921 التي تم بموجبها الحاق جزء من كردستان بسورية. . .

إن السلطة السورية – التي يقودها رسمياً حزب البعث بموجب الدستور – تسعى بكل السبل من أجل توجيه أنظار الكرد في كردستان سورية نحو الخارج، وتعمل باستمرار بمختلف الحيل من أجل ارباك وضرب اي تفاعل أو حوار

حقيقي جاد بين القوى الكردية والعربية السورية. وقد كان الحل الأمثل للمسالة الكردية في سورية بوجب البعث هو الغاء الوجود الكردي بمختلف السبل، وترتكز هذه السياسة على جملة دعائم ابرزها:

1- الرفض الدستوري للوجود الكردي في سورية. فالدستور السوري لا يقر سوى بوجود العرب في سورية، ويعتبر الشعب السوري بأكمله جزءا من الامة العربية التي يعمل حزب البعث بناء على دستوره من أجل جمع شملها في دولة واحدة.

2- الحد من الوجود السكاني، وذلك يتمثّل بصورة أساسية في مشروع الاحصاء الاستثنائي الذي اجري حصراً في محافظة الحسكة التي تتميز بطابعها الكردي الغالب عام 1962، وجاء البعث ليتبنى نتائج ذلك الاحصاء المثير للجدل. وحسب تقديرات الحركة الكردية يبلغ عدد المواطنين الكرد الذين سجلوا في عداد الأجانب، إلى جانب الذين يعتبرون من المكتومين غير المقيدين، يبلغ عدد هؤلاء واولئك حوالي 300 ألف وربما أكثر.

3- سياسة سلب الأراضي من الكرد: وقد تجسّدت في قوانين الاصلاح االزراعي التي كانت بذريعة تحقيق توزيع عادل للأرض الزراعية ، إلا أنها في حقيقة الأمر كانت ترمي إلى حرمان الكرد منها، ومنحها تحت أسماء وذرائع شتى للعرب الذين استقدموا إلى المنطقة بحجج مختلفة؛ وقد شمل ذلك مختلف المناطق الكردية التي تشكل قوام كردستان سورية؛ وذلك في إطار مخطط عام يرمي إلى تغيير الطابع القومي للمناطق الكردية.

4- التعريب: وقد شمل أسماء المدن والبلدات والقرى، فضلاً عن المحلات والمواليد الكردية. كما ان الثقافة الكردية محاربة بكل أوجهها. لاتوجد دور نشر كردية. المجلات والجرائد الكردية ممنوعة. التعليم في مختلف مراحله بالعربية، بل يحظر على المرء استخدام اللغة الكردية في الدوائر الرسمية. وسائل الاعلام جميعها بيد الدولة.

5- الاهمال المنظم للمناطق الكردية: تعد المناطق في سورية من أكثر مناطق البلاد اهمالا وتعرضاً للنهب والفساد، وذلك بموجب سياسة مبرمجة منظمة اتبعها البعث منذ استلامه السلطة. ويمكننا في هذا المجال الاشارة إلى وصايا محمد طلب هلال – ضابط الأمن السوري البعثي في منطقة الجزيرة الذي قدم تقريراً أمنيا في صيغة دراسة عن محافظة الجزيرة من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية – الذي اقترح على سبيل المثال عدم انشاء مشاريع اقتصادية في المنطقة؛ وذلك بالتوازي مع عملية مصادرة الأراضي من الكرد، وجلب العرب إلى المنطقة. كما طالب هلال في الوقت ذاته بعدم توظيف الكرد، ودعا إلى محاربة الثقافة الكردية، وشدد على ضرورة خلق مختلف الظروف لاجبار الناس على الرحيل والهجرة، إما باتجاه الداخل السوري أو الخارج سواء الاوربي أو الأمريكي أو غيرهما . . . .

والجدير بالذكر هنا ان كل هذه الاقتراحات قد نفذت، بل لقد اضيفت اليها اجرءات تمييزية اخرى كثيرة، تستهدف باستمرار عرقلة التطور الاقتصادي الاجتماعي في المنطقة. هذا على الرغم من أن الثروات الأساسية لسورية تأتي من المناطق الكردية، خاصة منطقة الجزيرة موطن البترول والحبوب والقطن، إلى جانت منطقة عفرين حيث الزيتون والأشجار المثمرة، والأمر نفسه بالنسبة إلى منطقة كوباني. .

هناك العديد من المناطق في سورية لايسمح للكرد أن يشتروا عقارات أو أراضي زراعية فيها . كما ان المعاملات العقارية الخاصة بالكرد في المناطق الكردية تعرقل كثيرا بقصد ترك الامور في فوضى عارمة لغايات تضمرها الدولة؛ فحالات حصر الارث وشراء البيوت والأراضي وانشاء المشاريع الاقتصادية تستلزم جميعها الموافقات الأمنية، إلى جانب موافقات الوزارات التي لاتعطى، بل تؤجل من دون تسويغ أو تحديد للسقف الزمني. . . . .

الطلبة الكرد لايستفيدون من البعثات الدراسية سواء الداخلية منها أو الخارجية. كليات الجيش والشرطة مقفلة في وجه الطلبة الكرد. الادارة حتى على مستوى مدراء النواحي لاتعطى للكرد. لاينفسح المجال أمام الكرد بأي اسهام في السلطات الثلاث التشريعية، التنفيذية، القضائية، هذا على الرغم من شكلية هذه السلطات الخاضعة لهيمنة البعث والأجهزة الأمنية. . . .

التفصيلات في هذا الميدان كثيرة وكثيرة جدا، لذلك سأكتفي بما سلف؛ ولكن قبل أن انهي هذه الورقة أود أن أركز على المفارقات التي تحكم موقف السلطة السورية البعثية من المسألة الكردية في سورية. فالسلطة المعنية لاتعترف بالوجود الكردي في سورية، لكنها في المقابل تضطهد الكرد استنادا إلى انتمائهم القومي. .

المفارقة الثانية تتجلى في الاضطهاد المزدوج الذي يتعرض له الشعب الكردي في سورية. فالكرد لايتمتعون بأية حقوق قومية ديمقراطية مشروعة مثل الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والادارية، لكنهم في الوقت ذاته يتعرضون لمختلف الاجراءات الاضطهادية التي تستهدف وجودهم القومي، وترمي إلى صهرهم في بوتقة القومية العربية، الاسلوب الوحيد الذي يقترحه دستور حزب البعث لمعالجة وضع المكونات غير العربية ضمن الدولة العربية المنشودة.

المفارقة الثالثة، تتشخص في رفض السلطة البعثية لوجود الكرد أرضاً وشعباً في سورية، واشتراكها في الوقت عينه في سائر الجهود الاقليمية التي تستهدف الحاق الأذى بالشعب الكردي.

## الأكراد في عهد الأسد

ورقة قومية للابتزاز

من الطبيعي لرجل أستغل حزب البعث القومي للوصول الى الحكم أن يرفس كل ما تنص عليه سياسة الحزب برجليه فهذا الرجل حول حزب البعث نفسه الى كيان شكلي لا وجود له على أرض الواقع فلقد انتهت مصلحة الأسد مع الحزب الذي أوصله للسلطة وكعادته وفي سبيل تحقيق هدفه الأوحد بعد وصوله للسلطة وهو الأحتفاظ بها حتى وفاته ومن ثم توريثها لمن بعده لذلك فكان يستغل كل مسألة سورية او قضية ويجيرها لحسابه وهدفه .

ولقد وجد في أكراد سورية باعتبارهم القومية الثانية بعد العرب وجد فيهم ضالته المنشودة للعب بمصيرهم كورقة ابتزازية رابحة ولنرى ما فعله في هذا المجال :

أولا : استغلال الأكراد في شمال شرق سورية للوقوف قي وجه المد البعثي العراقي وشعبية صدام حسين فيها التي تنامت بعيد الحرب العراقية الأيرانية وذلك من عام 1980 وحتى العام 1992 حيث سمح للأكراد وبالتوظيف وقام بأجراء دراسة حول موضوع تجنيسهم وشكل لجنة لذلك وقد تم تجنيس 200 ألف الأكراد وصدر المرسوم في عهد الأسد الأبن وأدخلهم البرلمان بل خصص القواعد الأربعة العائدة لفـءة المستقلين في من محافظة الحسكة لهم وحرم من البرلمان يومها من أي تمثيل للعرب في مجلس الشعب على الرغم من أغلبيتهم الساحقة .

كما عمد للسماح لهم بتأسيس الأحزاب الكردية المختلفة والتي بلغ عددها 14 حزبا وحركة كردية في حين لم يكن هناك للعرب سوى حزب البعث أمامهم وهو كما قلنا قد حوله الى جثة هامدة .

ثانيا : استغلال حزب العمال الكردستاني التركي وتسخيره للعب في شؤون تركيا الداخلية واللضغط والمساومة

فلقد دعم بشكل علني عبدالله اوجلان الانفصالي المطلوب في تركيا وأقام له معسكرات التدريب في غوطة دمشق وسمح لعناصره بالتسلل الى تركيا عبر الحدود وبمساعدة مخابراته للقيام بأعمال التفجير والعنف وقد ذهب ضحايا ترك نتيجة ذلك مما دفع بالحكومة التركية الى وضع قواتها على الحدود السورية وأنذرت الأسد بضرورة تسليم أوجلان أو أنهاستقوم بغزو سوريا فأستجاب الأسد لمطالب تركيا وطرد أوجلان وجماعته من سوريا وأغلق معسكراتهم .

ثالثا : اتبع الأسد الأبن ذات سياسة والده وقد لجأ الى اللعب بالورقة الكردية الأوجلانية رغم اتفاقه مع الترك باتفاقية أضنة على اغلاق هذا الملف فلقد أفرج عن زعيمهم صالح مسلم ومنحه ملايين الدولارات من أملاك أوجلان المودعة في البنوك السورية وسخر له الفروع الأمنية ومده بالسلاح في سبيل تحقيق هدفين أولهما تسليطه علىالأكراد الوطنيين المخلصين الذين بدأوا يتحركون مع بقية السوريين في مظاهرات ضد النظام الطائفي فقامت جماعات البدا بتأسيس وتكوين نفسها بسرعة غريبة وقامت علىالفور نيابة عن الأمنالسورية باعتقال النشطاء الكرد وقتلبعضهم مثل مشعل تمو كما قامت بوضع يدها على الأحياء الكردية في حلب والبلدات والقرى الكردية شيئًا فشيئًا حتى استطاعتأن تكون القوة الكردية المسيطرة الوحيدة وهكذا ساهمت في اخماد الثورة الوطنية السورية في الجزيرةوعين العرب ورأس العين وغيرها من البلدات .

وبدأ هذا الحزب الكردي الأرهابي بمهمته الثانية وهي زعزعة الأوضاع الأمنية في المناطق الجنوبية والشرقية التركية وخاصة قد أصبحت هذا الحزب بكل قوته ونفوذه بمواجهة مباشرة معهاولقد حدثت الكثير من المواجهات بينهما مما أجبر تركيا علىالقيام بعدة عمليات عسكرية مصيرية لوقف نفوذ هذا الحزب الأرهابي ولا زالت تركيا تعتبر جماعات أوجلان الخطر الأكبر لها وخاصة بعد انتشاره على الحدود السورية بمواجهه مباشرة معهاز

ويوجد في سوريا عدد من الأحزاب الكردية، بعضها قريب من البارزاني والحزب الديمقراطي الكردستاني (العراقي) وبعضها الآخر قريب من جلال الطالباني وحزب الاتحاد الوطني الكردستاني (العراقي)، أما القسم الآخر فيضم جمهوراً واسعاً وعريضاً، وهو قريب من حزب العمال الكردستاني PKK (التركي) وزعيمه عبد الله أوجلان، إضافة إلى حركات وتيارات أخرى بعضها أقرب إلى اليسار.

الأكراد من ورقة يلعب بها الى اللعب المباشر والعمالة

لقد حول حزب العمال الكردستاني القومجي الأرهابي خدماته واستغنى بقدرة قادر عن معلمه الصغير بشار الأسد وراح يقدم خدماته مباشرة لما يعتبر اليوم سيد العالم وهو أمريكا ولقد صدق رواياته التي ترويها محطاته الفضائية والاذاعية عن الحلم الكردي في تحقيق خرافة كردستان الكبرى الممتدة على مئات الألوف من الكيلومترات المربعة

وصار مثله مثل حزب البعث القومجي في هذه الدعوات البراقة التي الغاية منها شحن مؤيديه ودغدغة أحلامهم حتى أن الكثير من الكرد يطلق عليهم حزب البعث الكردي وأنما يقوم به هذا الحزب يشكل خطرا ماحقا بالجميع ولا يستثني أحدا وهذا الأمر لا يهم قادته الذين جلهم من المنتفعين والمرتزقة والمجرمين .

## ثالثا

## التعصب القبائلي والعشائري

**الحديث عن** عن القبائل والعشائر في سوريا حديث طويل وسنحاول في هذا المحور الاختصار قدر الأمكان في تبيان الدور القبلي والعشائري في المجتمع السوري وهو دور بارز ومؤثر .

القبيلة من ركائز المجتمع السوري

التواجد القبلي والعشائري توجد موغل بالقدم وذلك بسبب التواجد العربي القديم في سورية وبلاد الشام منذ قبل الإسلام وقد ازداد هذا الوجود مع الفتوحات الإسلامية حيث وفد مع الجيوش الإسلامية العديد من القبائل العربية ساهمت في تشكيل الأمصار والمناطق .

لقد كانت الحياة العامة للقبائل العربية هي الاعتماد على الرعي والتنقل وهذا الشبب الذي جعل أكثر هذه القبائل تتمركز بالقرب من الأنهار والعيون والمناطق الممطرة وخاصة في مناطق الجزيرة الفراتية وأنهار العاصي واليرموك وغيرها من المسطحات المائية .

تنوع القبائل العربية والعشائرية

لا يمكن حصر التعداد الفعلي والكامل لأسماء القبائل والعشائر وقد حاول أحد الباحثين وهو أحمد صفي زكريا في كتابه وهو كتاب عشائر الشام أن يتحدث عن العشائر و القبائل العربية في سوريا، وعن أصولها وفروعها، وعادتها وتقاليدها وعُرفِها وطباعها، وخصوماتها وحروبها، ويتحدث عن بدو سوريا ووطنياتهم وخياناتهم، وطُرُق معيشتهم، ومصايفهم ومشاتيهم، ومن القبائل التي يذكرها: العقيدات –الجبور– طيء– عنزة– شمر – الدليم – الموالي – الحديدين، والبقارة والنعيم والبوشعبان والولدة والعفادلة وغيرها . وهو يصيب أحياناً كثيرة، ويخطئ أحيانا، وفي الكتاب معلومات موثوقة، ومعلومات غير صحيحة، فالرجل لم يكن بدوياً، ولذلك لم ينصف البدو، وإنما أخضع الكتاب لمزاجه في بعض الأحيان، ولاجتهاده أحيانا أخرى، ومع هذا فإن الكتاب لا يخلو من الفائدة العظيمة خاصة في توثيق حروب القبائل ومعاركها وثوراتها ويتألف الكتاب من قسمين.

القسم الأول

صدر هذا القسم عام 1945م في موضوعات متعددةٍ، فيتحدث عن ما أُلِف عن البدو، وعن جغرافية ديارهم، وتاريخهم، وأقسام قبائلهم، وهجراتها القديمة منذ الجاهلية وصدر الإسلام، وعن بدو الشام الأولين، وتطور تلك القبائل على مرَ العصور ثم يتحدث عن أوصاف البدو، وحالاتهم الاجتماعية، وتأثير المناخ فيهم، وما قاله في حقهم ابن خلدون. وعن تقاليدهم، وأعمالهم ومهنهم، وعن تشريعاتهم، ومحاكمهم، ودعاواهم، وعن الحقوق الجزائية لديهم.

القسم الثاني

صدر هذا القسم عام 1947 م وتم تخصيصه لتعداد كل قبيلة من من قبائل وعشائر الشام، فتحدث عن عشائر محافظة دمشق، فعشائر محافظة حوران، فجبل الدروز، فمحافظة حمص، فعشائر لبنان، فاللاذقية، فحماة، فحلب، فجبل سمعان بأقضيته، فمحافظات الفرات(ديرالزور والرقة)، فمحافظة الجزيرة الفراتية وخُتم الكتاب بالحديث عن العناصر غير العربية في البلاد الشامية، كالأكراد، والتركمان، والشركس، والداغستان، والشيشان.

القبائل والسلطات المركزية

تأثّرت الحياة السياسية للمجتمعات المحلية القبلية على نحو عميق بالسلطة المركزية منذ ستينيات القرن التاسع عشر، حين بدأت الإمبراطورية العثمانية بتشكيل قاعدة إدارية دائمة في شرق سورية، كجزء من الموجة الثانية من برنامج التنظيمات وقد أسفر كلٌ من وجود السلطة العثمانية وعمليات منحُ الأراضي، عن تحفيز بعض القبائل على الاستقرار والقبول بتكليف ضريبي مُنتظم. وهكذا، حصل عدد من القبائل شبه المستقرة على أراضٍ خصبة على طول نهري الفرات والخابور، وعمدت إلى زراعتها في مقابل دفع مكوس على نسبة من إجمالي المحصول وإعفاء أبنائها من الخدمة العسكرية.

لا بل وصلت التأثيرات حتى إلى تلك القبائل التي لم تستقر، بسبب تزايد توغّل السلطة الامبراطورية. إذ أقامت السلطات العثمانية مخافر الشرطة والقلاع في المناطق التي كانت تجول فيها القبائل في السابق بحرية، وجعلت جنودها يميلون إلى هذا الجانب أو ذاك في النزاعات الداخلية القبلية، ودفعت رواتب لمشايخ القبائل، ماشجع على التنافس لنيل حظوة المحسوبيات العثمانية.

وسّعت السلطات المركزية في ظل الانتداب الفرنسي سيطرتها. كان هدفها أولاً منع توغّل البدو في المناطق الحضرية الغربية، عبر التدخل لمنع غزوات القبائل وفرض الاتفاقيات لإبقائها خارج المدن. لكن، في أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، سعى الفرنسيون إلى إعادة تشكيل المجتمع القبلي برمته، فدفعوا الإعانات المالية لمشايخ القبائل، وخصّوا قبائل مختلفة بأراضي رعي وحقوق ملكية، ومنعوا أفراد القبائل من حمل الأسلحة في المناطق المُستوطَنة، وأجبروهم على دفع الضرائب.

عنت الإعانات الحكومية للقبائل أن المشايخ أضحوا أقل اعتماداً على طاعة أفراد القبيلة لترسيخ سلطتهم، وبدأوا يركنون إلى قدرتهم على توزيع الحصص والمحسوبيات.

هذه الاختراقات قلّصت سيطرة مشايخ القبائل بطريقتين: فقد أدى تزايد استتباب الأمن بفعل توسُّع الدولة إلى تقليل حاجة القبائل إلى الانخراط في عمل جماعي لتوفير الحماية لها، ما قلّص الحاجة إلى المشايخ لتنسيق عمليات الدفاع الذاتي. هذا علاوة على أن الإعانات الحكومية للقبائل عنت أن المشايخ أضحوا أقل اعتماداً على طاعة أفراد القبيلة لترسيخ سلطتهم، وبدأوا يركنون إلى قدرتهم على توزيع الحصص والمحسوبيات.

تمثّل هذه التغييرات أكثر ماتتمثّل في قبيلة الحسنة التي تتمركز في وسط سورية قرب مدينة حمص. تمتعت هذه القبيلة منذ وقت طويل بمنزلة رفيعة لأنها جزء من اتحاد عنزة القبلي القوي تاريخياً، ولها روابط قُربى مع أسرة آل سعود التي تبسط حكمها على السعودية. وقد بدأت وحدات العائلة الممتدة في الحسنة، بتأثير من الحقائق القبلية المتغيّرة، بالهجرة من تلقاء نفسها في حقبة الثلاثينيات، لأن التواجد المُعزّز للدولة جعل الحماية التي توفّرها الهجرة المنسّقة غير ضرورية.

خلال سنوات الانتداب الفرنسي، حوّلت الدولة مجموعة من المشايخ القبليين إلى أغنياء فاحشي الثراء عبر جعلهم من كبار الملاّك. وحين سعت السلطات إلى تسجيل ملاّك كل الأراضي في البلاد، فيما كان العديد من أفراد القبائل والفلاحين تواقين إلى تجنّب دفع الضرائب التي ترافق عملية التسجيل، عمد مشايخ القبائل إلى تسجيل قرى برمتها باسمهم. وعلى سبيل المثال، سجّل شيخ قبيلة الحسنة، طراد الملحم، وحده أكثر من 20 قرية باسمه.6 لكن افتقاد مشايخ القبائل إلى السلطة السياسية جعلهم معتمدين على إنفاذ الدولة لحقوق الملكية للحفاظ على ثرواتهم.

مع رحيل الانتداب الفرنسي العام 1946، جرى تقليص هذه المزايا، ما حوّل المشايخ إلى مجرد وسطاء بين الدولة المستقلة وبين أفراد القبائل. وفي العام 1956، ألغت الدولة السورية قانون القبائل الذي منح العشائر البدوية وضعية قانونية مستقلة، بما في ذلك حق حمل السلاح.7 كما أسفرت الوحدة بين سورية ومصر العام 1958، ثم سيطرة الجناح الراديكالي في حزب البعث (1963 – 1970) على السلطة، إلى اطلاق جهود كاسحة من قبل الدولة (بدافع من الالتزام الإيديولوجي باقتلاع الطبقات القديمة القويّة)، هدفت إلى مواصلة تقليص سيطرة القادة القبليين على أفراد قبائلهم والحد من حيازتهم للأراضي.

ترافق استقلال سورية عن فرنسا مع تنامي أهمية الثروات الزراعية والطبيعية في منطقة الجزيرة والفرات، ثم مع اكتشاف الثروات الباطنية كالنفط والغاز، وهو ما جعل المنطقة محل اهتمام كبير، إضافة إلى موقعها الجغرافي المهم بحدودها مع العراق شرقًا وتركيا شمالًا. لكن السلطات السورية التي جاءت بعد الاستقلال ضيّقت بعض الشيء على المكون العشائري؛ ففي عام 1953 ألغى البرلمان قانون العشائر الذي جرى إقراره إبان الاحتلال الفرنسي لسورية[7]، ثم جاء زمن الوحدة وما شهده من قوانين أثّرت تأثيرًا مباشرًا في ملكية شيوخ العشائر، منها قانون الإصلاح الزراعي[8] الذي أدى إلى تراجع سلطة شيوخ العشيرة على نحو واضح. إضافة إلى ذلك، شهدت فترة الانقلابات تضييقًا واضحًا على شيوخ العشائر، بل إن بعضهم تعرّض للاعتقال والتعذيب بسبب مواقفه السياسية[9].

ثانيًا: العشائر والبعث

أنشأ حزب البعث، عند وصوله إلى السلطة، تحالفًا مع شيوخ العشائر مكّنه من الحصول على دعمهم، إلا أن العلاقة ما لبثت أن توترت بسبب تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الذي كانت نتيجته تجريد شيوخ العشائر من ممتلكاتهم وأراضيهم[10]. وعلى الأثر، بدأت المنطقة تشهد هجرة أبناء العشائر إلى المدن الأمر الذي أدى إلى اهتزاز العلاقة بين حزب البعث وشيوخ العشائر الذين فقدوا بعضًا من نفوذهم الاقتصادي ما أثّر في مكانتهم الاجتماعية والسياسية.

لقد تبنّى البعث سياسة تهدف إلى ضبط المكون العشائري وتهميش قياداته التي حاولت الحفاظ على هامش من الاستقلالية، مستخدمًا كل الوسائل المتاحة بما فيها بناء التحالفات وشراء الولاءات، والتضييق والترهيب. وقد تكرّست هذه السياسة مع وصول حافظ الأسد إلى السلطة، بمحاولته استمالة بعض شيوخ العشائر والتحالف مع بعضهم ضد آخرين، فجرى تخصيص مقاعد لشيوخ العشائر ووجهائها في مجلس الشعب، حافظ بعضهم عليها عقودًا من الزمن، مثل ما حصل مع شيخ عشيرة العكيدات عبود جدعان الهفل الذي حافظ على مقعده في مجلس الشعب حتى وفاته، ثم تقلّد المشيخة بعد ذلك ابنه خليل عبود الهفل الذي بقي محافظًا على مقعد العشيرة في مجلس الشعب طوال ستّ دورات متتالية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى شيخ عشيرة البوحسن فيصل النجرس الذي كان عضوًا في مجلس الشعب، ومن ثم بعد وفاته حاز المقعد ابنه صفوك النجرس، وكذلك المقعد المخصص لعشيرة الحسون بزعامة شيخ العشيرة دحام الدندل، وتقلّد المشيخة بعد ذلك ولده أيمن.

كان بعض هذه التحالفات يتغير كلما تغيرت الأوضاع، على غرار حالة راغب البشير شيخ عشيرة البكارة الذي كان متحالفًا مع القيادي البارز في حزب البعث جلال السيد ثم ورث نواف البشير المشيخة عن أبيه راغب بعد وفاته، ليستمر نواف في التحالف مع البعث، وقد أصبح عضوًا في مجلس الشعب خلال المدة 1990–1994، قبل أن ينتقل إلى المعارضة بعد خروجه من المجلس ويصبح من أبرز الشخصيات الموقّعة على إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي عام 2005، وعضو اللجنة التحضيرية لمؤتمر الإنقاذ الوطني عام 2011[13]. وحينما انطلقت الثورة السورية شارك في المظاهرات فاعتقله النظام، ثم عاد إلى مصالحته في عام 2017، وشكّل ميليشيا الباقر بالتنسيق مع القوات الإيرانية الموجودة في المنطقة[14].

أولى النظام السوري تحالفاته العشائرية في منطقة الجزيرة اهتمامًا كبيرًا، خاصة منها عشيرة العكيدات التي تتألف من تحالف عشائري كبير يضم عشائر البوخابور والبوسرايا والبورحمة والبوحسن والقرعان والجراح والدميم والمراشدة والدليج والشويط والشعيطات والبكير، وهم يتوزعون على مناطق مختلفة من المنطقة الشرقية، خاصة محافظة دير الزور. ونظرًا إلى الوزن العشائري لهذه العشيرة، فقد كان لها ممثلون دائمون في مجلس الشعب السوري، إضافة إلى عشائر أخرى كبيرة تنتشر في منطقة الجزيرة والفرات كالبوشعبان والعفادلة والجيس والبوعساف وزبيد والبوليل والكلعيين والمعامرة والخرشان والبوشلهوم والراويين والدليم، والعديد من العشائر الأخرى. وفي العادة، تبقى المشيخة ضمن الأسرة ذاتها، كما في حالة عشيرة العكيدات التي بقيت فيها المشيخة تاريخيًا ضمن بيت الهفل، إلا في حالات نادرة تنتقل إلى شخص آخر، غالبًا، بتشجيع من السلطة السياسية.

وغذى النظام السوري الانقسامات داخل "بيوت المشيخة" في أغلب عشائر المنطقة الشرقية، فغالبًا ما نجد تنافسًا بين شخصيتين من العشيرة نفسها على الزعامة والمشيخة، وربما في أحيان كثيرة يحدث هذا التنافس ضمن حلقة أضيق قليلًا، كالتنافس ضمن "الفخذ الواحدة"، خاصة عند كل دورة انتخابية لمجلس الشعب، وهو ما كان سببًا أساسيًا لوجود توجهات مختلفة لدى وجهاء العشائر حين اندلعت الثورة السورية.

تفاعلت القبائل منذ القرن التاسع عشر مع سلطة مركزية قوية في سورية. وأدّى ذلك إلى تغيّر العلاقات القبلية، إذ قلّص قدرة المشايخ على تعبئة قبائلهم. مع ذلك، لم يلغِ ذلك سلطتهم الرمزية المتأتية من أنسابهم ومن التقاليد القبلية.

خسر نظام الأسد عقب انتفاضة العام 2011 السيطرة على جزء كبير من شرق سورية، التي تقطنها القبائل أساساً، الأمر الذي شرّع الأبواب أمام لاعبين سياسيين جدد، من بينهم الجماعات الإسلامية المتطرفة، للإفادة من الانقسامات القبلية وترقية مصالحهم الخاصة.

عزل النزاع السوري العديد من المجتمعات القبلية المحلية. فقد دفعت الحاجة إلى الأمن، فضلاً عن بروز فرص لتحقيق مكاسب مادية، بهذه المجتمعات إلى التركيز على واقعها الداخلي، ما أدّى إلى إضعاف العلاقات القبلية الأوسع.

ستبقى القبائل مهمة للحياة السياسية في شرق سورية، لكن يحتمل أن تظل تحت سطوة ونفوذ قوى من خارجها.

ليس باستطاعة المشايخ تمثيل قبائلهم بالكامل سواءً على الصعيد السياسي أو العسكري. مع ذلك، سيواصلون لعب دور الوسطاء في عمليات المصالحة المحلية، مساهمين بذلك في إرساء الاستقرار في المناطق التي يسكنها أفراد قبيلتهم.

تعني عزلة المجتمعات المحلية القبلية التي تسببت بها سنوات من الصراع أنه من أجل نجاح أي نظام في مرحلة ما بعد الصراع، لابدّ من أن يحقق مصالح القبائل المحلية ويعالج أي خلاف قد ينشأ بينها.

سعت القوى الخارجية كافة في شرق سورية إلى تقويض الوحدة القبلية، خوفاً من أن تنقلب هذه الوحدة عليها. مع ذلك، قد تتمكّن الأطراف القبلية الحائزة على مواقع القوة من تحقيق مكاسب، إذا ما أدركت أن فرص اقتدارها على بلورة نظام ما بعد الحرب في شرق سورية، يعتمد على قدرتها على التوحّد حول القضايا ذات الاهتمام المشترك.

أضاف صعود حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي في محافظة الحسكة بعداً كردياً عربياً، على الانتفاضة ضد نظام الأسد . لذا لابدّ من أن يضمّ أي حلّ دائم للصراع السوري الأكراد، بالإضافة إلى القبائل العربية هناك، التي بقيت غالباً موالية للنظام.

## القبائل في سورية اليوم

تركّز الاهتمام الدولي مؤخراً على القتال في غرب سورية، خاصة في المناطق الحَضَرية الممتدة من دمشق إلى الحدود التركية الأردنية. بيد أن الديناميكيات في شرق سورية لن تكون أقل أهمية بالنسبة إلى مستقبل البلاد .

ففي تلك المنطقة، التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة يشنّ غارات جوية ضد الدولة الإسلامية المُعلنة ذاتيا، وتخوض تركيا غمار معركتها الخاصة ضد كلٍ من الدولة الإسلامية والأكراد في إطار عملية درع الفرات؛ فيما تنخرط قوات سورية الديمقراطية التي يسيطر عليها الأكراد في حمأة حملة مدعومة أميركياً لتحرير مدينة الرقّة من قبضة الدولة الإسلامية. هذا علاوة على أن النظام السوري يحتفظ بوجود في المدن الرئيسة في المنطقة: دير الزور والحسكة والقامشلي.

ثمة ضرورة لفهم التركيبة الاجتماعية لهذه المساحة الجغرافية الشاسعة، في ضوء تقاطع المصالح المُتعددة السورية والإقليمية في تلك المنطقة، كمدخل لاستطلاع آفاق المحصلات السياسية المُستقبلية هناك.

يتحدّر شطر كبير من السكان الذين يقطنون شرق سورية من أصول قَبَلِيَة. والقبيلة، في السياق السوري، هي وحدة اجتماعية– سياسية تقوم على العائلات المُمتدة التي تستوطن أراضٍ محددة، تكون عادة بلدات برمتها أو أحياء في المدينة [1]. وقد سعت القوى الخارجية منذ اندلاع الانتفاضة السورية في العام 2011، إلى استقطاب الدعم القبلي لتحقيق أهدافها السياسية والعسكرية، فتحالفت مع مشايخ القبائل واستخدمت البنية القبلية لتشكيل وحدات مقاتلة. بيد أن قبائل سورية لم تعد مُوحّدة داخلياً ومُستقلة اجتماعيا، بعد أن ارتبط دورها السياسي على نحو وثيق، ومنذ أجيال عدة، بالسلطة السياسية. وهذه الحقيقة أعادت تعريف الطريقة التي يَنتظِم بموجبها السوريون من ذوي الأصول القبلية سياسياً واجتماعياً. بكلمات أوضح: حين تنامت السلطة المركزية في غضون القرنين التاسع عشر والعشرين، أضحى القادة القبليون على نحو متزايد وكلاء الدولة والناطقين باسمها في سياق إدارتهم لمناطقهم. وهذا ما ضعضع مواقعهم أمام أبناء قبائلهم، وسمح للسلطة المركزية بالعزف على وتر التناقضات بينهم في خضم تنافسهم على نيل حظوتها.

يصطدم كل من يسعى إلى التعاطي مع التمثيل السياسي لقبيلة برمتها بمعضلة.

واليوم، يصطدم كل من يسعى إلى التعاطي مع التمثيل السياسي لقبيلة برمتها بمعضلة. فالتركيبة القبلية تبدو ظاهرياً متماسكة، ربما كما كانت قبل أجيال، حيث التراتبيات الرسمية لاتزال موجودة، وأعضاء العائلات الرئيسة يواصلون التربّع على قمّة الهرم الاجتماعي. ثم أن هذه القبائل تواصل السُكنى في المناطق الشاسعة نفسها في سورية كما كانت تفعل قبل تأسيس الدولة السورية الحديثة. لكن الواقع أن العلاقات في داخل القبائل تغيّرت كلّياً حين تُقارن بالحقبات

السابقة، إذ تبخّر ذلك الزمن الذي كان فيه شيخ قبيلة قادراً على إبرام الاتفاقات مع قوى خارجية نيابة عن كل أفراد قبيلته.

لم تعد القبائل، كما كانت تُفهم عادة، تُشكّل أساس المشاريع السياسية في سورية. وعلى الرغم من أن هياكلها لم تتغيّر، إلا أنها توقفت عن احتلال الموقع الأرفع في الحياة السياسة والاجتماعية للمجتمعات المحلية. ثم أن العلاقة بين القادة التقليديين للقبيلة وبين أفرادها، تماماً كما العلاقة بين هؤلاء القادة وبين سلطات الدولة، تستند إلى حد بعيد اليوم إلى مصالح كل طرف وليس إلى القواعد الرسمية للسلوك القبلي.

ثمة هنا نقطة أخرى لاتقل أهمية: فقد كان للنزاع الذي اندلع العام 2011 مضاعفات مُدمرّة على المجتمعات المحلية في طول سورية وعرضها، خاصة منها الكيانات المُجتمعية ذات الأصول القبلية في شرق سورية. فالجماعات المُتطرفة على غرار الدولة الإسلامية وجبهة النصرة (المعروفة الآن بجبهة فتح الشام) رسخت جذورها في هذه المناطق، وأضفت غالباً البُعد القبلي على تشكيلاتها. وهكذا، انطوى القتال الذي انغمست في حمأته هذه الجماعات على هويات وولاءات قبلية، ما ألحق الضرر بالتماسك الاجتماعي، وعَزَلَ المجتمعات المحلية عن بعضها البعض، كما بهّت فرص التضامن وفق الخطوط القبلية.

إضافة إلى ذلك، نزح العديد من مشايخ القبائل عن أراضيهم، فيما أجبر العنف وبروز الجماعات الإسلامية المتطرفة أبناء قبائلهم الذين بقوا في شرق سورية على التركيز على همومهم المحلية المباشرة المتعلقة بأمنهم وبالحفاظ على البقاء. كل هذا شجّع الأطراف السياسية الكبرى على التنافس في مجال التعاطي مع القبائل. وهكذا، حين كان طرف ما

يعزّز أجندته مع شيخ قبيلة، كانت الأطراف التي تنافسه تعمد إلى الردّ على ذلك بمناورة مضّادة مع قبائل مجاورة، أو مع قادة آخرين في القبيلة نفسها . صحيح أن القبائل ستبقى مهمة للحياة السياسية في شرق سورية، لكن يحتمل أن تبقى تحت سطوة ونفوذ قوى من خارجها .

القبائل في حقبة الأسد: " أَعْطِ الولاء وافعل ماتشاء"

عمد حافظ الأسد إلى تلطيف مقاربة حزب البعث لمسألة القبائل بعد أن تسنّم مقاليد الأمور العام ١٩٧٠، فاستلحق شيوخ القبائل في النظام السياسي الجديد وسمح لهم بممارسة درجة أكبر من النفوذ على المجتمعات المحلية ذات الأصول القَبَلِيَة، كما أغدق عليهم مزايا معيّنة.

كان حزب البعث قبل العام ١٩٧٠ قد نسج روابط مع العناصر القَبَلِيَة الأكثر عُرضة إلى الاضطهاد، وقلّص ملكيات الأراضي الشاسعة التي حاز عليها الشيوخ، وأفسح المجال أمام الأفراد القبليين العاديين للتدرُّج في مناصب السلطة، من خلال الانضمام إلى الحزب والترقّي في مؤسسات الدولة. بيد أن البعث في ظل الأسد أعاد زمام السلطة إلى الشيوخ القبليين، عبر منحهم سيطرة غير رسمية على مجتمعاتهم المحلية وزيادة تعييناتهم في البرلمان.

وهكذا، على سبيل المثال، قبل العام ١٩٧٠، جاء رئيس مكتب اتحاد الفلاحين في الرقة (وهي إدارة حكم محلي مهمّة)، ورئيس فرع حزب البعث في الرقة، من أصول اجتماعية متواضعة. الأول تحدّر من عبيد شيوخ قبيلة العفادلة، فيما كان الثاني ابن بائع خضار. وهذان، مثلهما مثل العديد من قادة البعث، كانا جزءاً من أول جيل سوري يأتي من الأطراف ويحظى بتعليم حديث. وبالمقارنة، احتل شيخان من العفادلة مقعدين في البرلمان بعد وقت قصير من تسنّم حافظ الأسد منصب الرئاسة.8

علاوة على ذلك، منحت ترتيبات غير رسمية شيوخ القبائل نفوذاً بطريقة أقل علانية. وكان هذا واضحاً في المسائل المتعلقة بخفارة الجرائم الخطيرة. ففي حين كانت الشرطة تتدخّل في الجنايات الصغيرة، إلا أنها لاتفعل ذلك في حالات القتل أو الاغتصاب، وتترك إلى مشايخ القبيلة والعشيرة معالجة هذه المسائل بأنفسهم. وثمة قول شائع في الرقة يصف سياسة النظام بهذه الطريقة: " أَعْطِ الولاء وافعل ماتشاء"،9 وقد تواصلت هذه الممارسات بعد وصول بشار الأسد إلى سدة الرئاسة العام 2000، ففي ذلك العام، صدر مرسوم بخصخصة كل مزارع الدولة، وسمح لشيوخ القبائل الذين خسروا ملكياتهم الكبيرة خلال عملية توزيع الأراضي في الستينيات باستعادتها، وحتى أيضاً زيادة الأراضي الحائزين عليها.

بيد أن علاقات المحسوبية هذه التي نزلت برداً وسلاماً على صدور المشايخ، لم تحقق سوى النذر اليسير للمواطنين السوريين العاديين من ذوي الأصول القبلية. فالخدمات حيث يقطنون، ولازالوا، تُعتبر متخلفة بشكل فاحش قياساً بمناطق سورية الأخرى، ولايحظى سكانها سوى بحفنة من وظائف الإدارة العامة السخية، على عكس الأجزاء الأخرى من البلاد. ووفقاً لآخر الإحصاءات (العام 2004)، وظّفت الدولة السورية 31 في المئة من إجمالي القوة العاملة في البلاد. من هذه النسبة، كان 22 في المئة فقط من البلدات التي جاء سكانها من أصول قبلية. 11 وبالمثل، وعلى الرغم من أن عدد الأطباء لكل شخص ازداد، لازالت الفجوة عميقة بين المدن الكبرى وبين مناطق القبائل. ففي العام 2010، كان هناك طبيب لكل 372 مقيماً في محافظة دمشق، بالمقارنة مع طبيب لكل 1095 مقيماً في محافظة الرقة. 12

يوفّر النظام المكانة والمزايا المالية للمشايخ الموالين له، وهؤلاء يسهّلون إذعان السكان الخاضعين إلى سيطرتهم له.

بالطبع، الامتيازات التي منحها النظام في عهدي حافظ وبشار لشيوخ القبائل كانت جزءاً من صفقة تبادل مفيدة للطرفين: النظام يوفّر المكانة والمزايا المالية للمشايخ الموالين له، وهؤلاء يسهّلون إذعان السكان الخاضعين إلى سيطرتهم له.

## سياسة القيادة القَبلِية

أدرك نظام الأسد قيمة دور الوساطة الذي يلعبه الشيوخ بين الدولة وبين السكان المحليين من ذوي الأصول القبلية، فدفع المشايخ إلى التنافس للقيام بهذه المهمة. وهذا كان سبب عدم كون القبائل كتلاً متّسقة ويعتريها غالباً التنافس على الزعامة. وعادة يكون لهذه الصراعات الداخلية على السلطة مضاعفات بعيدة المدى في المجالات السياسية وحتى الجيو- سياسية.

لكن، وعلى الرغم من التحوّلات الكبرى التي طرأت على التشكيلات الاجتماعية القَبَلِية في القرن الماضي، لاتزال القواعد التقليدية تتحكّم بعملية اختيار قيادة القبيلة. ففي داخل كل قبيلة تُنتِج دوماً سلالة عائلة معيّنة الزعيم أو الشيخ. وهذه السلالة، التي تُسمى بيت المشيخة أو بيت العشيرة، لها وضعية مرموقة داخل القبيلة، وأي فرد منها- بما في ذلك أشقاء الشيخ وأبناؤه وأولاد عمومته وأبناء الأخ والأخت- يمكن أن يصبح شيخ القبيلة عقب وفاة الشيخ (وهذا يتحدّد وفق الإجماع بين قادة الوحدات القبلية الفرعية)، لكن في العادة يكون الإبن البكر هو من يخلف والده. 13 وبالتالي، لا أحد من النظام أو حتى من داخل القبيلة يستطيع فرض شيخ قبلي من خارج بيت المشيخة.

تستطيع السلطات المركزية السورية ضعضعة قدرة الشيخ إلى حد كبير على ممارسة السيطرة على أبناء قبيلته، من خلال نثر بذور التنافس داخل العائلة.

مع ذلك، تستطيع السلطات المركزية السورية ضعضعة قدرة الشيخ إلى حد كبير على ممارسة السيطرة على أعضاء قبيلته، من خلال نثر بذور التنافس داخل العائلة. نظام الأسد غالباً ما مارس هذه اللعبة، فكان يعمد إلى تعزيز أعضاء بيت مشيخة من خارج مشيخة شيخ القبيلة الاسمي، ويكون لهؤلاء الأعضاء علاقات شخصية، وفي الغالب مالية، مع النظام وأجهزته الأمنية. في السنوات الأخيرة، سلّط التنافس بين فرعي مشيخة عائلة ملحم من قبيلة الحسنة الأضواء على هذه الديناميكيات. فكلا الفرعين يتحدران من طراد الملحم، شيخ القبيلة في أوائل القرن العشرين. ووفق العرف، يُحفظ مقعد لأحد أعضاء عائلة الملحم في البرلمان. وقد احتلّ ابن طراد، ثامر، الذي كان شيخ القبيلة حتى وفاته العام 1998، هذا المقعد البرلماني من 1946 إلى 1964، وشغله شقيقه عبد العزيز من السبعينيات وحتى الآن، فيما تسلّم ابن ثامر، عبد الكريم، مقاليد القيادة الرسمية للقبيلة عقب وفاة والده. بيد أن هذا الترتيب بدأ يتداعى حين خاض أحد أعضاء عائلة الملحم، عبد العزيز، المنافسة على المقعد في العام 1998 وهُزِم. ثم مالبثت مخاطر التنافس أن تفاقمت في انتخابات 2003، حين نافس عبد الكريم، الشيخ الاسمي للقبيلة، عمه عبد العزيز على المقعد، فاتخذ التنافس بعدها بعداً جيو- سياسياً أوسع. ولأن العديد من قبائل سورية المُستقرة الآن، بما في ذلك قبيلة الحسنة، هاجرت من عمق شبه الجزيرة العربية إلى مايشكّل الآن سورية وسهل البقاع اللبناني، فإن مشايخ هذه القبائل لهم روابط ببلدان الخليج، وكلا فرعي عائلة الملحم أقاما علاقات مع الدولتين السورية والسعودية. وهذا شمل الزواج من العائلات نفسها كما أعضاء العائلة الملكية السعودية.

بعد انتخابات 2003، نشب خلاف بين أفرع عائلة الملحم حول من يجب أن يحظى بالمقعد. ولمنع اندلاع أعمال العنف، أرسل النظام السوري ضباط من الحرس الجمهوري النخبوي إلى حمص لتنظيم المصالحات. وبما أن العلاقات

آنذاك كانت حميمة بين سورية والسعودية (التي دعمت كلاً من عبد العزيز وعبد الكريم في حملاتهما الانتخابية)، عمد النظام إلى إطاحة رابح آخر من مقعده النيابي ومنحته لعبد الكريم، وبذلك سمحت لعبد العزيز الاحتفاظ بمقعده.

بيد أن العلاقات بين السعودية وسورية تدهورت بوتائر سريعة العام 2005، بفعل الشكوك العميقة بأن نظام الأسد كان له يد في اغتيال رئيس الحكومة السعودي- اللبناني رفيق الحريري. وهذا الأمر كانت له تداعيات على بيت المشيخة في الحسنة. ففي الانتخابات النيابية للعام 2007، امتنع النظام السوري عن توفير مقعد ثانٍ لعائلة الملحم كما كان يفعل في السابق. وهكذا، خاض عبد العزيز معركة إعادة انتخابه في مواجهة منافسة من عبد الإله، شقيق عبد الكريم، الذي كان في ذلك الحين قد تسنّم القيادة الرسمية لقبيلة الحسنة بعد وفاة عبد الكريم العام 2007. 14 وهذا أثار نزاعاً جديدا، وأجبر مسؤولي النظام على التدخّل ثانية. وفي حين أن فرعي الحسنة لهما علائق مع العائلة المالكة السعودية، إلا أن الفرع الذي يقوده عبد العزيز حافظ على علاقات وثيقة مع شخصيات في أجهزة الأمن السورية. ولذا، أعلنت السلطات السورية بأن عبد العزيز سيحتفظ بمنصبه، وأن عبد الإله لن يحظى بمقعد نيابي. 15

تواصلت مضاعفات التوتر في داخل عائلة الملحم بعد انتفاضة 2011. فقد غادر عبد الإله إلى السعودية فور حرمانه من المقعد النيابي، وأعلن من البداية دعمه للانتفاضة، كما ظهر مراراً وتكراراً على شاشات التلفاز للتعبير عن آرائه، في البداية من تركيا ثم من السعودية. 16 في المقابل، بقي ابن عم عبد الإله، نواف، ابن عبد العزيز، (هذا الأخير لم يعد نشطاً سياسياً بسبب كهولته)، في سورية ووثّق علاقاته بالنظام، وكان يظهر بانتظام على شاشات التلفزة التابعة للسلطة للدفاع عن سياسات النظام.

كشف هذا التوتر داخل عائلة الملحم النقاب عن مجالين متناقضين لدى القبائل السورية. ففي حين يواصل إرث القواعد القبلية التحكّم بالنزاع عبر السماح فقط لأعضاء بيت المشيخة بالانخراط في حمأة التنافس على الزعامة، إلا أن القادة لم يكونوا في موقع يمكّنهم من ترقية مصالح القبيلة ككل، ناهيك عن تلبية مصالح أفراد القبيلة بوصفهم جزءاً من المجتمع القبلي. وهم، بدلاً من ذلك، علِقوا في لجج صراع على مواقع كانت الدولة قبل الانتفاضة توفّرها لهم، فكان عليهم في خاتمة المطاف أن يناشدوا الدولة تسوية نزاعاتهم، قبل أن يصطفوا على نحو وثيق خلف الدولة السورية أو الدولة السعودية بعد 2011. وهذا يُظهر كيف أن قضية محددة داخل قبيلة سورية يمكن أن تتخذ أبعاداً إقليمية، حين تتداخل سياسات قبلية مع التنافسات بين الدول.

التطرُّف، النفط، والمحلاوية في دير الزور

دفع مزيج من موارد النفط وصعود نجم الجماعات المتطرفة أقساماً من قبائل منفردة إلى أتون صراعات مع بعضها البعض.

كان للتنافسات بين القادة داخل القبيلة نفسها، والتشظي الذي ضرب مجموعات من خارج بيت المشيخة، تأثيرات فاقعة على الصراعات العنيفة التي اندلعت بين أبناء القبائل في محافظة دير الزور بعد 2011. هذه المحافظة تضم 1.2 مليون نسمة،18 كلهم تقريباً من أصول قبلية. وقد دفع مزيج من موارد النفط وصعود نجم الجماعات المتطرفة أقساماً من قبائل منفردة إلى أتون صراعات مع بعضها البعض، الأمر الذي أبان الأسس المتحوّلة للبُنى والهويات القبلية.

في أواخر 2011 وطيلة 2012، تنحّت المظاهرات السلمية جانباً وبرزت مكانها المقاومة المسلحة ضد نظام الأسد. قاد الشبان في دير الزور الانتفاضة أساساً تحت يافطة الجيش السوري الحر. لكن، قبل نهاية 2012، بدأ العنف

المُتمادي والمصالح المتضاربة بتفكيك عرى المعارضة المسلحة ضعيفة التنظيم، وتوارت بسرعة فرص إغلاق ملف العداوات. وقد عجزت فصائل الجيش الحر، وكذلك أي مجموعة تحاول تمثيل المعارضة المسلحة سياسيا، عن السيطرة على المقاتلين كأفراد يسعون للاغتناء الشخصي. علاوة على ذلك، سمح غياب سلطة الدولة المركزية لهؤلاء الأفراد بتوسيع دائرة مواردهم من خلال السيطرة على نقاط التفتيش العسكرية النظامية، والاستيلاء على الأسلحة الحكومية، والمعدات الصناعية، وآبار النفط، والتمويل الخارجي. وسرعان ما تمكّن رواد المقاتلين من اجتذاب ولاء المحاربين والمجتمعات المحلية بمعزل عن الجيش الحر.

في أوائل 2013، خرج قسم كبير من محافظة دير الزور عن سيطرة النظام السوري، وبدأت تتشكّل مجموعات مسلحة محلّية بعضها للدفاع عن مناطقها والبعض الآخر للاشتراك في الحملة الثورية الأوسع ضد النظام. هذه المجموعات ارتبطت على نحو متباين بالجيش الحر أو بمنظمات إسلامية أكثر تطرفاً كجبهة النصرة.

والحال أن دير الزور تُعتبر استثنائية من زوايا عدة. إنها حالة قصوى يتجسّد فيها انهيار التضامن القبلي، مايؤدي إلى أعمال عنف بين أبناء القبيلة نفسها. ومع ذلك، يكشف دور القوى الخارجية في تصعيد النزاعات بين القبائل عن وجود استمرارية مع الماضي. كما أن التغيّرات التي أفرزها النزاع المتمادي توازي وتضارع تلك التي حدثت في مناطق سورية أخرى. في الوقت الراهن، تُسيطر الجماعات الإسلامية المتطرفة على محافظة دير الزور، والنزاع هناك يدور أساساً حول النفط. وهذا يُهدد بتقويض الروابط الاجتماعية التي لم تفعل جولات سابقة من توغّل الدولة شيئاً سوى تغييرها بالتدريج.

## الصراعات داخل القبائل: العشيرة ضد العشيرة

فيما تفاقمت وتيرة النزاع بين السكان المحليين في دير الزور بعد العام 2011، أضافت الهويات والقادة القبليين درجة أخرى من التعقيد على حقائق تلك المنطقة. صحيح أن الأصول القبلية لهذه المجتمعات المحلية سهّلت أصلاً تصعيد النزاع وفق خطوط قبلية، إلا أن الصحيح أيضاً أن مثل هذه المجتمعات تُركت من دون قيادة تقليدية كانت لتقوم بالوساطات وتخفيف التوترات، لولا أن سلطة الدولة قوّضت البُنى القبلية قبيل الانتفاضة وطيلة العقود المنصرمة.

تجسّدت هذه الديناميكيات في التفاعل بين سكان بلدتين في محافظة دير الزور، القورية والعشارة، اللتين تحوز كلٌّ منهما على وحداتها العسكرية وهويتها الخاصة. إحدى هذه الوحدات، لواء القعقاع المتمركز في القورية، وهي بلدة يتحدّر سكانها من قبيلة القرعان. وفي سياق التحالفات المتقلّبة والوضع الأمني الغامض، جرى اغتيال قائد اللواء، علي المطر أبو صدام في نيسان/أبريل 2013، 20 ووُجّهت أصابع الاتهام إلى أطراف محلية عدة، وكذلك النظام، بالقيام بهذه العملية، 21 لكن لمّا يبرز دليل واضح يُحدد المسؤول الحقيقي بدقة.

عشيرة القرعان، من جهتها، اتهمت سعود النجرس، وهو شخصية بارزة في عشيرة البوحسن التي تقيم في بلدة العشارة المجاورة، بأنه العقل المدبّر للاغتيال. ومما زاد الطين بلّة أن النجرس كان عضواً في بيت المشيخة من اتحاد العقيدات العشائري 22 الذي يضم كلاً من القرعان والبوحسن. 23 وقد قام أعضاء في قبيلة القرعان باختطاف النجرس واحتجزوه لمدة ثلاثة أشهر. وبعدها جرى تشكيل مجلس شورى لحل النزاع يتكوّن من مشايخ قبليين محليين وقضاة شرعيين. وفي نهاية المطاف برّأ المجلس النجرس وأطلقَ سراحه. 24 بيد أن هذه الخطوة أغضبت سكان القورية، 25 الذين ردّوا بشن هجوم على العشارة بقيادة محمود، شقيق علي المطر، وهم يرفعون علم لواء القعقاع. وقد أطلق هذا الأخير قذائف المورتر على البلدة، مدمّراً منازل، وملحقاً أضراراً بالمسجد المركزي، ومُردياً أطفالاً عدة

في البلدة. ويتذكّر سعود النجرس أن أعضاء في جبهة النصرة وبعض الشخصيات القبلية حاولوا التدخل لكنهم أخفقوا في وقف القصف.26

في الفترة بين اعتقال النجرس وهجوم العشارة، أدلى أحد الأنصار مجهول الهوية للنجرس بالتعليق التالي على موقع إلكتروني مؤيّد للانتفاضة:

"الثورة (المزعومة) التي قام بها أهل القورية (القرعان) كانت ثورة (قرعانية ) بحتة (لدى معظمهم). فقد كانت تنادي باسم القرعان والقورية ولم تكن تنادي بالحرية، فكانوا يحاولون إيصال اسم العشيرة (القرعان) ورفع شأنها بين العشائر وكذلك شهرة مدينتهم (القورية). وبالفعل نجحوا في الوصول إلى هدفهم (الشهرة). ولكن في المقابل نجد أن عائلة (النجرس) قد سبقتهم إلى الخروج على النظام الفاسد وقد لمسنا في خروجهم أهدافا سامية وهي الحرية ورفض الظلم، وذلك لأنهم (كما يعلم الجميع) لهم مكانة رفيعة بين العشائر وكذلك عند النظام، فهم ليسوا بحاجة للشهرة وأول من خرج وحرّض على الخروج ضد النظام هو الدكتور (فهد فيصل النجرس) شقيق سعود (وبإمكان الجميع مشاهدة هذه المقاطع على اليوتيوب).

يوضح التنافس بين العشائر الذي يرد مراراً وتكراراً في هذا الموقع الإلكتروني الطبيعة المحلية للنزاع، والدور المتباين للهوية القبلية في مثل هذه الأوضاع. إذ أن الهدف الأول والأخير لهذا المُناصر للنجرس هو "شعب القورية". والموقع يُحدّد اسم القرعان على أنه مجرد أداة لخدمة تطلعات شعب القورية وليس القاعدة الاجتماعية الحقيقية التي تحكم المبادىء القبلية. بيد أن الرموز القبلية ليست غائبة تماماً عن مثل هذه التعليقات، والنوايا الطيبة للنجرس واضحة

لهذا المناصر، لأن عائلة النجرس تحتّل وضعية قبلية بارزة. وفي المقابل، يوحي المناصر ضمناً بأن سكان القورية هم قبليون من مرتبة خفيضة.

يسلّط انهيار سلطة الدولة بعد الانتفاضة، وتشكيل المجموعات المسلحة على المستويات المحلية، الأضواء على التباينات التي تخترق مصالح الأفراد، والبلدات، والقبائل.

يسلّط انهيار سلطة الدولة بعد الانتفاضة، وتشكيل المجموعات المسلحة على المستويات المحلية، الأضواء على التباينات التي تخترق مصالح الأفراد، والبلدات، والقبائل. فبعد اغتيال المطر، لم تدفع العلاقات القبلية الأطراف المتنازعة إلى إضفاء الاعتدال في سلوكياتها استناداً إلى انتمائها إلى القبيلة نفسها، أو حتى إلى مقاربة النجرس بصفته قائداً من بيت مشيخة، بل جرى على العكس اعتقاله.

مثل هذه الديناميكيات تعكس تجذّر وتطور الهويات المحلاوية على حساب القبيلة. وقد قوضّت السلطات المركزية، من خلال تحويل المشايخ القبليين إلى وسطاء مع السكان المحليين في العقود الأخيرة، القاعدة التضامنية التي كان يستطيع الشيوخ استحضارها لحل النزاعات. بدلاً من ذلك، ردّ مشايخ العشائر على واقعة غياب الدولة أو السلطة القبلية الجازمة، بإثارة الهويات المحلاوية لتعبئة السكان، سعياً لتحقيق أهدافهم الخاصة. وهذا سيكون عاملاً رئيساً سيسمح لاحقاً بتوسيع إطار الجماعات المسلحة، خاصة منها تلك الأكثر تطرفا، في دير الزور بعد .

## المحلاوية ونجاح الجماعات المتطرفة في دير الزور

كان يمكن لانتهاء سيطرة النظام على شطور كبيرة من محافظة دير الزور في أواخر 2012 وأوائل 2013 أن يسجّل انبعاث البنى القبلية التقليدية. بيد أن الجماعات التي ستُهيمن هناك في نهاية المطاف كانت، أساسا، مجموعات من المقاتلين المحليين اليافعين غير المرتبطين ببيوتات المشيخة، والذين انضموا لاحقاً إلى الجماعات الإسلامية المتطرفة.

لقد تبخرّت القيادة التقليدية القبلية في اللحظة نفسها التي كانت تشتد فيها الحاجة إليها. وهذا لأن عقوداً من التبعية للدولة، جعلت المشايخ القبليين عاجزين على لعب دورهم التاريخي كسلطات سياسية تتربع على عرش مجتمع قبلي. وبالتالي، أجبرت التنافسات الحاصلة والتعاون بين المجموعات المحلية المسلّحة والمنظمات الإسلامية المتطرفة المجتمعات المحلية على التركيز على مسألة البقاء والمصالح المادية، وليس على مصالح التجمعات القبلية الأوسع. وهذا أدى إلى تشرذم هذه المجتمعات ذات الأصول القبلية، وأعاق بروز السيطرة والتعبئة وفق خطوط قبلية.

تُوضح سلوكيات أعضاء فرع من اتحاد العقيدات القبلي، البوشامل، منحى المحلاوية في منطقة دير الزور. فالبوشامل عشيرة تتضمّن إحدى بيوتات المشيخة في العقيدات، الهفل، ولذا كان يجب أن يكون نفوذ القادة القبليين أقوى، على الأقل، بين أعضاء البوشامل أكثر من الأفرع البعيدة. علاوة على ذلك، تقبع مجتمعات محلية من البوشامل فوق بقعة واسعة من مخزونات النفط والغاز (انظر الشكل 1). وبالتالي، حين انهارت سلطة الدولة في أواخر 2012 وأوائل 2013، أصبحت عائدات النفط والغاز مورداً ثميناً ونفيساً. لاتتوافر أرقام محددة حول كمية الإنتاج في الفترة بين فقدان النظام السيطرة على هذه المخزونات وبين استيلاء الدولة الإسلامية عليها، لكن قُبيل بدء الغارات الجوية الأميركية على تنظيم الدولة الإسلامية في أيلول/سبتمبر 2014، كانت هذه المجتمعات المحلية تحصد ما بين مليون إلى 3 ملايين دولار يوميا، يأتي ثلاثة أرباعها من ربع آبار النفط في محافظة دير الزور28 .ولذا، كانت المجتمعات التي

تستخرج النفط وتبيعه قبل وصول الدولة الإسلامية تحصد أرباحاً طائلة (حتى ولو كان هذا الإنتاج مجرد كِسْر مما ستنتجه هذه الأخيرة لاحقا).

تم غداة الانهيار الأوّلي لسلطة الدولة، تشكيل كتائب محلية لها روابط فضفاضة مع الجيش الحر. كانت هذه الجماعات المحلية مُستغرقة أساساً بالدفاع عن بلداتها ومقاتلة قوات النظام. وقد بدأ بعضها بالاستيلاء على منشآت النفط، فيما برزت في الوقت نفسه مجموعات مسلحة أخرى أقل اهتماماً بمعارضة النظام وأكثر رغبة بالاغتناء الشخصي.29 وحالما انتشر هذا الحس الانتهازي، احتلّت المجموعات المحلية المسلحة العديد من آبار النفط لجني الأرباح، وبدأت العصابات بسرقة النفط من الأنابيب والمطالبة بأتاوات لقاء عدم تدميرها . 30

جرى تشكيل مجالس شرعية لمعالجة هذه النزاعات وغيرها بين القوى المحلية برعاية المجموعات المسلحة، والوجهاء المحليين، وجبهة النصرة. وفي أوائل 2013، استقرت جبهة النصرة في بلدة الشحيل، وبدأت بتوسيع عملياتها العسكرية وتحالفاتها في المنطقة فتعايشت مع العديد من المجموعات المسلحة، ولعبت دوراً مهماً في إقامة الهيئة الشرعية المركزية في الشحيل.31 ارتبط المتطرفون الإسلاميون، في المراحل الأولى لنشاطات الجماعات الراديكالية قبيل بروز الدولة الإسلامية وسيطرتها على الرقة، بالسكان المحليين عبر إغداق وعود المزايا المادية واستخدام اللغة الدينية معهم. وعلى سبيل المثال، بنت جبهة النصرة قاعدتها الشعبية في دير الزور استناداً إلى توفير الخدمات، ودعم المواد الغذائية، وتوفير الأمن للقرى في المنطقة.32

هذه العلاقات بين جبهة النصرة وبين السكان المحليين ستُمتحن من قِبَل المجموعات المحلية المتطرفة التي احتكرت موارد الغاز والنفط، وكانت غير مستعدة للإذعان إلى سلطة الجبهة والمجالس الشرعية. وقد دلّت الطريقة التي اندلعت فيها المجابهات، والوسائل التي استُخدمت لتسويتها، على أهمية الروابط القبلية على المستويات المحلية.

أحد قادة المجموعات المحلية المسلحة التي سيطرت على منشآت انتاج الغاز كان هويدي الضبع، المُكنّى بـ"جوجو". تحدّر الضبع ومجموعته من بلدة خشام التي جاء سكانها من فرع العنابزة في فرقة البكير التي هي نفسها جزء من عشيرة البوشامل الأكبر. 33 هذه المجموعة أفادت من قطعها الكهرباء عن قطاعات كبيرة من محافظة دير الزور ثم المطالبة بدفع خوات لإعادتها. 34 بيد أن الضبع ومجموعته كانا ينشطان بمعزل عن بلدات البكير والمجموعات المسلحة.

في تشرين الثاني/نوفمبر 2013، سعت جبهة النصرة بالتنسيق مع مجموعات مسلحة أخرى إلى تنظيم عملية استخراج النفط وتوزيع الموارد في المنطقة، فاعتقلت الضبع وسلّمته إلى الهيئة الشرعية المركزية. وحينها جهدت هذه الهيئة لوصف هذا الاعتقال ولخطوة الاستيلاء على الآبار التي كان يسيطر عليها على أنها خطوة موجّهةٌ ضد شخص واحد بعينه وليس ضد قبيلة أو مجتمع محلي. وقد شدّد بيان الهيئة حول هذا الموضوع على أن بعض عائلات قبلية فقط من خشام "مذنبة وليس البكير والعنابزة عموما". 35 كما أكدت الهيئة أن سكان خشام سيبقون على رأس القائمة في مجال جني الأرباح من الآبار القريبة.

لكن، ولأن أعضاء جبهة النصرة الذين اعتقلوا الضبع كانوا من فرع صالح الحمد في البوشامل (مركزهم في الشحيل)، فقد فسّر أهل خشام الاعتقال بأنه اعتداء على بلدتهم وعلى العنابزة، وردوا بإقامة حاجز تفتيش خارج البلدة

لعرقلة تحركات مقاتلي جبهة النصرة والضغط لإعادة الضبع، الأمر الذي حفز هذه الأخيرة على قصف الحاجز واجتياح البلدة لتوقيف المقاتلين الذي عارضوا قرارها . تمّ إعدام الضبع في كانون الأول/يناير 2014، 36 لكن حين استنفرت العنابزة خشام لصالحها، لم تنضم إليهما بلدات البكير الأخرى (الذين كان لدى العديد منها طبعاتها الخاصة من الضبع)، الأمر الذي أكد أن هذا النزاع، والحياة الاجتماعية عموما، أصبحت محلاوية حتى قبل أن يُطل تنظيم الدولة الإسلامية برأسه في المشهد في العام 2014.

أدى التداخل بين مقاتلي جبهة النصرة وبين أعضاء فرع صالح الحمد من عشيرة البوشامل إلى تصاعد التوترات، عبر جعل سكان خشام يعتقدون أنهم يُهاجَمون لأسباب تتعلّق بهويتهم القبلية. ومع ذلك، وفي سياق آخر، ربما كانت الروابط القبلية ستساعد على احتواء هكذا حادث في بلدة يقطنها أعضاء فرع صالح الحمد .

من جهتها، خسرت عائلة مزعل، وهي فخذ من صالح الحمد في بلدات النملية والحريجية، السيطرة على آبار النفط في أراضيها لصالح جبهة النصرة، التي سعت إلى توزيع الأرباح على نحو أكثر تساويا . وقد طالب شاب في العائلة بإعادة الآبار إليها، وحين رفضت جبهة النصرة ذلك قام هذا الشاب بإحراق الآبار، مادفع الجبهة إلى مهاجمة النملية وقتل أحد أفراد عائلة مزعل.

قد يساعد التداخل بين الشبكات المحلية العائلية وبين العضوية في جماعة مسلحة، على إدارة الصراع في غياب الدولة التي كان يمكن أن تضبطه.

سعت شخصية بارزة في جبهة النصرة، وهو عم الرجل القتيل، إلى نزع فتيل الأزمة. وعلى الرغم من أن الضحية قُتِلَ على يد الجبهة، إلا أن هذا القائد وصفه بأنه "ابن جبهة النصرة"، وأعلن أن هذه الأخيرة "ستنتقم في الوقت التي تراه

مناسبا". 37 سمح إخراج الحدث بهذه الطريقة، عبر الزعم ضمناً بأن القتيل كانت ضحية طرف ثالث تتوحّد ضده جبهة النصرة وسكان النملية، لهذين الطرفين بتجنُّب التصعيد الذي كان سيُلحق الضرر بهما معا. وأبانت هذه الواقعة كيف أن التداخل بين الشبكات المحلية العائلية وبين العضوية في جماعة مسلحة، يساعد على إدارة الصراع في غياب الدولة التي كان يمكن أن تضبطه.

الفارق بين هاتين الواقعتين مُعبّر للغاية. ففي الحادث الأول، لم يكن تشاطر هوية البوشامل38 بين أعضاء جبهة النصرة من فرع صالح الحمد وسكان خشام من فرع العنابزة كافياً لتجنُّب النزاع. إذ كان سكان خشام يعتبرون أفراد فرع صالح الحمد غرباء، (أي سكان بلدة أخرى وأعضاء مجموعة قبلية بعيدة) ويسعون إلى الهيمنة لفرض مصالحهم الخاصة. وهذا التقدير لم يترك مجالاً للتضامن على أساس الهوية البوشاملية المشتركة.

في المقابل، تمكّن في الحادث الثاني فرعان مُختلفان من فرع صالح الحمد من تجنُّب النزاع بعد الهجوم على النملية. وهكذا، أثبتت الشبكات التي تربط العائلات داخل التجمّع القبلي الأصغر الخاص بفرع صالح الحمد، المرتبطة بجبهة النصرة، أنها كانت كافية لتدبُّر أمر التوترات، فيما فشلت الهوية البوشاملية الأوسع في تحقيق ذلك. وتُظهر المقارنة بين هذين الحادثين كيف أن الهويات القبلية غالباً ما تستند إلى شبكات من العلاقات الملموسة والفورية، لا إلى أفكار مجردة تتعلق بالأنساب والواجبات القبلية.

صعود نجم الدولة الإسلامية في محافظة دير الزور سيُسفر عن المزيد من تعزز المحلاوية وتشظي البوشامل. فبعد الانشقاق عن جبهة النصرة العام 2013، سعت الدولة الإسلامية إلى طرد هذه الجماعة المُنافسة لها من حقول النفط

في دير الزور وقطع علائقها مع السكان المحليين. كانت العلاقات بين أهل الشحيل وجبهة النصرة متينة على وجه الخصوص، إلى درجة أن السكان المحليين أطلقوا على هذه الأخيرة اسم "جبهة البوشامل"، في إشارة إلى العشيرة. وبسبب هذه العلاقة الوثيقة، ركّز تنظيم الدولة الإسلامية جهوده الخاصة بالتجنيد على البلدات التي يقطنها البكير، لكن، وعلى الرغم من نجاحه في زيادة حضوره في المنطقة، إلا أنه عجز عن استقطاب معظم الكتائب القوية في البكير، فبقيت اثنتان منها محايدتان، فيما انضمت ثالثة إلى جماعة أحرار الشام الإسلامية المُتمردة.

نتيجة لذلك، يمّم الدولة الإسلامية وجهه بدلاً من ذلك صوب عامر الرفدان، وهو مقاتل محلي من بلدة جديد عقيدات التي يتحدّر أهلها من فرع مشرف في البكير،39 كان العامل الأهم في إعلان ولاء الرفدان للدولة الإسلامية ماديا. فحين أخلى النظام أشطاراً كبيرة من منطقة دير الزور، وجد الفردان نفسه يُسيطر على أجزاء شاسعة من من حقل كونوكو النفطي الذي يُعتبر أحد أكبر الحقول في سورية وأكثرها إدراراً للربح. وبكونه مُنتسباً إلى جبهة النصرة، وفّر الرفدان لهذه الأخيرة جزءاً من العائدات التي كان يحصدها من الحقل. بيد أن البنود والشروط التي اتفق حولها مع الدولة الإسلامية كانت أكثر ملاءمة له ولعبت دوراً في قراره نقل البندقية من كتف إلى كتف. 40 وكان من محصلة حيازة الدولة الإسلامية لمبايعة الرفدان لها، تدفّق أعداد مهمة من مقاتلي البكير إلى صفوفه،41 والسماح للتنظيم بإقامة مقره العام المحلي في جديد عقيدات في أواخر 2013. كما انضم أيضاً مقاتلون من البصيرة المجاورة التي يقطنها أفراد فرع قبيصة من البكير، إلى الدولة الإسلامية.

أعدّ الدولة الإسلامية، بعد ترسيخ وجوده في جديد عقيدات، المسرح لمجابهة مع جبهة النصرة، ومع هيئةالشريعة المركزية التي كانت تحاول آنذاك تنظيم استخراج النفط من آبار المنطقة لتوزيع أرباحها على السكان والجماعات

المسلحة.42 وقد اندلع القتال بين حلفاء الدولة الإسلامية من البكير والسكان من الشحيل المتحالفين مع جبهة النصرة في نيسان/أبريل 2014، 43 حين وصل هؤلاء الأخيرون إلى البصيرة مطالبين بإطلاق زملائهم الموقوفين، وهو طلب جوبه بالرفض. وبعدها قصف مقاتلو الشحيل المرتبطين بالنصرة البصيرة بالأسلحة الثقيلة وقتلوا 15 شخصاً وشرّدوا مئات العائلات.44 هذا القتال، الذي انغمست فيه جبهة النصرة والدولة الإسلامية وجماعات متمردة أخرى، شهد تصاعداً في الشهور التالية إلى أن تمكّنت الدولة الإسلامية من الاستيلاء على الشحيل في تموز/يوليو 2014، بعد أربعة أيام من القصف الذي أردى 28 شخصاً وشرّد معظم سكان البلدة. 45

انطوى القتال في دير الزور على صراع حول الموارد الاقتصادية، مُستنفراً في سبيل ذلك الهويات والشبكات العائلية على مستوى البلدات، كما الإيديولوجيات الإسلامية المتطرفة.

كان القتال للسيطرة على المناطق الريفية لدير الزور مُتعدد الأوجه. فهو انطوى على صراع حول الموارد الاقتصادية، مُستنفراً في سبيل ذلك الهويات والشبكات العائلية على مستوى البلدات، كما الإيديولوجيات الإسلامية المتطرفة. وما سهّل انغماس هذه الجماعات في وطيس المعارك ودَفَعَ إلى تصعيد المجابهات، كان غياب التضامن القبلي أو أي هياكل تنظيمية أخرى فوق المستوى المحلي التي كان يعتمد عليها النظام السوري. فجبهة النصرة كانت رسّخت وجودها في الشحيل، فيما استخدم الدولة الإسلامية روابطه مع البكير للحصول على موطء قدم في المنطقة. لكن، لم يكن في مقدور العلاقات القبلية أن تُنتج نظاماً سياسياً موحداً ومتّسقاً، سواء أكان ذلك تحت مظلة الزعماء القبليين التقليديين، أو الجماعات الإسلامية. أفضل ما كان يمكن أن تقوم به جبهة النصرة هو نزع فتيل التوترات مع المجتمعات

المحلية، كما حدث في النملية، لأن الأعضاء الأساسيين فيها كانت لهم روابط فرعية مع سكان البلدة، فيما كان الدولة الإسلامية يستطيع أن يجنّد الأعضاء استناداً إلى ضمان مبايعة زعيم من فرقة البكير. لكن، لا الدولة الإسلامية ولا جبهة النصرة تمكنتا من التوسّع خارج هذه السياقات المحدودة– على الأقل على أساس قبلي– لأن القبائل توقفت أصلاً عن لعب دور الجسر الذي يشد أزر المجتمعات المحلية معاً قبل انتفاضة 2011.

في الوقت نفسه، أسفرت الطريقة التي استغلّت فيها جبهة النصرة والدولة الإسلامية الهويات والشبكات المحلية عن جعل احتمال القيام بأي نوع من العمل الجماعي، أمراً صعب المنال على أساس الهوية البوشاملية، أو الهوية العقيدية. فالنزاع الذي اندلع في شرق دير الزور بين أفرع البوشامل حول توقيف الضبع، كشف النقاب عن كيفية استغلال الجماعات الإسلامية العلاقات

القبلية على المستوى المحلي (الذي يتكون من عدد صغير من الأنساب في بلدات عدة، بدلاً من الأنساب المتعلّقة بقبيلة موحّدة يقودها بيت مشيخة)، بهدف حيازة الأراضي.

قد تفرض المحلاوية على أفرع وأفخاذ القبيلة نفسها القتال ضد بعضها البعض، لكنها قد تقلّص أيضاً احتمالات اندلاع النزاع من خلال قطع وشائج البلدة مع القبيلة، مُجبرة إياها على التماهي، بدلاً من ذلك، مع سكان المنطقة المجاورة. هذه الظاهرة تعرضها حالة بلدة بقرص الذين يتحدّر سكانها من عشيرة البوسرايا.

عشيرة البوسرايا ترتبط بشكل فضفاض باتحاد العقيدات القبلي.46 تقع قراها الرئيسة غرب مدينة دير الزور بعيداً عن الأفخاذ الأخرى لقبيلة العقيدة التي تتمركز أساساً إلى الشرق من المدينة (انظر الشكل 2). وبالمقارنة، قرية

البوسرايا تقع شرق دير الزور. بعد اندلاع الانتفاضة السورية في 2011، تبنّت البلدات التي يقطنها البوسرايا مواقف شبيهة بتلك التي اتخذها زملاؤهم غرب دير الزور. فبعض سكان هذه البلدات نظّم تظاهرات وانضمّ إلى كتائب الجيش الحر، لكن القسم الأكبر من السكان لم يعلنوا النفير أو ينحازوا إلى النظام، خاصة منهم القيادات القبلية. الزعيم الإسمي للعشيرة كان مهنا الفياض الذي انُتخب عضواً في البرلمان العام 2012. وثمة عضو آخر من بيت مشيخة هو أحمد شلاش، العضو أيضاً في البرلمان الذي كان مدافعاً قوياً عن نظام الأسد طيلة سنوات الانتفاضة.

أما القرى المُحيطة ببقرص فكان يقطنها أبناء البكير وفرع صالح الحمد من البوشامل، الذين كانوا في الجيش الحر، وجبهة النصرة، وفي خاتمة المطاف الدولة الإسلامية. وقد أدّى القتال الذي اندلع في أواخر 2013 إلى قذف سكان بقرص إلى أحضان مأزق حاد: إذ تعيّن عليهم اتخاذ قرار حول التماهي مع جيرانهم المباشرين، الذين كانوا نشطين في صفوف جماعات عسكرية عدة مناوئة للنظام، أو مع أشقائهم القبليين الذين اصطفوا إلى جانب النظام.

في تشرين الأول/أكتوبر 2013، اجتاحت حركة أحرار الشام بلدة البصيرة الشميطية في الجزء الغربي من محافظة دير الزور، حيث يقطن معظم أفراد القبيلة. وقد أسفر القتال بين أحرار الشام وبين أفراد البصيرة عن مصرع العديد من السكان المحليين واعتقال 70 منهم، بمن فيهم مهنا الفياض. 47 ردُّ سكان بقرص لم يكن لمساعدة زملائهم في البصيرة، بل لإعلان انفسهم أعضاء في فرع البوحمد، وهذا للقول أنهم مجرد جزء من البصيرة بالاسم فقط، إضافة إلى كونهم من بقرص. بكلمات أخرى، في اللحظة التي كان يُفترض أن تدفعهم الروابط القبلية إلى التعبئة دفاعاً عن أشقائهم القبليين، اختار السكان بدلاً من ذلك التركيز على هويتهم المحلية والنأي بالنفس عن الصراع. 48

على الرغم من وجود انتماءات قبلية عامة، إلا أن القوى القبلية المحلية لها فاعلية مناسبة وتتمتع باستقلال ذاتي كافٍ للسعي وراء مصالحها الخاصة.

هذه الواقعة تشي بأن القبائل أبعد ماتكون عن الانتماء إلى كتل هوية متجانسة، وبأن الهوية القبلية في حالة سيولة في الواقع ويمكنها التأقلم مع الظروف السياسية المتغيّرة. وعلى الرغم من وجود انتماءات قبلية عامة، إلا أن القوى القبلية المحلية لها فاعلية مناسبة وتتمتع باستقلال ذاتي كافٍ للسعي وراء مصالحها الخاصة، لا العمل وفق غرائزها القبلية المزعومة.

## كيف استخدمت القوى السياسية الجديدة في شرق سورية القبائل؟

سهّل نسبياً تشظي المجتمعات المحلية ذات الأصول القبلية بفعل النزاع السوري، قدرة القوى السياسية الجديدة على تنفيذ برامجها السياسية الخاصة في المناطق التي تقيم فيها القبائل، بما في ذلك محافظة الحسكة في أقصى شمال شرق سورية. وقد سعت أطراف عدة إلى توسيع دائرة نفوذها في تلك المنطقة، بما في ذلك الدولة الإسلامية وحزب الاتحاد الديمقراطي الكردي التي تحرّك لإقامة إدارة حكم ذاتي في شمال الشرق، وقوات سوريا الديمقراطية المدعومة أميركياً التي بدأت القتال ضد الدولة الإسلامية في العام 2015 وتخضع إلى سيطرة الاتحاد الديمقراطي لكنها تضم بعض الوحدات العربية.

أملت هذه القوى بتجنيد أعضاء من القبائل للقتال إلى جانبها، وأيضاً لإسباغ الشرعية على أجنداتها السياسية. لكن كلاً من الدولة الإسلامية وحزب الاتحاد الديمقراطي الكردي كانا حريصين في الوقت نفسه على منع الزعماء

القبليين من تعبئة قبائلهم ضدهما . الآلية التي وظّفاها لهذا الغرض كانت متشابهة وسبق أن استخدمها النظام السوري. إذ اعتمدت الجماعات الإسلامية المتطرفة، وكذلك وحدات حماية الشعب، وهي الجناح العسكري لحزب الاتحاد الديمقراطي، على الشبكات القبلية المحلية لإدارة شؤون السكان القابعين تحت سيطرتهما . بيد أن زعماء المجتمعات المحلية القبلية لطالما استخدموا هذه الجماعات المسلحة لتحقيق أغراضهم المادية والتموضع على نحو مواتٍ لهم في مقابل الأطراف القبلية الأخرى.

وهكذا، ومرة أخرى، تُميط التحالفات المتنوّعة التي يجد زعماء القبائل أنفسهم في تضاعيفها، اللثام عن مدى قدرة الهياكل القبلية على التأقلم مع الظروف السياسية المُتقلبة. كما أنها تُبرز أيضاً مدى عبث المحاولات لتشييد صرح ترتيبات سياسية ذات ديمومة تكون القبائل هي حجر الرُحى فيها .

تنظيم الدولة الإسلامية والقبائل

اعتمد كلٌّ من جبهة النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية بكثافة على الشبكات القبلية في معاركهما ضد بعضهما البعض في دير الزور، التي اشتدّت جذوتها في أوائل العام 2014 . لكن حين انتصر تنظيم الدولة الإسلامية في المدينة، سعى إلى الهيمنة على هذه الشبكات وإلى إحكام قبضته على المجتمعات المحلية.

عقد أبو عبدالله االشمري، وهو مواطن سعودي مسؤول عن مكتب العشائر في تنظيم الدولة الإسلامية، اجتماعات عديدة مع وجهاء القبائل المحلية في أواخر العام 2014، في أعقاب الانتصار الذي حقّقه التنظيم في المنطقة. خلال هذه الاجتماعات، وبّخ أبو عبدالله أبناء القبائل بسبب تقاضيهم المال من جهات خارجية، واصفاً إيّاهم بأنهم "صحوات" . وهذه كانت إشارة إلى حركة الصحوة السنيّة القَبلية في العراق التي دعمتها الولايات المتحدة ضد تنظيم

القاعدة في العام 2006. 49 ويستخدم أفراد تنظيم الدولة الإسلامية هذا التعبير عموماً لوصف المجموعات التي تقاومهم وفق خطوط قبلية. 50

بذل أبو عبدالله وتنظيم الدولة الإسلامية جهوداً حثيثة لإقامة علاقات مع قادة تقليديين من خلال الشبكات القبلية، واستخدما القادة الجدد الذين أصبحوا وكلائهما للتعرّف على القادة التقليديين والتوسّط لعقد اتفاقات معهم. تجسّد هذا المسعى في نموذج أحمد الدهام، الذي انضمّ إلى الدولة الإسلامية في ربيع العام 2013 بعد قتاله إلى جانب جبهة النصرة. 51 كان دهام يرتّب الاجتماعات بين القادة التقليديين وأبو عبدالله، 52 الذي أفاد في هذه الاجتماعات من نَسَبَه إلى قبيلة شمّر المهمة، كي يلتمس دعم القبائل، مشدّداً على الروابط والنقاط المشتركة التي تجمع بين تنظيم الدولة الإسلامية وبين المقاتلين القبليين الشباب.

سعى تنظيم الدولة الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى تعزيز دور قادة القبائل والنزعة القَبَلية في المناطق الخاضعة إلى سطوته، لأن الروابط المحلية قد تُستخدم للتأثير في السكان المتحدّرين من أصول قبلية وتعبئتهم.

على الرغم من المخاوف المتعلقة بحدوث "صحوة" قبلية كتلك التي شهدها العراق، سعى تنظيم الدولة الإسلامية شيئاً فشيئاً إلى تعزيز دور قادة القبائل والنزعة القَبَلية في المناطق الخاضعة إلى سطوته، لأن الروابط المحلية قد تُستخدم للتأثير في السكان المتحدّرين من أصول قبلية وتعبئتهم. وهكذا، مدّ أبو عبدالله يده إلى قادة القبائل بعد الهزيمة التي مُنيت بها جبهة النصرة في دير الزور على يد تنظيم الدولة الإسلامية، مُعلناً أن هذا الأخير "شرّع أبواب المصالحة"، وأوعز إليهم بضرورة تسليم سلاحهم مقابل العفو عنهم. لكنه، بدل أن يطلب من المقاتلين تسليم أسلحتهم

إلى الدولة الإسلامية، دعا إلى وضعها في عُهدة قادة القبائل التقليديين، على أن يتلقوا بعدئذٍ ورقة من هؤلاء الأخيرين تفيد بأنهم حصلوا على عفو من الدولة الإسلامية.53 كانت هذه السياسة التي منحت القادة التقليديين قدراً من الاستقلال الذاتي في التعامل مع أبناء قبائلهم، متّسقة ومتناغمة مع الأساليب التي انتهجها نظام الأسد، والسلطات الفرنسية قبله.

بيد أن محاولات تنظيم الدولة الإسلامية الرامية إلى الهيمنة على القبائل لم تتغلّب بالكامل على الديناميكيات المحلية التنافسية. فالصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية وعشيرة الشعيطات، والذي حظي بتغطية إعلامية واسعة، وأسفر عن مقتل ما يفوق 700 من أبنائها وتدمير العديد من قراها، انطلق من اعتبارات قبلية وغير قبلية على حدً سواء. ويُرجّح أن هذا ما زرع الخوف في أوصال المجتمعات المحلية في المناطق التي شهدت تنافس تنظيم الدولة الإسلامية على السيطرة السياسية، ودفعها إلى احترامه باعتباره كياناً خارج إطار القبائل. لكنه أوقد أيضاً نار الخصومات القبلية؛ إذ حمّلت عشيرة الشعيطات عشيرة البكير مسؤولية المجزرة التي ارتُكبت بحق أبنائها، لأن العديد من أبناء عشيرة البكير ينتمون إلى تنظيم الدولة الإسلامية.54 النظام السوري، من جهته، وجد في عمليات القتل هذه فرصة لإعادة أفراد الشعيطات إلى كنف النظام. وهو فعل ذلك من خلال وضع برنامج تدريب عسكري في تدمر أُطلق عليه اسم المقاومة الشعبية، وفتح أبوابه أمام أبناء الشعيطات.55

## التوتّر بين الأكراد والعرب والاستقطاب القبلي

في حين أن دير الزور كانت الساحة التي دارت فيها رحى الصراع بين مجموعات إسلامية متطرّفة، بقيت محافظة الحسكة شمال دير الزور خاضعة عموماً إلى سيطرة كلّ من حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي والنظام السوري. وهنا

أيضاً تشي علاقات المجتمعات القبلية المحلية مع الاتحاد الديمقراطي والنظام بالتصدّعات التي تشوب الهياكل القبلية، والشبكات التي تحفّز على بناء التحالفات السياسية داخل القبائل.

أفسح انسحاب القوات العسكرية والأمنية التابعة للنظام من شمال شرق سورية، باستثناء وسط مدينتَي القامشلي والحسكة الرئيستين، في منتصف العام 2012، المجال أمام حزب الاتحاد الديمقراطي ووحدات حماية الشعب لبسط نفوذهما على مساحات شاسعة من الأراضي. وبفضل القدرة التنظيمية الراسخة التي تتمتع بها وحدات حماية الشعب منذ مرحلة ما قبل الأزمة السورية، وأيضاً قرار النظام بعدم مقاتلة هذه الوحدات، تمكّنت هذه القوى من دمج الأكراد المحليين في بيئة سياسية أعرض. نتيجةً لذلك، باتت عدّة مناطق من محافظة الحسكة تُدار راهناً كمنطقة حكم ذاتي متعدّدة الإثنيات تُعرف باسم مقاطعة الجزيرة.

في بعض المناطق الريفية في سورية، حلّ العداء بين الأكراد والعرب مكان الصراع ضد تنظيم الدولة الإسلامية.

منذ أواخر العام 2015، شهدت هذه المنطقة صعود تحالف مسلّح جديد تحت مسمّى قوات سورية الديمقراطية،56 التي تضمّ أيضاً مقاتلين من البلدات العربية المحلية، على الرغم من أن غالبية مقاتليها وقادتها هم من وحدات حماية الشعب الكردية. وقد أدّى الدعم الدولي الذي حظيت به هذه القوة المؤلفة بغالبيتها من الأكراد، إلى استقطاب سياسي وتصاعد وتائر الاحتقان بين الأكراد والعرب. ومع أن قوات سورية الديمقراطية أرغمت تنظيم الدولة الإسلامية على التراجع، إلا أنها لم تتمكّن من ضمان الاستقرار. ففي ريف محافظة الحسكة وفي مدينة تل أبيض الواقعة على الحدود التركية، حلّ العداء بين الأكراد والعرب مكان الصراع ضد تنظيم الدولة الإسلامية، لأن الكثير من المواطنين العرب يعتقدون أن قوات سورية الديمقراطية ستقوم بتطهير إثني ضد العرب لصالح الأكراد.

نتيجةً لذلك، انقسم قادة القبائل العربية، فدعم عدد قليل منهم الأكراد واتّخذ القسم الآخر موقفاً المعارض. ويخشى الكثير من العرب المحليين من ذوي الخلفية القبلية من مخططات حزب الاتحاد الديمقراطي والأكراد. وهذا ما جذبهم للانضمام إلى عملية درع الفرات، وهي مبادرة تركية للتنسيق بين الجماعات المتمردة في الجيش السوري الحر من أجل الحؤول دون توّسع قوات سورية الديمقراطية والقوات الكردية غربي نهر الفرات. 57 في الوقت نفسه، يعمل النظام السوري، من خلال تواجده في دير الزور والحسكة والقامشلي، على الحفاظ على العلاقات التي تربطه بأفراد من بيوتات المشيخة، يأمل استعادة السيطرة على الأراضي متى اضمحلّت فيها قوة تنظيم الدولة الإسلامية على نحو حاسم.

يُعتبر حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي الحزب المهيمن في مقاطعة الجزيرة، لكنه يواجه التحديات عينها في مجال تطوير العلاقات مع المجتمعات القبلية العربية وضمان رضوخها له، تماماً كما كان وضع النظام السوري وتنظيم الدولة الإسلامية في المناطق الخاضعة إلى سيطرتهما. أما الشريك الرئيس لحزب الاتحاد الديمقراطي فهو حميدي دهام، شيخ قبيلة شمّر والحاكم المشترك لمقاطعة الجزيرة. 58 بدورها، تعمل قوات الصناديد، وهي ميليشيا خاضعة إلى سيطرة دهام وتتألف من أعضاء قبيلة شمّر، مع وحدات حماية الشعب. يشار هنا إلى أن شمّر تُعتبر اليوم قبيلة صغيرة نسبياً في سورية (تتمركز فروعها الرئيسة في العراق وشبه الجزيرة العربية)، لكنها تاريخياً مهيبة وقوية، وتمارس سيطرتها الفعلية على المنطقة الشمالية الشرقية لما يعرف اليوم بسورية قبل قيام دولة سورية الحديثة. 59 ونظراً إلى صغر حجم القبيلة واستحواذ دهام على الموارد النفطية في أعقاب انسحاب النظام، تمكّن هو وقوات الصناديد من المحافظة على تحكّمهم بقبيلة شمّر. 60

تحظى مشاركة دهام في حكومة مقاطعة الجزيرة بقيمة رمزية كبيرة بالنسبة إلى حزب الاتحاد الديمقراطي، إذ إنها تُضفي الشرعية على خططه السياسية لإشراك القبائل العربية. كما كسب دهام وشمّر أيضاً عبر الإفادة من الأمن المحلي وعائدات النفط. مع ذلك، تسببت العلاقة التي تربط الحزب بدهام بنزاع مع المجتمعات القبلية الأخرى في المنطقة.

هنا ثمة جانبان ملحوظان: الأول أن سكان القبائل العربية الأخرى فضّلوا التعامل مع حزب الاتحاد الديمقراطي بدلاً من قبيلة شمّر. فعلى سبيل المثال، سعت بعض القبائل العربية إلى إرساء الأمن في مناطقها بالتعاون مع الميليشيات الكردية. مع ذلك، حين اقترحت قوات الصناديد بقيادة دهام تنسيق عمليات المجموعات المحلية العربية كافة، رفض السكان العرب المحليون وحزب الاتحاد الديمقراطي على السواء ذلك، إذ إنهم لايرغبون في تسليم قبيلة شمّر هكذا سلطة مماثلة. 61 وبغض النظر عن تسليطها الضوء على تفتُّت المجتمعات القبلية العربية، ألقت هذه الاضطرابات التي تعصف بالقبائل بظلال من الشك على ادعاء الحزب بأن إدارة مقاطعة الجزيرة تجسّد الإرادة الحقيقية لـ"القبائل العربية".

أما الجانب الثاني، فيتمثل في أن الجهود التي يبذلها حزب الاتحاد الديمقراطي للتعامل بشكل منفصل مع كل قبيلة من القبائل العربية– وتشابه هذه الاستراتيجية مع تلك التي اعتمدها تنظيم الدولة الإسلامية– تعكس إرث سياسات الدولة السورية التي سعت إلى خلق انقسامات بين القبائل وحتى في داخلها. ويشكّل ذلك مصدر قلق من التهديد، ولو كان بعيد الأمد، الذي تطرحه وحدة القبائل العربية على القوى الخارجية.

تقاطع خوف العرب من الأكراد في محافظة الحسكة مع الخوف من معاودة صعود قبيلة شمّر لحشد الدعم لصالح نظام الأسد . فأفراد القبائل في المنطقة، ولاسيما في قبيلتيْ الجبور والشرابيون، يخشون من أن تستخدم شمّر قوتها المتنامية للعودة إلى أنماط الهيمنة السابقة وفرض سيطرتها في المنطقة.[62] ولهذا السبب قلّة من قادة القبائل فضّلوا العلاقة مع دمشق، وأسسّ الكثير منهم ميليشيات متحالفة بشكل وثيق مع الجيش السوري، مثل قوات الدفاع الوطني أو اللجان الشعبية.

على سبيل المثال، ألقى محمد الفارس، شيخ قبيلة طي في سورية، كلمة في أيلول/سبتمبر 2015 في الحسكة، شكر فيها علناً "الحاج جواد" على تمويل ميليشيا لطي تحمل اسم المغاوير.[63] والجدير ذكره أن الحاج جواد هو لقب شخصية عسكرية إيرانية في سورية، لاتزال هويته الحقيقية موضع تكهنات، لكنه معروف بدوره في تنظيم الميليشيات. وقد ظهرت في المنطقة العديد من الميليشيات المماثلة، التي جرى تنظيمها محلياً بالتعاون مع الجيش السوري.[64] كما يعمل نظام الأسد على تجنيد المزيد من أفراد القبائل من دير الزور والحسكة في الجيش النظامي.[65]

بالنسبة إلى حزب الاتحاد الديمقراطي، والنظام السوري، وتنظيم الدولة الإسلامية، الذين يتنافسون للسيطرة على شمال شرق سورية، يحمل التعامل مع السكان من ذوي الخلفية القبلية العربية في طياته تحديات جمّة.

بالنسبة إلى حزب الاتحاد الديمقراطي، والنظام السوري، وتنظيم الدولة الإسلامية، الذين يتنافسون للسيطرة على شمال شرق سورية، يحمل التعامل مع السكان من ذوي الخلفية القبلية العربية في طياته تحديات جمّة. ويُعتبر أحد أشكال التحالف مع عناصر قوية من المجتمع أمراً لاغنى عنه، لكن الخوف من وحدة قبلية موجّهة ضد أطراف

خارجية دفعهم إلى الانخراط في تحالفات انتقائية. ولم يؤدِ هذا النهج المتعدد الأوجه سوى إلى تعزيز الطبيعة المشرذمة للواقع القبلي في المناطق الشرقية من سورية.

## ماذا يبقى من القبيلة في سورية؟

تتميّز الحرب في سورية، التي تدخل الآن عامها السابع، بالطبيعة المحلية إلى حدّ كبير للنزاع، على عكس التطلّعات الوطنية التي تمحورت حولها الانتفاضة في بدايتها. ثمة العديد من الأجندات السياسية المتنافسة في المناطق التي تقطنها القبائل. وعلى الرغم من أن العديد من الجماعات المسلحة لجأت إلى اللغة والرموز القبلية لبناء علاقاتها المحلية، لم يتمكن أي لاعب سياسي من حشد مجموعات واسعة من قبيلة ما على أساس هويتها القبلية. علاوةً على ذلك، كانت القبائل عاجزة عن الحؤول دون سعي قوى خارجية لفرض مشاريعها السياسية أو أجنداتها العسكرية، في معاقلها.

والسبب في ذلك يُعزى إلى التغيّر في طبيعة القبيلة الذي طرأ خلال القرن الماضي، باعتبارها وحدة اجتماعية سياسية، بعدما تهاوت هياكل سلطة المشيخة خلال العقود التي فرضت فيها الحكومات المركزية نفسها على القبائل. يواصل السوريون من ذوي الخلفية القبلية التفاخر بتراثهم وهويتهم، وكذا يفعل أفراد بيوتات المشيخة من أصحاب الأملاك الكبيرة ومن المحافظين على الروابط العائلية في ما بينهم التي تكون في كثير من الأحيان عابرة للحدود الوطنية. لكن مع ذلك، تبدّلت العلاقات بين أفراد القبائل وبيوت المشيخة بشكل جوهري.

يُنظر إلى العديد من قادة القبائل بشكل متزايد على أنهم تابعون لقوى خارجية، وغير قادرين على إرساء الأمن وتأمين الرفاه المادي لأبناء القبائل، وبالتالي فهم لايستحقون هذا الإجلال.

لقد جعل الصراع في سورية من احتمال عكس هذا الوضع أقل احتمالاً. فبعد اندلاع الانتفاضة السورية في آذار/مارس 2011، اشتعلت الخلافات داخل القبيلة الواحدة وفي ما بين القبائل حول ما إذا كانت ستقف في صف نظام الأسد أو في وجهه. ثمّ أنها اتّسعت بشكل أكبر أيضاً لأن قادة القبائل بدأوا البحث عن دعم خارجي في محاولة لتعزيز مواقعهم داخل قبائلهم والسير قدماً لتحقيق مصالحهم الخاصة. إلا أن المنافسة على الدعم الخارجي خفضت شرعية بيوتات المشيخة في أعين العديد من أبناء القبيلة. وحيث أن قادة القبائل هم شخصيات مرموقة تاريخياً لابدّ من إطاعتها من دون استثناء، يُنظر إلى العديد منهم بشكل متزايد على أنهم تابعون لقوى خارجية، وغير قادرين على إرساء الأمن وتأمين الرفاه المادي لأبناء القبائل، وبالتالي فهم لايستحقون هذا الإجلال.

إذن، ما تبقى من القبيلة اليوم في سورية ليس سوى إرث تاريخي، وهو مفهوم التنظيم الاجتماعي الهرمي الذي تتربّع على رأسه بيوتات المشيخة. ويبقى الدور التاريخي الذي تلعبه هذه البيوتات مهماً بالنسبة إلى القبيلة نفسها. ونظراً إلى أن بنية القبيلة التقليدية تحتفظ بالقدرة على استنهاض التضامن في أوساط أفراد القبيلة، تُعتبر بيوتات المشيخة الدينامو المحرّك لهذا التضامن. وعلى الرغم من أن سنوات من الحرب والدمار لن تمحو هذا الإرث، إلا أن الديناميكيات في شرق سورية أضافت مستوى جديداً من عدم اليقين بالنسبة إلى القبائل وأبناءها.

العشيرة والمشاركة في العدوان والعنف

عشائر مدينة خلب مثالا

لقد أستطاع حافظ بدهاءه أن يمسك بالورقة القبلية والعشائرية في سوريا من خلال شراء ذمم أغلبية شيوخها واغراءهم بالمال والمنصب والمركز وهؤلاء راحوا يتنافسون على شراء ذمم افراد قبائلهم وعشائرهم بنفس أسلوب وطرقالسلطة التي كانت تعين الشيوخ الموالين لها بهذه الطريقة .

ولقد وصل الأمر ببعض شيوخ العشائر المتواجدين في مراكز المدن السورية ومنها حلب المدينة وصل بهم الأمر مساعدة السلطات الجائرة بقتل الشعب السوري فقاموا بانشاء الميليشيات والعصابات المسلحة والمزودة بأحدث أنواع الآسلحة وقاتلوا الى جانب قوات النظام التي كانت ترمي خلب بالبراميل المتفدرة مثل قبائل الجيس والماردلبخلب .

الأنصياع بسبب الخوف والفقر والجهل

لقد استعمل زعماء القبائل والعشائر نفس الوسائل غير الشرعية التي تستعملها السلطات الديكتاتورية لقمع شعوبها وفق سيادة الترغيب والتهديد فأما الانصياع لها وجني ثمار مولاتها لها وبالتالي للسلطة وأما الانتقام والتهديد بالقتل اوالنفي او غير ذلك وبسبب هذا الخوف ومعه الفقر وكثير من الجهل وقلة الوعي لم يكن أمام أبناء هذه القبائل والعشائر سوىالسير خلف مشايخهم كيفما ساروا واتجهو أ

مثال حي على ذلك

منذ سنتين تقريبا عقدت ثلاث مؤتمر تحمل نفس الأسم للمؤتمرين وهو ( مؤتمر القبائل والعشائر السورية )

عقد الأول في مناطق سيطرة النظام السوري والثاني في مناطق سيطرة قسد والثالث في مناطق سيطرة المعارضة وكلمؤتمر يدعي زورا وبهتانا بأنه يمثل القبائل والعشائر السورية وفيوالحقيقة ان المؤتمرون من شيوخ القبائل في واد وافراد قبائلهم المعذبين والمقهورين والذين لا يجدون ما يأكلون في واد أخر .

لقد كانت مخالب اليد اليمنى للسلطة الحاكمة هي الظائفية ومخالب يدها اليسري هي القبلية والعشائرية انظر اليوم مثلا من يتحكم بالمناطق الريفية غرب الفرات والتي هي بيد قوات النظام السوري

هم شيوخ العشائروحلفاءهم الميليشيات الطائفية الشيعيةالعراقية

خلاصة

لقد كانت العصبية القبائليى والعشائرية ممثلة برموزها ومشايخها أحدى أهم الأسلحة التي استغمل في سورية ضد الشعبالسوري بعد السلاح السلطوي الطائفي بل هي جزء منه وشريك فعال مع كل من يمتلك القوة على الأرض ووهذا حدث لما استلمت داعش زمام المبادرة ثم النصرة ثم النظام من جهة وقسد من جهة أحرى .

لن يبنى سوريا الحديثة الجديدة الا بعد القضاء على النزعة الطائفية والقبلية والعشائرية بنفس الوقت.

## رابعا

## التعصب الأيديولوجي

تناول كل من الطب النفسي والطب العام ظاهرة الجنون، وتواضعوا على أن الجنون حالة مرضية لا يستطيع العقل معها أن يفكر منطقياً وواقعياً بكل ما ينتج عن هذا العجز عن التفكير من أنماط سلوك خارقة لقواعد المجتمع خرقاً يصل حدّ ارتكاب الحماقات التي تلحق الضرر بالآخرين.

وهناك درجات للجنون، وإحدى هذه الدرجات تحكّم الأوهام بصاحبها، وتصديق اللامعقول، فتوهم شخص ما بأن هناك قريناً له يرافقه أينما ذهب درجة من درجات الجنون.

غير أن أحداً لم يتحدث عن ظاهرة الجنون الأيديولوجي وخطرها على المجتمع والعلاقات المعشرية بين الناس.

والأيديولوجيا كما هي في تعريفاتها المتنوعة: جملة من الأفكار التي يعتقد بها الشخص اعتقاداً مطلقاً دون أن تنطوي على علاقة بالحقيقة فعلاً، بل إنها حالة تجعل صاحبها محصوراً بما يؤمن به إيماناً مطلقاً.

وانتقال الأيديولوجيا من  شكل من أشكال الوعي البسيط المرتبط بالمصلحة أو التصديق العادي إلى حالة من الجنون الأيديولوجي لا يعني سوى تحكم الأيديولوجيا بوصفها هوساً بصاحبها، واستخدام العنف، اللفظي أو الجسدي ضد كل من ينال من أوهامه التي وصلت حد الحقيقة المقدسة.

يتعين الجنون الأيديولوجي بقداسة أمرين: قداسة أشخاص والنظر إلى ما يصدر عنها من كلام لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. والفكرة المطلقة التي تؤسس لكل الحقيقة. وحين يتحد الشخص المقدس والفكرة المقدسة في شخص ما فاعلم بأنه في حال الجنون الأيديولوجي. ولا شك بأن من علائم الجنون الأيديولوجي التعصب الأعمى النافي للمختلف.

فكيف إذا تحول المجانين الأيديولوجيون إلى فاعلين في المجتمع والسياسة والدولة، فإنهم يعيثون خراباً في الحياة،ويصادرون المستقبل، ومن هذه الزاوية لا فرق بين نتنياهو وآية الله الخميني والبغدادي وكيم إيل سونغ وماوتسي تونغ وأتباعهم.

هذا الكلام ينطبق بجذافيره على التعصب للشخصيىة الكاريزمية التي صنعها الأسد الأب ومن بعده الأبن حيث وصلت هذا التعصب لدرجة الهوس أو الجنون .

وتجب الإشارة إلى أن التعصب الطائفي هو شكل من أشكال الجنون الأيديولوجي القاتل، وبخاصة إذا تحول إلى جنون جمعي، وآثاره المدمرة على الحياة واضحة في بلادنا. والحق أن جميع الجرائم ضد المجتمع من فئات تنتمي إلى المجتمع نفسه أو لا، إنما مردُّها إلى الجنون الأيديولوجي.

وها نحن نعيش اليوم مرحلة من الجنون الأيديولوجي الذي لم يسلم منه حتى بعض من أولئك الذين ظُنّ أنهم ينتمون إلى حقل الحرية.

فذهنية العنف الناتجة عن الجنون الأيديولوجي والتي تُمارس اليوم بين السوريين لمجرد الاختلاف لا تترك مجالاً للشك بأن البرء من الجنون الأيديولوجي الذي كنا نظن بأن الربيع العربي دواء شافٍ منه لم يأخذ بعد صورة الانتصار الكلي.

ومن مظاهر الجنون الأيديولوجي المرعبة، خروج المكبوت الطائفي لدى الأفراد الذين ينتمون إلى حقل الحداثة في الظاهر، بكل عنفه.. والشفاء من الجنون الأيديولوجي ليس معناه الانتقال من جنون أيديولوجي إلى جنون أيديولوجي آخر، كانتقال الإسلاموي إلى الشيوعي أو انتقال الشيوعي إلى إسلاموي، بل بالشفاء من التعصب الأيديولوجي والعودة إلى العقل الذي يعترف بالاختلاف ونسبية الحقيقة وموضوعيتها والحق في ارتكاب الخطأ وتاريخية المعرفة والقطيعة المعرفية وممارسة النقد، أي عودة العقل إلى ذاته الثرية.

ان حزب البعث تبنى، بحماسة، سياسة "القبضة الحديدية" وعمم العنف برعاية الدولة والصراع الطبقي كجزء من إستراتيجية بناء الدولة التسلطية الشعبوية، وبالرغم من المستوى الذي بلغته الصراعات داخل حزب البعث بين عامي 1963 – 1970 فقد نجح البعث في ترسيخ نظام حكم أثبت قدرته على الاستمرار وحتى على التكيف النسبي.

أما البنى التي أحكم حزب البعث من خلالها قبضته على المجتمع السوري فتمثلت في "إعادة ترتيب شامل للحالة المؤسساتية القائمة، فأنشأ منظومة هائلة من المؤسسات الاجتماعية والسياسية ترمي إلى احتواء قطاعات واسعة من المجتمع السوري والسيطرة عليها في الوقت نفسه".

فالسوري تلتقطه تلك المؤسسات ما إن يدخل إلى المدرسة. فهناك اتحادات "طلائع البعث" و"شبيبة الثورة" واتحادات الطلاب والعمال والنقابات المهنية. . وكلها تابعة لحزب البعث. لكن هايدمان الذي يرى في الأطر الاجتماعية والسياسية والنقابية التي غطت كل أوجه الحياة العامة في سوريا سبباً في إدامة بقاء نظام البعث غفل عن دور المؤسسات الأمنية التي شهدت في فترة حكم حافظ الأسد المديدة تعدداً وتشعباً وتغولاً غير مسبوق. . وهذا .ما سأعود إليه في مقال لاحق

هياكل التأطير والتعبئة التي استحدثها نظام البعث لم تكن هي التي أمّنت أطول فترة "استقرار" سياسي في سوريا الحديثة بل التغوّل غير المسبوق، عربياً ودولياً، لأجهزة الأمن. ولرجل مهجوس بالتحديات التي تواجه حكمه داخلياً وخارجياً كحافظ الأسد لم تكن "الرابطة البعثية" موضع ثقة حقيقية له، بل الولاء الشخصي التام القائم على روابط .عائلية وطائفية

لا نعثر في التاريخ أيديولوجيا أشدّ تسويغاً من أيديولوجية البعث، لجهة تبرير وصعود أكثر نظامين توحّشاً في التاريخ وتسلطهما على مجتمعين، واستبدادهما بمصير الملايين من البشر طوال أكثر من نصف قرن. ومع هذا ما تزال المعارضات العربية والإسلاموية (في سوريا والعراق) تستلهم نهج البعث وخطابه في أغلب الأوقات على صعيد الممارسات والمواقف السياسية.

بالعودة إلى أيديولوجية البعث، التي يصفها البعض بأنها علمانية، نلاحظ عندئذ انقساماً عمودياً وأفقياً بين نسقين فيها، النسق السوري (الذي وصف يساراً) واستلهم الخطاب الباطني لزكي الأرسوزي، الأشد تخلفاً ورجعيةً، وحتى تخريفاً من نظيره (النسق العراقي). هذا الأخير عدّ (يمينياً) واستلهم بدوره آراء وأفكار (الشركسي- التركماني) ساطع الحصري، ونظّر له أيضاً الرومي المسيحي المتأسلم ميشيل عفلق.

كان الحصري في شبابه عضواً في حزب (تركيا الفتاة)، الأشدّ تطرفاً في نزعته القومية، قبل أن يستحيل إلى منظّر للعروبة، مخترعاً لنفسه نسباً يمتد إلى العرب العاربة في اليمن. وحين عيّن (مديراً للمعارف) في بغداد دمّر الكثير من الآثار العباسية والأوابد باعتبارها تراث شعوبي. كان الحصريّ سنيّاً متشدداً في وعيه العميق برغم من المظهر العقلاني المهترئ، لخطابه الذي استوحاه من مصطفى كمال أتاتورك. بكل الأحوال هذه هي علمانية البعث عارية إذا أراد البعض أن يفهمها دون كساء، وهذه هي معضلة العروبة، التي أرثي لحالها الآن، وهي ليست معضلة مع العرب، بل مع المستعربين المزايدين على شعوب المنطقة، امثال الحصري وخالد بكداش ومحمد كرد علي، فرسان العروبة المتلونين، الذي شاركوا بهمة وحماسة في رفع شعار (دنيا العروبة) و(سوريا العروبة) وأورثوا البلاد والعباد هذه الأوهام الأيديولوجية، برغم من أصولهم غير العربية وهنا تكمن المفارقة.

ولكن هل البعث كان حزباً علمانياً في نظريته وفي ممارساته السياسية؟ وكيف يكون حزب ما علمانياً وهو في ذات الوقت يبرر أشدّ ممارسات الاستبداد توحشاً وعنصرية؟

يقيناً لا سبيل إلى الديمقراطية من دون علمانية. والعكس صحيح، ليست هنالك علمانية حقيقية من دون الديمقراطية، وهذا ما يفسّر فشل علمانية أتاتورك اللا ديمقراطية، ويفسّر اليوم ديمقراطية أردوغان الملتبسة اللا علمانية. وكلّ من يتبجح بأن البعث كان علمانياً ، أو يمكنه أن يكون كذلك، إنما يكشف عن جهل فظيع بالفلسفة العلمانية.

معلوم أن الفكر العلماني الذي يدعو إلى التحييد الإيجابي للدين عن الممارسة السياسية والسلطة، لا يكتف بهذا فحسب، فالعلمانية تطالب بجزم بتجريد السياسية عن جميع النظم السردية والشمولية، ليس الميتافيزيقية فحسب، إنما حتى (الدنيوية) كذلك، ولهذا تعتبر علمانية النظم الشيوعية والنازية ملتبسة إلى حدّ كبير. حيث أنها تنطوي على بنى خلاصية شمولية لا تختلف عن أيّ دين آخر.

بالعودة إلى أيديولوجية البعث، لا نجد أيّ اختلاف بين القائل بـ(الأمة حاملة الرسالة الخالدة) الأمة اللا تاريخية، التي تتخطى الزمان والمكان، ، التي مهمته تتمثل، في نهاية التاريخ، بإنقاذ الشعوب من بؤسها، الذي لازم وجودها، وإعادتها إلى فردوسها المفقود، حيث تنعم بالمساواة والعدالة المطلقة. وتحت هذا العنوان أو الغاية المقدسة بررت النظم الشيوعية والستالينية سابقاً كل أشكال الإرهاب والقمع بحق الشعوب والأفراد.

العلمانية، في أبسط تعريف لها، هي فلسفة السلطة الدنيوية، التي تشرعن وجودها، لا بموجب عقيدة أو أيّة سردية ما ورائية، إنما انطلاقاً من الإقرار بسيادة الذوات الحرة، التي تصنع تاريخها دون أيّة وصايا أيديولوجية، سواء سماوية أكانت أم دنيوية، والإقرار بشرعية مصالح تلك الذوات ومساواتها بصرف النظر عن طبيعة إيمانها أو ضميرها الديني أو الأيديولوجي. وتتعارض هذه الفلسفة مع أيّ انحراف للسلطة أو مسعى كي تحتل المجال العام وتطبعه بالطابع الديني أو الثقافي لأية أغلبية عرقية أو دينية/أيديولوجية، كما ترغب المعارضة السورية الإسلامية في فعله.

. وهذا يكشف عن براغماتية سياسية فاضحة في خطاب العقل الطائفي العربي، حيث ليس هناك مذهب ديني في ذاته أكثر أو أقل ديمقراطية أو علمانية من غيره. وهذا الكلام ينسحب على شيعة العراق وعلويّي السلطة في سوريا، حيث يتبادلون الأدوار السياسية على المنوال ذاته هنا وهناك. فعلويو السلطة في سوريا (وهم أقلية) هم دعاة

علمانية، كما يُظهِرون، إلا أن وعيهم بالعلمانية يقوم على رفض الديمقراطية، في حين أن الشيعة (وهم الأكثرية في العراق) يبرزون كدعاة متحمسين لديمقراطية الأغلبية، وهي ديمقراطية غير علمانية، والعكس صحيح بالنسبة لموقف السنة العرب الذين يشكّلون أكثرية في سوريا وأقلية في العراق.

كلاهما يشكلان وجهين لعملة واحدة، وكلاهما ينطلقان من وعيّ طائفي يفصل بين العلمانية والديمقراطية. والحال لا وجود لأحدهما دون الآخر. ومن هنا تبرز القناعة بضرورة التأكيد على العلاقة الجدلية بين المفهومين دون فصل أو انتقائية.

تتمثل هذه المفارقة بصورة صارخة في ازدواجية معايير التعددية والديمقراطية والانتقائية في خطاب المعارضة الإسلامية. فهي حينما تتحدث عن التعددية المذهبية والدينية في سوريا تؤكد القول بأن الأغلبية في سوريا هي من مذهب ودين محددين، وفي هذه الحالة يحسبون الكرد أيضاً ضمن تلك الأغلبية في مواجهة أقلية من المسيحيين والطوائف الأخرى. لكن بالمقابل حينما تتحدث عن التعددية القومية يستعينون بالمسيحيين والطوائف الأخرى للتأكيد على أغلبية عربية بمواجهة الكرد (كأقلية عددية) وللبرهان على ضرورة عروبة سوريا. في الحالتين ينشأ ارتياب سياسي ومعرفي في ديمقراطية الإسلامويين وحديثهم عن التعددية والمدنية.

المعارضة الإسلاموية في سوريا، ليست على استعداد حتى الآن للتخلي عن وعيها الذاتي بوجودها على أنها تمثل الأغلبية، وبالتالي الأحق والأجدر بحكم سوريا والهيمنة عليها وحتى اختزال هويتها في نفسها. هذا ما يبدو لنا الآن على الأقل ويفصح عنه لسان حال نخبتها السياسية. وحتى الليبراليين منهم، الذين في أحوال كثير لا يستطيعون تقدير الذات الجمعية والنظر إليها خارج هذا الأفق.

من الناحية الموضوعية لن يفضي هذا الادعاء إلى أيّ تحوّل تعددي أو تغيير ديمقراطي محتمل في سوريا . ومن ثم يمكن النظر إلى مناوئة هذه المعارضة، لنظام بشار الأسد وأبيه من هذا الموقع فحسب، فهي لا تهدف سوى الإطاحة برأس النظام مع الاحتفاظ بكامل الهيكلية الإدارية للنظام وخطابه الأيديولوجي، الذي أعدّه الدكتاتور الأب وصاغه كي يكسب به الشارع السني، إلى جانبه في الحقبة السابقة. من قبيل هوية الدولة العروبية واعتبار الشريعة الإسلامية إحدى مصادرها الرئيسة. هذا الشكل من المعارضة للنظام اكتسبت منذ البداية طابعاً طائفياً قوامه الكراهية انطلاقاً من مبدأ أن منصة الهيمنة والسيادة (السلطة السليبة) اغتصبت وانتزعت من السنة العرب ومصادرة بيد طائفة أخرى غير جديرة بها، لهذا يتعين استردادها والاستحواذ عليها مجدداً .

ونتذكر جميعاً إن مثل هذه الإطروحات جاءت في مناخ مشفوعٍ بعربدة سياسية ضد العقل والعقلانية وابتزاز فاشي من جانب البعض، وتصعيد ضد اليسار والعلمانيين والليبراليين، وضد كل من كان ينتقد خطاب المعارضة الإسلامية. ضد كل من كان يدعو إلى الحذر من الانحدار إلى مأزق ثقافة الكراهية والحرب الطائفية، التي أراد لها النظام منذ البداية أن تكون سمة وطابع الانتفاضة السورية. كان هنالك (تشبيح مقلوب أو معكوس) أو إرهاب فكري وسياسي من جانب المعارضة وانتحال مفضوح ومريب من قبلها لدماء الضحايا . كان ثمة إرهاب فكري وسياسي من جانب غوغاء السياسة الجدد، الذين كانوا حتى الأمس القريب مجرد أعوان ومخبرين لدى نظام الاستبداد . وكانوا يريدون أن يتطهروا بالهجوم على اليسار والديمقراطيين وجميع المستنيرين. ومثّل ذلك تمهيداً للانقلاب على كل قيم الثورات في الحرية والمساواة والديمقراطية، وليست قيم الثورة السورية فقط . .

وما من مثقف إلا ومر بالمرحلة الأيديولوجية، فالنزعة "الطوباوية" قوية لدى المثقف الشابّ، فضلاً عن رغبته بحقيقة لا يرقى إليها الشك، والبنية النفسية في هذه المرحلة تتميز بالعُدْوانية ونفي الآخر. والحق أن التحرُّر من الأيديولوجيا لا يقود بالضرورة إلى البُرْء من الحالة النفسية التي ولَّدتها الأيديولوجيا، ولهذا ترى كثيرين ممن تحرروا من الأيديولوجيا قد احتفظوا بنفسية الأيديولوجي في أول اختلاف، ويحولون الاختلاف إلى شجار.

والأيديولوجيا حالة من العصبية والتعصب، إنها بمعزل عن أصلها وفصلها، دين مستقل بذاته عن جميع الأديان. هو دين قائم بذاته مهما كان القناع الأيديولوجي له، القومية، الدين، العلمانية، الطائفية، العنصرية. أربعون مسلماً يتواصلون مع الله في مسجد نهار الجمعة يقضون قتلاً في نيوزيلندا بيد الأبيض المنتمي إلى الحقد الديني. وهم شأنهم شأن الذين يُقتَلون في كنيسة وهم يناجون المسيح في فرنسا بيد الأسمر، وشأن الفلسطيني الذي يُباد باسم الوعد الإلهي، وشأن الذين ترمى عليهم البراميل المتفجرة وهم يقفون أمام فرن الخبز في قرى الشام ومدنها، وشأن من يُقصَفون بالقنابل الفسفورية في إدلب. وشأن الإيزيديين الذين اقتِيدُوا إلى التصفية، وشأن الذين تُزهق أرواحهم باسم المهدي المنتظر، وشأن الذين أُبيدوا باسم استعادة الماضي المقدس، وشأن الذين يُقتلون بدافع التعصب القومي، إلخ إلخ.

التعصب الأيديولوجي، يعني امتلاك الحقيقة المطلقة، ورفض أي نقد لهذه الحقيقة، ويصاب المرء المنتمي إليها بما سميناه مرة بالعماء الأيديولوجي، والعماء الأيديولوجي دِين المجرمين، عَبَدَة القوة الهمجية، والخبراء بفنون القتل.

ولهذا ترى مُؤَدلِجي العماء الذي تنجبه الحقيقة الأيديولوجية المطلقة وكُتابهم ليسوا سوى حُرّاس الجهل المقدس – لاهوت الظلام. أَجِد التعصب الأيديولوجي القاتل دِيناً مستقلاً بذاته.

ولمن لا يعلم كل أيديولوجيا شمولية هي شكل من أشكال الوعي الديني، إنها دين وتنتج وعياً وسلوكاً أصولياً. وتخلق كائناً مشوَّهاً، غارقاً في وَهْم امتلاك الحقيقة المطلقة كما أشرنا.

سجناء الأيديولوجيا الشمولية لاهوتيون عدوانيون، وإذا كانت الأيديولوجيا فيما تنطوي عليه من إغراء في مرحلة المراهقة السياسية قادرة على اصطيادهم فإن بقاء الفرد في حال الإغراء بعد تجاوُز المراهقة ضرب من الغباء غير المغتفر.

العماء الأيديولوجي يقضي على الاستقامة العقلية بالضرورة. والاستقامة العقلية تعني أن تصدر أحكامك عن الواقع دون تناقُض وخرق لقواعد المنطق. وغالباً ما يُطلق على شخص يخرق قواعد التفكير وصُوَره صفة الأحمق.

لا يمكن أن تكون ذَا استقامة عقلية وأنت تدافع عن شرٍ وتقف ضد شرٍ آخر مثيله في الوقت نفسه.

والأحمق ليس المعني بقولنا عن الاستقامة العقلية وخرقها؛ لأنّ الأحمق لا يصدر في سلوكه عن وَعْي بالسلوك الأحمق، بل عن علة في مستوى الفهم والإدراك.

إننا نتحدث عن مفهوم الاستقامة العقلية عند الأسوياء، وعند الذين يخترقون مبادئ العقل وقوانين المنطق عن سابق تصميم وإدراك، انطلاقاً من غاية نفعية وانحياز أيديولوجي.

والانحياز ليس دائماً معرّة ومذمّة. فالانحياز الأخلاقي يصدر عن ضمير حي، ومثله الانحياز العقلي الذي يصدر عن عقل يلتزم قواعد المنطق والتفكير السليم.

ولهذا فإن الانحياز الأيديولوجي اللاأخلاقي يقود بالضرورة إلى الانحياز اللاعقلي، والانحياز اللاعقلي يقود إلى الانحياز اللاأخلاقي. فالموقف من الشر المتفق عليه أخلاقياً، يقود بالضرورة إلى موقف عقلي منه.

فمن يقبل بولاية الفقيه ويدافع عنها لا يحق له أن يرفض مَن يدعو لدولة الخلافة، ومَن يقبل بعمامة خامنئي ليس من حقه رفض عمامة البغدادي؛ لأنه لا فَرْق هنا بين الماهِيّتَيْنِ.

لا يمكن أن تكون متعصباً قومياً وتذمّ قومية الآخر من جهة، وتنقد التعصب القومي عند بعض المنتمين إلى القومية الأخرى، وهكذا.

لا يمكن أن تكون ذَا استقامة عقلية وأنت تدافع عن شرٍ وتقف ضد شرٍ آخر مثيله في الوقت نفسه. لا يمكن أن تدحض خطأً وتفضحه وتكون في الوقت نفسه سائراً وراء خطأ مثيله وتبرره وتحافظ على صفة الاستقامة العقلية. لا يمكن أن تكون مع احتلال وضد احتلال آخر.

إن الأيديولوجيات الشمولية سواء أكانت أيديولوجيات دينية إسلاموية أم أيديولوجيات دنيوية قومية أم شيوعية، تحتفظ بعَقَابيلها في الوعي الراهن أشكالاً من الوعي مدمِّرة للعلاقات المعشرية وقيمة التسامح. لقد آنَ للعقل أن يترجّل.

# بنية العقل السوري

## ثانيا

## الجهل

ان السمة الثانية من سمات العقل السوري هي الجهل وكعادتنا قبل الدخول في الموضوع المطروح لا بد أن نرى ما تعريفه لغة واصطلاحا وما مفهومه وبهذه الأمور سنبدأ محورنا الثاني في هذا البحث .

تعريف الجهل وأنواعه

الجَهْل: نقيض العِلْم، وقد جَهِله فلان جَهْلاً وجَهَالة، وجهِلَ عليه. وتَجَاهل: أَظهر الجَهْل؛ عن سيبويه. الجوهري: تَجَاهَل أَرَى من نفسه الجَهْل وليس به، واسْتَجْهَله: عَدَّه جاهِلاً واسْتَخَفَّه أَيضاً .

والتجهيل: أَن تنسبه إِلى الجَهْل، وجَهِل فلان حَقَّ فلان وجَهِلَ فلان عَلَيَّ وجَهِل بهذا الأَمر. والجَهَالة: أَن تفعل فعلاً بغير العِلْم والجمع جُهْلٌ وجُهُلٌ وجُهَّل وجُهَّال وجُهَلاء؛

يُعرف الجهل لغةً على أنه نقيض للعلم، والتجاهل صفة تُطلق على الشخص الذي يُبدي عدم معرفته بالشيء، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة، بينما يُعرف الجهل اصطلاحًا على أنه افتقار الإنسان إلى المعلومات والمعرفة المتعلقة بموضوع معين، بحيث يختلف مفهوم الجهل عن الغباء، إذ إن الجهل ينتُج عن عدم تعلّم الفرد لمعلومات ما، والتي قد تكون نتيجة لإهمال مُتعمّد، أو رفض اكتساب معرفة جديدة يجب اكتسابها، بينما يُشير الغباء إلى عدم القدرة على التعلم، كما يعبر الجهل عن عدم الوعي، أو الإدراك .

## أنواع الجهل

الجهل البسيط: وينتج هذا النوع من الجهل عند الأطفال، والأشخاص البسيطين الذين يملكون خبرة محدودة في حياتهم، ويتم النظر إلى هذا الجهل على أنه بريء ومغفول عنه

الجهل المُتَعمَّد: يُشير هذا النوع من الجهل على معرفة الشخص بجهله مع الإصرار على عدم تعلم أي معرفة جديدة لاكتساب الفرص، أي أن الشخص يتعمَّد ويُفضل الانغلاق أمام المعلومات والأفكار الخارجية بدلًا من التعرّف على أمور جديدة والتوسع على العالم، بحيث يختار الإنسان التجاهل بدلًا من الاستكشاف والتحقيق لمعرفة ما يجري في البيئة الفكرية والثقافية والاجتماعية، دون التفكير باحتياجاته الأساسية من أمن، وسلام، واستدامة.

الجهل المختال: يُشير هذا النوع إلى خلط الشخص بين المعرفة الجزئية والمعرفة الكاملة، أي أن يمتلك الفرد معرفة جزئية عن الموضوع ولكنه يفترض معرفته الكاملة، وينظر إلى الآخرين بازدراء باعتبار أنه يعرف كل شيء بينما هم لا يعرفونه.

الجهل بالتخصص: يُشير هذا النوع من الجهل إلى الجهل المُتخصص في الطبيعة، حيث يتمتّع بعض الأشخاص بالعلم والمعرفة في مجال واحد أو أكثر من مجال إلا أنهم يجهلون العديد من المجالات الأخرى، بحيث يفترض الإنسان بما أنه يمتلك معرفة واسعة في مجال معين، يعني أن يجب أن يمتلك معرفة واسعة في المجالات الأخرى تلقائيًا.

الجهل المستنير: يُشير إلى الجهل الذي يُدركه الإنسان بعد قضاء وقت طويل في التفكير والدراسة المُكثّفة سواء كانت هذه الدراسة في مجال معين من المعرفة أو لأبعاد الخبرة، أو كلاهما معًا، كما يُشير هذا النوع من الجهل إلى المعرفة المتواضعة لما لا يعرفه الإنسان والتي يمكن أن لا يعرفها بسبب طبيعته غير المعصومة من الأخطاء.

آثار الجهل

يُعد الجهل من الأمراض المجتمعية التي يترتّب عليها العديد من الآثار، حيث إن جهل الإنسان يقوده أحياناً إلى ارتكاب أخطاء بسيطة ولا تُسبّب سوى الإحراج، إلا أن الجهل في بعض الأمور ينتج عنه آثار خطيرة قد تؤدي إلى الموت أحياناً، ومن آثار الجهل ما يأتي :

قد يتسبب الجهل بالأخلاقيات المهنية إلى فقدان الوظائف والمناصب.

قد يقود الإنسان إلى عدم القدرة على اتخاذ القرارات الصائبة، بالإضافة إلى صعوبة التفريق بين الصواب والخطأ.

الجهل يُسبب الكثير من المشكلات التي تؤثر على المجتمع مثل العنصرية، والتعصب ضد الآخرين.

## الأمية والجهل

التعريف البسيط للأمية هو العجز عن القراءة والكتابة. ولأن محوها هو العتبة الأولى نحو محاربة الجهل والفقر وسائر الأمراض المجتمعية المتصلة بهما ومن ثم بناء مختلف ضروب الحضارة الإنسانية، تسعى سائر الدول لأزاحتها من الطريق، عن طريق التعليم الإجباري المجاني في المدارس الأولية على الأقل.

وعندما تصدر الإحصاءات الدولية عن الأمية وسط مختلف الدول فإنها تعتبر "العجز عن القراءة والكتابة" معيارا لأرقامها . وعلى هذا الأساس وحده – تبعا لإحصاءات اليونيسكو في 2018 – فإن نسبة الأمية وسط الفئة العمرية 15–24 سنة لا تتجاوز 0.9 في سوريا

تبسيط مخل ومضلل

عندما نقول إن أقل من 1% من السوريين أميون فإننا نقصد أنهم عاجزون بالكامل عن القراءة والكتابة، وأن الكلمات المكتوبة بالنسبة لهم مجرد أشكال وطلاسم تتساوى بصرياً مع "خربشة على الرمل" تركها صرصور وراءه. وهذا يعني أن 99.6 من السوريين يقعون خارج هذه الفئة باعتبارهم قادرين على القراءة والكتابة ومتعلمين بالتالي.

ما المشكلة إذن والسواد الأعظم متعلمون؟

لأن في الأرقام المتعلقة بالأمية ومحوها تبسيطا مخلا ومضللا. هذه الأرقام لا تجيب عن السؤال المحك: عندما تجاوز الناس جدار الأمية، أي عتبات صعدوها على سلم القراءة والكتابة نفسيهما؟ بعبارة أخرى، كم صارت مسافة اقترابهم من المعرفة القصيّة على الأمي؟ الى أي حد مضوا على طريق اكتسابهم القدرة على تغيير مجتمعاتهم الى الأفضل عبر نيل المعارف يمنة ويسرة؟

الحقيقة المُرة هي أن القدرة على القراءة والكتابة لا تعني شيئًا ذا أهمية في حد ذاتها لأنها وسيلة وليست أيا من غايات لانهائية. وحتى إذا صار كل عربي من المحيط الى الخليج قادرا على القراءة والكتابة فلا فائدة تُجنى من ذلك إذا انتهى الأمر عند هذا الحد وتوقف المسير. ولهذا تجد تعريفا آخر يوسع شرح الأمية، ويتصل هذا بالأمية الوظيفية.

أميّة العيش

يسمونها الامية الوظيفية أو المهامية (functional illiteracy)، وهي القدرة على القراءة والكتابة ولكن الى مستويات لا يكفي تدنيها لأن يستخدمها المرء لزيادة المخزون المعرفي والمستوى المعيشي سواء لديه أو لدى مجتمعه.

وفي هذا الصدد جاء في جلسة اليونيسكو الـ20 العام 1978 أن الشخص يعتبر أميا وظيفيا "في حال عجزه عن المشاركة في أنشطة مجتمعه التي تستلزم القدرة الفعالة على استخدام القراءة والكتابة كلازمتين لمشاركته في هذه الأنشطة وأيضا استخدامه القراءة والكتابة والحساب لتطوره الشخصي وتطور مجتمعه". بعبارة أخرى فهي المدى الذي يوظف فيه الشخص قدراته التعليمية لتحسين وضعه المعيشي وقدرته على تطوير الظروف المعيشية لمن حوله، وتبعا لهذا التعريف فسنسميها في هذا المقال "أمية العيش".

الأمية درجات

كغيرها من مجالات العلم والجهل، فإن أمية العيش نفسها درجات تتفاوت من ثقافة لأخرى لأن بعض المجتمعات يستلزم مستوى من القراءة والكتابة والحساب عاليا إذا قيس بمجتمعات أخرى. ومثلا، في أغلب الأحوال، تجد أن أمية العيش لدى مزارع ريفي في دولة متقدمة صناعيا وتكنولوجيا أعلى بكثير من نظيره في دولة فقيرة نامية. ولذا فهي نفسها تقسم الى أربع خانات هي "تحت الأساسية" و"الأساسية" و"المتوسطة" و"العليا".

بل إن أمية العيش تتخذ لنفسها أشكالا قد لا تخطر على البال ولا تستحوذ تالياً على الاهتمام الذي تستحقه، ومنها الأمية الاغترابية. وهذه يُعنى بها الشخص غير القادر على القراءة والكتابة بلغة المجتمع الذي يعيش فيه مغترباً، بغض النظر عن مستواه التعليمي بلغته الأم. ومثلا فالسوري خريج جامعة دمشق الذي يعيش في باريس لكنه لا يقرأ الفرنسية ولا يكتبها أمي اغترابي. وفي المقابل فإن الفرنسي خريج السوربون الذي يعيش في دمشق لكنه لا يقرأ العربية ولا يكتبها أمي اغترابي بالقدر نفسه. كلاهما لا يتفاعل مباشرة مع المجتمع الذي يعيش فيه وهو دوما بحاجة الى وسيط ما ليفعل ذلك.

## الأمية الخفيّة

الأمية الخفيّة هي الجهل بالجهل أو الرضاء به حتى عندما يصبح علما بالجهل. وهي الأخطر على الإطلاق لأنها تؤدي الى كل الطرق غير طلب المعرفة وإلى موات المعرفة نفسها . وهي أيضا تتخذ أشكالا عدة أبرزها بالطبع غض البصر عن العجز عن القراءة والكتابة. لكن هناك غير ذلك مما يدخل على نحو أو آخر من هذا الباب ولا يقل خطرا لأن معظم الدول النامية لا تصنفه في باب الأمية أصلا.

ومن أشكال الأمية هذه: الصحية والزراعية والبيئية والتكنولوجية والإعلامية والاقتصادية والعقلية والعاطفية والنقدية والعرقية والحسابية والجغرافية والتاريخية والسياسية والبصرية والسمعية والعابرة لأشكال التلقي.

ومعظم هذه مفهومة من اسمها، لكن بعضها جدير بشيء من الضوء. فالعابرة لأشكال التلقي تعني أن الشخص لا يستطيع مثلا ترجمة صورة أو لوحة رآها الى كلمات تصف ما رآه أو تفسّره، أو أن يقرأ عن مضار اللحوم والدهنيات والملح والسكر، لكن هذا لا يغيّر في عاداته الغذائية وكأنه محصن ضد هذه المخاطر. والعاطفية، مثلا، تعني أن الشخص غير قادر على فهم عواطفه وبالتالي على كبح جماحها خاصة عندما تتخذ لها منحى يضر به وبالآخرين. وبينما البصرية هي وقوع دلالات ما تراه العين (كالتاريخ في الأبنية الأثرية مثلا) في "البقعة العمياء"، فإن السمعية هي وقوع دلالات ما تتلقاه الأذن (كالتناغم الموسيقى مثلا) في "البقعة الطرشاء".

لأن محاربة الأمية وحدها لا تعني الكثير عندما يتعلق الأمر بتقدم الدول على طريق المعرفة والتحضر، فإن هناك قائمة أخرى هي المعيار الأدق لهذا التقدم تسمى "قائمة الأمم الأكثر تعلما" تصدرها "منظمة التنمية التعاونية والاقتصادية" الدولية ومقرها باريس. وتُعرّف الأمم الأكثر تعلما بأنها صاحبة العدد الأكبر من خريجي الجامعات والمعاهد العليا

وأصحاب شهادات الماجستير والدكتوراه (وسط الدول التي لا تقوم أنظمتها التعليمية على التلقين والحفظ بدون فهم أو قدرة على التفكير التحليلي، وهذا وحده يستبعد سائر الدول العربية والإسلامية) .

حال بائسة

قارن ذلك بما ورد في تقرير أصدره المكتب العربي في برنامج التنمية بالأمم المتحدة في 2005 وجاء فيه أن المجتمعات العربية "مشلولة بسبب غياب الحريات السياسية، واضطهاد النساء وتخبط نصفهن في ظلام الأمية، والانعزال عن العالم وعن الأفكار الجديدة" .

وقد استدل التقرير على هذه الحال بإحصاءات مخيفة منها أن نصيب العالم العربي من الكتب لا يتعدى 28 عنوانا لكل مليون شخص، وأن عدد الكتب التي تترجم في الدول الناطقة بالعربية مجتمعة لا يزيد على 300 كتاب في السنة مقارنة بمتوسط 1650 كتاب في دولة صغيرة كاليونان، وأن عدد الكتب التي تترجم إلى الاسبانية في العام الواحد يعادل كل ما ترجم إلى العربية في ألف عام. وللأسف يظل هذا الوضع اليوم على ما كان عليه وبلا أمل حقيقي في تغيّر الى حال أفضل.

الداء والدواء

محو أمية العيش – وليس مجرد محو الأمية – هو المنطلق الحقيقي الذي يتعين على الحكومات والمجتمعات العربية أن تبدأ منه لأنه مستهل الطريق الى العيش الكريم في مجتمع أقل فقرا وأكثر عدالة اجتماعية وأفضل إنتاجا، متمتع

بالحريات الأساسية، ومنفتح على تيارات المعرفة الإنسانية ومساهم حقيقي في إثرائها، وخال من الأمراض القديمة كإغلاق الباب أمام مشاركة المرأة في دفع عجلة الاقتصاد، والجديدة على شاكلة الإرهاب الأصولي.

وهذا لن يتسنى لها طالما أصرت على التعامل مع محو الأمية باعتباره الهدف وليس الوسيلة، وطالما أصرت على التعليم بالتحفيظ عن ظهر قلب وكأنه صنو للفهم والاستنارة. وعلى سبيل المثال وليس الحصر، خذ آي الذكر الحكيم: "والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا". ما المراد عندما يجبر واضعو المناهج التعليمية العربية طفلا في الثامنة أو التاسعة من عمره على حفظ وترديد هذه الآيات بينما السواد الأعظم من الكبار أنفسهم – بمن فيهم خريجو الجامعات – لا يدركون معاني كلماتها أو الرسالة التي تحملها ؟

## الجهل والعقلية الجاهلة في المجتمع السوري

قلنا ان الجهل لا علاقة له بالأمية وأقول ليس له علاقة بالتعلم أو التعليم أيضا وهذا ما نشاهده في المجتمع السوري

فالمتعلم أو حتى المثقف السوري ومهما كانت درجة تحصيله العلمي أو الأختصاصي تتحكم فيه العقلية الجاهلية وهي جملة المورثات التي خزنت في ذهنيته منذ الصغر وتلقاها من الأسرة أو المدرسة أو المجتمع بشكل عام ومن هذه المورثات العقيدة والمذهب والعادات والتقاليد ولأن هذه المورثات في المجتمع السوري تقوم على أسس طائفية ومذهبية ورجعية بالية فهي تنقل الى ذهنية المثقف كما هي وتعمل كعقل ثاني مخفي له وكثيرا ما تصادف مثل هذا النوع في حياتك فترى مثلا طبيبا مختصا في جراحة القلب يتحدث عن طائفته ومذهبه باعتبارها الفرقة الناجية الوحيدة وقس على ذلك أمثلة كثيرة جدا لذلك أصبحت ظاهرة عقلية وجاهلة والوصف الأنسب لها جاهلية .

## الشواهد على تنامي العقلية الجاهلة في المجتمع السوري

### أولا : الأمثال الشعبية السورية

المثل الشعبي جملة قصيرة بليغة متوارثة عبر الأجيال، سهلة الانتشار وسريعة التداول جاءت تعبيرا عن تجربة محددة وشاع استعمالها بمناسبة وقوع تجارب أو مواقف مماثلة للتجربة الأصلية وهو نتاج لتداخلات التاريخ والثقافة والجغرافيا والأدب والاقتصاد والدين والعادات والتقاليد .

المثل الشعبي من أكثر فروع الثقافة الشعبية ثراء، حيث يجسد المثل الشعبي تعبيرًا عن نتاج تجربة شعبية طويلة تخلص إلى عبرة وحكمة. ومجموعة الأمثال الشعبية تكون ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة. فهي إذن جزء مهم من ملامح الشعب وأسلوب حياته ومعتقداته ومعاييره الأخلاقية. <ref> جمال طاهر في كتاب موسوعة الأمثال الشعبية والمثل الشعبي هو ليس مجرد شكل من أشكال الفنون الشعبية، وإنما هو عمل يستحث قوة داخلية على التحرك، إضافة لذلك فإن المثل الشعبي له تأثير مهم على سلوك الناس، فالمعنى والغاية يجتمعان في كل أمثال العالم. وهذه الأمثال على اختلافها تعبر عن تاريخ وفكر الأمم.

المثل الشعبي هو تعبير عن نتاج تجربة شعبية طويلة أدت إلى عبرة وحكمة، وهو أشبه ما يكون بالرواية الشعبية التي تقص قصة موجزة فتسهم في تكوين الشعب. ومجموعة الأمثال الشعبية تكون ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة، فهي إذن جزء من ملامح الشعب وقسماته وأسلوب عيشه ومعتقداته ومعاييره الأخلاقية.

والمثل لون أدبي معبر طريف المنحى، عظيم الفائدة، يلخص تجربة إنسانية، يتردد على ألسنة الناس. على أن شعبية المثل مكنته من احتلال موقع جليل في نفس قائله وسامعه، وجعلت له مكان الصدارة، من حيث الأهمية والتأثير بين سائر فنون القول الشعبية.

لقد تنوعت تعاريف المثل، لكنها جميعًا لا تخرج عن أنه: " قول مأثور، تظهر بلاغته في إيجاز لفظه وإصابة معناه، قيل في مناسبة معينة، وأخذ ليقال في مثل تلك المناسبة ". وقد كان إدراك العرب أهمية الأمثال، سواء كانت فصحى أم شعبية جليًا وواضحًا، فجموعها وحرصوا عليها.

والأمثال حِكَمٌ شعبية شفهية مجهولة القائل وهى واسعة الانتشار بين العامة والخاصة.

كما يمكن تعريف المثل على أنه: "جملة مفيدة موجزة متوارثة شفاهه من جيل إلى جيل. وهو جملة محكمة البناء بليغة العبارة، شائعة الاستعمال عند مختلف الطبقات".

والمثل كما يراه الفارابي: "هو ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم واقتنعوا به في السراء والضراء، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وهو أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص. ولذا فالمثل قيمة خلقية مصطلح على قبولها في شعبها، وهو يمر قبل اعتماده وشيوعه في غربال معايير هذا الشعب، وينم صراحة أو ضمنا عن هذه المعايير على كل صعيد وفي كل حال يتعاقب عليها الإنسان في حياته".

تعرَف الموسوعة البريطانية المثل على أنه: "قول بليغ محكم، يستخدم في نطاق عام، إذ أنه من التعبيرات المتداولة بين الناس، والأمثال جزء من أية لغة متكلمة وتعود إلى بعض أشكال الأدب التراثي (الفولكلوري) المتناقل شفاهة".

وتميز الأمثال الشعبية بأنها تناولت كل مناحي الحياة، ويجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة، كما أن المثل جملة مفيدة دقيقة العبارة، وغالبية الأمثال جمل موسيقية متجانسة الأوزان والكلمات، سهلة الإلقاء والتناقل والحفظ، لها إيقاع خاص.

ويدعو المثل الناس إلى اتباعه والالتزام بما فيه حيث يقول المثل: "زي المثل واعمل" و "ما خلَّى المثل وما قال"

نماذج من الأمثال السورية

إذا احتجت الكلب قوللو يا حاج كلب

- إذا بدك تسرق سروق حرير وإذا بدك تحب حب أمير
- إذا بيصير من الحرملم ساس بيصير من هالجماعة شماس
- إذا جارك بخير انت بخير
- إذا حلق جارك (مات) بلّ دقنك
- إذا شفت الاعمى طبو مالك اكرم من ربو
- إذا طعميت شبع وإذا ضربت وجع
- إذا غاب القط لعب الفار
- إذا قعدت بين العور عوير عينك
- إذا كان بدك تستريح شو ما شفت قول منيح
- إذا كان موسك بدو يحلق شعرتنا خليها تصل لركبتنا
- إذا ما بتكون ديب بتاكلك الدياب

- إذا ما خربت ما بتعمر
- إذا ما كبرت ما بتصغر
- إذن من طين وإذن من عجين
- اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب

اقتل أمير واسرق حرير حتى يحرز التعبير

- أكتر من القرد ما مسخ ربنا
- الإيد هللي ما بتقدر عليها بوسها وادعي عليها بالكسر

الباب اللي بيجيك منو الريح سدو واستريح

- البرطيل بيحلّ دكة القاضي
- البغض بالأهل والحسد بالجيران
- البنت المليحة خير من الصبي الفضيحة
- التلم الأعوج من الثور الكبير
- الجنازة حامية والميت كلب
- الحارة ضيقة والحمار رفاس
- الحجر اللي ما بيعجبك بيفجك

الحظ لما بيواتي بيساوي الاعمى ساعاتي

- الحكاية مش حكاية رمانة هاي قلوب مليانه

- الحمار حمار ولو بين الخيول ربي
- الحمار ما بيوقع بالجورة مرتين
- الخوف بيقطع الجوف
- الداخل مفقود والطالع مولود
- الدجاجة هللي بتقاقي ما بتبيض
- الدم ما بيصير مي
- الدّين يبني....... والتعصب يفني
- الرجال عند غراضها نسوان
- الرحمة مخصصة والبلا بيعم
- الرمد أشوى من العمى

السكافي حافي والحايك عريان

- السلاح بإيد الخرى بيجرح
- الصاحب ساحب
- الصبي ما أحلى بشارته ولو مات بساعته
- الكذب ملح الرجال وعيب عللي بيصدق
- الضرورة الها أحكام
- العادة في البدن ما بيغيرها غير الكفن
- العنزه الجربانه ما بتشرب إلا من رأس النبعه

- العين ما بتعلا عالحاجب
- الغريق بيتّعلق بقشّة

ألف عدو برا الدار ولا عدو جوا الدار

ألف عين تبكي ولا عيني والف أم تبكي ولا أمي

ألف قولة جبان ولا قولة الله يرحمه

- القالب غالب

القرايب عقارب

القط ما بيحب غير خّناقه

- الكلب هللي بيعوي معك أحسن من الكلب هللي بيعوي عليك
- الله بيطعم الحلاوة للي مالو سنان
- الله بيعطي الكعك لهلي ما ألو سنان

إللى بيرّخص بضاعتو بتكسد

اللي بيلاعب القط بدو يحتمل خراميشو

- اللي عقلو براسو بيعرف خلاصو
- اللي فيه مسلة بتنغزو

- اللي ما تقدر تداريه سايسه وجاريه
- المال الداشر بيعّلم الناس الحرام
- المكتوب مبين من عنوانو
- المي ماشية تحت رجليه
- الناس مخباية بتيابها
- الهرب تلتين المرجلة

هناك مثل هذه الأمثال الألوف في المجتمع السوري واذا لقينا نظرة سريعة على هذه الأمثال التي أوردناها سنجد فيها الكثير من المغالطات والخرافات بل نشم منها رائحة الكفر والشرك بالله ولن يمر عليك وأنت تسير في شوارع سوريا أو تتحدث مع شخص أو تسمع نقاش أو مشاجرة أو برنامج تلفزيوني أو غير ذلك الا وستسمع الكثير من الأمثال التي تضرب هنا وهناك ذلك أنه مع مرور الزمن وتوارثها وكثرة استعمالها أصبحت تشكلفي الذهنية السورية الجاهلة حقائق وقوانين لا تقبل النقاش أو الطعن فيها .

والأمثال السورية متنوعة شاملة تشمل كل الأفراد والعلاقات العائلية والسوقية والمجتمعية وحتى المعتقدات سنحاول فهم ذلك من خلال مناقشة بعض الأمثال هنا :

اللي ما تقدر تداريه سايسه وجاريه

وهذا مثل عن النفاق والتقية التي يجب أن تصطنعها للتعامل مع الشخص الأقوى منك فعليك مهادنته ومداراته ولو على حساب الحق والحقيقة لأنه (الإيد هللي ما بتقدر عليها بوسها وادعي عليها بالكسر ) .

الناس مخباية بثيابها

لأنه في مجتمع لا يقوم على الصراحة والصدق ولا يعبر عما في وجدانه وقلبه للأخرين يصعب على أحد معرفة حقيقته وصنفه لذلك فهو مختبأ وراء نفسه .

الكلب هللي بيعوي معك أحسن من الكلب هللي بيعوي عليك

وهذا مثال واضح للتملق واغتنام الفرص والركض وراء المحسوبية والمتنفذين الذين أطلق عليهم وعلىغيرهم اسم الكلب فيدعونا لكسب ودهم وجرهم لصفوفنا وذلك خير لنا من أن يذهبوا ليلهثوا علينا فضمهم لنا أفضل .

الله بيطعم الحلاوة للي مالو سنان

الله بيعطي الكعك لهلي ما ألو سنان

وهذان المثلان فيهما طعن في عدل الله تعالى جل جلاله فهو حسب مثلهم يعطي لمن لايستحق وفي اعتقادهم أنهم يستحقون عطاءه لأن لديهم ( سنان ) لذلك لم يعطيهم .

**ثانيا : استمرارية وبقاء العادات والتقاليد البالية**

لا يخلو مجتمع سوري ولو كان مجتمعا قرويا من سيطرة شبه مطلقة للعادات والتقاليد عليه وخاصة تلك العادات الجاهلة المتخلفة ونلاحظ ذلك أيضا في بعض الأحياء في المدن الكبيرة فترى وكأن المدينة منقسمة على نفسها فمن ناحية ترى حيا حديثا نظيفا مرتبا تضبطه قواعد سلوكية واجتماعية قريبة للحداثة والتمدن سترى في الجهة المقابلة البعيدة حيا لا يزال يعيش في العصور الوسطى لازالت تتحكم فيه كل العادات الجاهلية والغريبة عن روح عصرنا

وهذا يعود لسبب الهجرات الداخلية من الأرياف الفقيرة الجاهلة التي تعمدت حكومة النظام أنتركها لمصيرها فأخترت الهجرة للمدن وهناك شكلت حزاما من مناطق البناء المخالفة وكونت ما يشبهة القرى الكبيرة داخل المدن .

ثالثا : الأنانية والتعصب والأعتزاز بالنفس والمكان والعائلة والمذهب

وهذه الصفات الرذيلة التي نراها في المجتمع السوري سببها الجهل والتخلف والعقلية الجاهلية فلا زالت ( الأنا )

هي الفلسفة الوحيدة التي تحكمنا سواء الأنا الشخصية التي نقصد منها أنفسنا نحن أو اعتزازنا بالأنا الجماعية فنحن مثالا لا زلنا نفتخر بأننا من العائلة الفلانية التي ترجع الى العشيرى الفلانية وعادة ما يتكون عشيرته وعائلته من أتعس العشائر وأكثرها عنفا ودمويا .

ويلاحظ أنا تنامي ظاهرة الأعتزاز بالمنطقة أو المكان فمثلا أهل حمص يطعنون بالحموية وأهل مدينة دير الزور يطعنون بأهل الريف وسكان حلب يرون أنفسهم فوق الجميع وهذا التباهي المكاني موجود على المستوى الريفي في القرى والبلدات التي كثيرا ما يحدث فيها القتال بين قريتين بسبب ذلك بل أن هذه الظاهرة وصلت الى حد التفاخر ضمن أبناء العمومة ( أنا وأخوي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب ) هذه هي القاعدة المتخلفة التي تحكم وتتحكم في عقول أغلبة السوريين .

**رابعا : الممارسات العنفية وجرائم الثأر والقتل بدافع الشرف**

بحكم عملنا في القانون فلقد كلفت ذات مرة بعمل دراسة عن جرائم الثأر والقتل بدافع الشرف في الجزيرة السورية ولقد كانت النتائج مخيفة حقا وذيلنا دراستنا تحت ملاحظة وهي ان هذه الجرائم تشكل ظاهرة خطيرة متفشية في المجتمع وهذه النتيجة تنطبق على المجتمع السوري برمته اذا أضفنا اليها جرائم القتل المتعلقة بالخلافات والتنازعات على الأراضي والتركات والأموال والشركات وغيرذلك .

فأستيفاء الحق والحصول عليه بالذات والقوة ظاهرة معروفة بالمجتمع السوري بل لقد تشكلت مافيات خاصة للقيام بهذه المهام بديلة للتحاكم والقضاء .

كما أن المشاجرات البينية التي تحدث في المجتمع السوري لا مثيل لها في بقية المجتمعات حيث تحصل لأسباب تافهة لا تذكر ويلاحظ كثرة هذه المشاجرات في أيام الصوم من شهر رمضان .

خامسا : مظاهر الفساد والحسد والغيرة والوشايات والألقاب .

وهي مظاهر علنية ومعروفة ويشتهر بها المجتمع السوري فتثير الظغائن والنعرات والمشاكل لتصل لحد القتل والتصفيات

ولقد كان للنظام السوري الفاسد دوره في تعميم هذه الظواهر واتباع سياسة أفساد الدولة والمجتمع وولدت من رحم المجتمع السوري ما يسمى بجماعة المخبرين والذين زرعتهم السلطة في كل أرجاء سوريا ولا يخلو بيت سوري أو عائلة سورية من وجود مخبر فيه مستعد للأخبار والوشاية بأقرب المقربين اليه وهناك حالات كثيرة حدثت نحن لا نتكلم عن أوهام أو خرافات بل عن وقائع حصلت وأحداث تحققت .

سادسا : مظاهر التصوف وما يرجع اليها من الأيمان بالأولياء والمصلحين وجماعات أل البيت وغير ذلك

وهذه المظاهر التي تنتشر في مجتمع ما فهي أكبر دليل على جهله وتخلفه .

وتنتج هذه الحالات صنعة تجر الكثير من الأموال كالسحر والشعوذة وفك المربوط وغير ذلك .

## قصة حقيقية معبرة

سأنشر هذه القصة كما أوردها شاب سوري على أحد مواقع التواصل الأجتماعي كما هي :

(( وُلدت وعشتُ حتى المرحلة الثانوية في بلدة (صبورة) تتبع لمحافظة حماة، وهذه المحافظة تتميز بتنوعها الطائفي والإثني، ورغم حالة السلام والتعايش بين مكونات المحافظة وعدم حدوث حروب أو حوادث كبيرة تذكر بين الطوائف، إلا أنَّ كل مكوّن يضمر خوفاً من المكون الآخر، عزّزته القناعات المذهبية السائدة.

حين خطبت فتاة من مدينة سلمية، تنتمي للطائفة الإسماعيلية، رفض غالبية أهلي هذا الأمر وحاولوا إفشاله بشتى السبل، ولم يذهب معي إلى خطبتها وعلى مضض إلا والدي وأخي وأختي. وبعد قراءة الفاتحة عادوا سريعاً إلى البيت، فيما هدّد أحد أصهرتي أختي قائلاً: إذا تزوّج أخوك البنت "السمعولية" اعتبري نفسك طالقاً. ولقد أصبح موضوع خطبتي موضوع الساعة في حارتنا بالضيعة، لكن البعض اعتبر المسألة طبيعية من شخص مثلي، معتقل سابق، ومتمرد على الطائفة لا بل خارج عن الملّة!

ومن حوالي الشهرين تزوج قريب لي، وهو عسكري في درعا، من امرأة أرملة حورانية لديها ثلاثة أولاد. الآن هو محل إدانة ومقاطعة، فهي سنية أولاً وأرملة ثانياً، أي ليست بكرا وأكبر منه سناً، خاصة وأنّ زواجه منها جاء في ظروف

الحرب الضروس التي يعتبر العلويون سبب قيامها الحوارنة ودرعا، وهم من كان رأس حربة "المؤامرة الكونية" على سورية!

مثال آخر، أورده هنا يدلل على العلاقة الشائكة بين الطوائف في سوريا: أحد أقربائي وهو رجل دين يفاخر في البلدة وبين عائلته وأقربائه بأنه لم يدخل الى بيته أي شخص سني بحياته، وهذا ما يزيده احترام بنظر أهل الضيعة أو أغلب ناسها!

هناك قناعة فيما يخص الزواج بين الطوائف، تتكثف بالمثل السائر "الذي لا يتزوج من ملته يموت بعلته"، وخاصة لدى الطائفة العلوية. وعند حدوث أي مشكلة في الحياة الزوجية كما تحدث في العادة في كل العائلات، يردون الأمر وأسباب الخلاف لهذا الزواج الشاذ من خارج الطائفة!

وللتقليل والتصغير من شأن الطائفة الإسماعيلية يطلقون عليها "السمعولية"، أو "السمعوليين"، في حين تطلق الطوائف الأخرى على الطائفة العلوية اسم "النصيرية" أو "النصيريين"، وهذا الاسم مكروه لدى العلويين، ويعتبرون إطلاقه مقصود من الطوائف الأخرى للحطّ من قيمتهم.

ويسري قول آخر في ضيعتنا أو مثل يقول: "تغدّى عن السلموني (الإسماعيلي) ونام عند المسيحي"، حيث يعتبر العلويون أنّ المسيحيين لا يهتمون بالنظافة ولا يتطهرون بالماء أثناء دخولهم التواليت! لكن المسيحي أمين وموضع ثقة، أما الإسماعيلي لا يمكن الوثوق به أوالنوم في بيته!

بينما لدى الطائفة الإسماعيلية قول ومثل هو "عدو جدك ما بيودك"، أي أنّ العلويين يكرهون الإسماعيليين، لا بل يحقدون عليهم. وهذا الأمر جاء على خلفية الاقتتال والمعارك التي دارت في الساحل السوري (محافظة طرطوس) في العشرينيات من القرن العشرين بين الشيخ صالح العلي وقواته (العلويين) والطائفة الإسماعيلية.

وهناك عادات تخص الطوائف فيما يتعلق بالطعام، فالعلويون لا يأكلون من اللحوم سوى لحوم الذكر من الغنم والبقر والماعز، لذلك أغلب العلويين لا يشترون من أي لحام سني أو من طائفة أخرى خوفا من أن تكون الذبيحة لحم أنثى أو لحم غير مذبوح على الطريقة الإسلامية الصحيحة أو لحم (فطايس)، وفق التعبير الشعبي السائد .

وفي الساحل السوري يقولون أنّ المسيحيين يصبحون جدا بشعين ومجعدي الوجوه حين يكبرون بالعمر، لأنهم يأكلون لحم الخنزير ولأنهم طلبوا من الرب النضارة والجمال أول العمر ! !

ويتهم العلويون الطائفة المرشدية (انشقت عن العلويين في النصف الأول من القرن العشرين بزعامة سلمان المرشد)، بأنّ لديهم عيد تمارس فيه الرذيلة حيث يتم الاختلاط بين الرجال والنساء (المتزوجين) ضمن حفل ماجن، تطفأ الأضواء ويختلط فيه الحابل بالنابل !

ويسود لدى العلويين في منطقتنا قناعة مفادها: أن البدوي لئيم وغدار وينبغي الحذر منه دائماً، فالمنطقة كان يسكن فيها البدو ضمن خيم أو بيوت شعر (خيم مصنوعة من شعر الماعز) وكانوا يعملون برعي الأغنام ويهتمون بقطعان الضيعة، فالعلاقة بين السكان والبدو يحكمها نظام الأجير والسيد، أي صاحب القطيع والبدوي الذي يعمل لديه بالرعي.

## دولة طائفية في جوهرها

طبعا السلطة في سورية، وخاصة خلال الخمسين سنة الأخيرة كانت تلعب اللعبة الطائفية وتكرّس بشكل غير مباشر هذه المفاهيم الطائفية، لتبقى العلاقة بين الطوائف سطحية يشوبها الخوف والحذر وعدم الثقة. فخلال دراستنا في المرحلة الثانوية في مدرسة البلدة (وهي مدرسة كبيرة يدرس فيها من كل القرى المجاورة لقريتنا ومن كل الطوائف) . كل عام في بداية السنة الدراسية كان يقوم أحد الموجهين في المدرسة، وهو مسؤول بعثي (الحزب الحاكم) بدراسة على الطلاب وطوائفهم، ويجري عليهم مسح طائفي لتحديد طائفة كل شخص وما هي اتجاهاته السياسية.

وفي أول وعينا واختلاطنا مع زملائنا من كل الطوائف، ومن خلال زياراتنا المتبادلة وتعرّفنا عن قرب على أصدقاء من كل الطوائف، بدأت تتكسر المنظومة الطائفية المتكرسة في رؤوسنا خلال سنوات الطفولة، حيث الأحاديث والمرويات الشفهية تشكل خزان المعرفة الأولى، وتبذر بذورها في الوعي وتساهم في تشكيل صورة الآخر. وساهم في هذا الوعي الجديد الأفكار اليسارية والماركسية التي آمنا بها بداية المراهقة.

ونتيجة هذا الاختلاط بين الطلاب والأحاديث التي كنّا نتداولها، تمّ تصنيفنا من قبل نفس الموجه العضو البعثي في خانة أعداء البعث، واكتشفنا لاحقا في فترة الاعتقال (اعتقل الكاتب بين أيار 1985 وكانون الأول 1991 كونه صديقا لحزب العمل الشيوعي)، أنّ تقارير كثيرة عن صداقاتنا وأحاديثنا تمّ إرسالها إلى أجهزة الأمن، أي أنّ السلطة والأجهزة الأمنية حريصة على هذه المنظومة من العلاقات الطائفية، ويساورها الخوف من أيّ علامات جديدة تدل على وعي جديد أو شكل اجتماعي مختلف عما تريد هي تكريسه ضمن المجتمع السوري، لكنها تغلفه ببروباغندا إعلامية مزيفة عن الوحدة الوطنية والقومية والتماسك الاجتماعي، لا بل وتمنع أي دراسات اجتماعية أو علمية عن الطوائف

في سورية أو فتح المجال للنقاش في العلاقات الطائفية في وسائل الاعلام أو ضمن المنتديات أو المجال العام، مما يزيد الطين بلة، فيزداد الخوف من الآخر وتتعزّز الأوهام.

أما بالنسبة للجيش فالخدمة الالزامية تجعل الاختلاط بين أشخاص من مختلف الطوائف والعشائر أمر حتمي. ورغم أنني لم أخدم الخدمة الالزامية في الجيش كوني معتقلا سابقا لمدة سبع سنوات، إلا أنني ومن خلال أقاربي أعرف تكوين الجيش والعلاقات الاجتماعية بين أفراده. وبسبب الخوف لا يمكن التحدث عن الطوائف في الجيش أبدا، فسيطرة أجهزة الأمن على الجيش والرقابة شديدة جدا . . . ورغم علاقات الزمالة الوطيدة ظاهريا في الجيش، إلا أن هناك تمييز طائفي غير معلن فيما يخص مثلا الامتيازات والمناصب والإجازات...

الزواج المختلط والشرف

بالعودة الى قصة خطبتي التي أوردتها أعلاه، أذكر أمرا طريفا: حين يتزوج أي شاب درس في الغرب أو في روسيا أو في أوروبا عموما من امرأة غربية ترى الناس يتقاطرون لرؤية هذه المرأة والتعرّف عليها . هذا الزواج ربما يكون مصدر فخر لأهل الشاب! بينما إذا تزوج الشاب من امرأة في حارته لكنها من غير طائفته، فالويل والثبور وعظائم الأمور! ويردُّ البعض هذا التسامح من الزواج بأجنبيات الى ما يسمّى "عقدة الخواجة".

طبعا رد الفعل فيما يخص الزواج ليس متساويا لدى كل الطوائف، فأقسى ردات الفعل نراها لدى الطائفة الدرزية حيث يصل في بعض الأحيان للقتل، وخاصة للنساء اللواتي يتزوجن خارج الطائفة، بينما تقف عند حدّ المقاطعة عند البعض الآخر كالعلويين والمسيحيين. . . بينما الموقف لدى السنة في قضايا الزواج المختلط أفضل نسبيا، بينما لا يشكّل الأمر أيّة مشكلة لدى الطائفة الإسماعيلية.

وفي حال تزوج شخص علوي من امرأة شيعية فليس هناك مشكلة تذكر، فرغم الخلاف العقائدي بين الشيعة والعلويين إلا أنّ بينهما بعض التقاطعات تجعلهم متحالفين أو قلّ متفاهمين إلى حد كبير وبخاصة الإتفاق على الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين.

وبالنسبة للمرأة العلوية، عادة ما يكون الزواج من رجل ينتمي لطائفة أخرى أكثر صعوبة وتصل العقوبة في بعض الأحيان إلى القتل (الكاتب هنا يتحدث عن ريفي حمص وحماة العلويين، علما أن الأمر مختلف في قرى الساحل السوري العلوية)

لكن في حال كان الزواج بين شخصين من طائفتين مختلفتين لكنهما من عائلات متنفذة أو ثرية أو معروفة أو ذات مواقع مهمة في السلطة فلا أحد يتجرأ على تهديد أي منهما . على سبيل المثال: كانت المخرجة والفنانة نائلة الاطرش متزوجة من الفنان الراحل خالد تاجا والأطرش درزية وتاجا سني شامي. ولكن لاعتبارات عائلية لم يعترض أحد أو قل لم يتجرأ أحد على التشهير بهذا الزواج، أو زواج جمال خدام ابن عبد الحليم خدام (السني) من حنان خير بك (العلوية) . . . ومن الزيجات الأشهر زواج الرئيس من امرأة سنية وزواج شقيقه ماهر أيضا من امرأة سنية وهذا على سبيل المثال لا الحصر. إذا جرائم الشرف يرتكبها فقراء ضد فقراء آخرين، فالسلطة لا يهمها الطوائف ولا الأديان بقدر ما يهما توظيفهما في شرزمة وتفتت المجتمع؟

ومما يكرس هذه الوضعية الطائفية، وخاصة فيما يتعلق بالزواج، القوانين! فعقوبة القاتل في جرائم ما يسمى الشرف سبع سنوات كحد أقصى وكانت قبل عام 2011 سنتين كحد أقص، وغالبا ما يتم تشجيع القاصرين من قبل الأسرة والعائلة إلى ارتكاب هذا النوع من الجرائم لأن عقوبتها لا تتعدى الأشهر.

## التقمص والحفاظ على الأسرار

ومن المسائل الملفتة في صورة الآخر الطائفي ما يتعلق بقضايا الموت، فكما هو معروف أنّ العلويين يؤمنون بالتقمّص، أي أنّ روح الإنسان تنفصل عند الموت عن جسده وتحلّ في مخلوق آخر، ليس بالضرورة إنسان آخر، فإذا كان الشخص المتوفي خيّراً سوف تحل روحه بالضرورة في جسد إنسان آخر، والكثير من القصص تروى ضمن الطائفة العلوية عن أشخاص (حدّوا في جيلهم) أي كانوا فيما مضى قبل موتهم أشخاص آخرين وأبناء لعائلات أخرى.

جارتنا الصبية وحينما كبرت قليلاً، أصبحت (كما يقولون في القرية) تروي قصتها، فهي كانت فتاة يهودية تقود طائرة حربية تمّ إسقاط طائرتها في حرب تشرين وماتت ثم خلقت من جديد في ضيعتنا . هذه العودة مجددا للحياة في أسرة علوية، تعني أنّ روح هذه البنت كانت طاهرة، بينما يؤمن العلويون أنّ غالبية أرواح السنة غير طاهرة، لذلك عندما تعود الروح للسكن في جسد آخر تعود إلى أجساد الحيوانات وربما أجساد ناس معاقين. وأيضا في الطائفة العلوية إذا كانت روح الشخص العلوي شريرة سوف يعيد خلقها الله في جسد حيوان (أفعى، كلب، حمار . . .) .

ولا تقتصر قصص ومعتقدات العلويين على بعض ما أوردناه، إنما أيضا لديهم معتقدات عن لون الشخص، فإذا كان الشخص مصاب بالبرص، فهذا يعني أنه ملعون الروح وقد ارتكب في أجيال ماضية الكثير من الذنوب والمعاصي. وإذا كان لون بشرة الشخص أسمر غامق، يقولون عنه "أسود الجلد"، وهذه من ضمن الأفكار العنصرية التي تتضمنها هذه المعتقدات. فمثلا هناك قناعة لدى أغلب العلويين أنّ كل الفلسطينين غامقي اللون، لذلك لم يصدّق أهلي أن قسما من أصدقائي هم فلسطينيون، لكون بشرتهم بيضاء أو حنطية، واحد منهم فقط اقتنع أهلي أنه فلسطيني لكونه غامق البشرة.

العلويون لديهم ديانة سرية مقدسة لا يطلع عليها أو يدرسها غير العلوي، وإذا حصل وأن سرّبها شخص علوي لشخص من طائفة أخرى سيمسخه الله إلى حيوان أو ربما يصاب بالعمى أو الشلل مما يجعل الخوف من أيّة تسريبات عن الدين العلوي هو سيّد الموقف. وحتى اطلاع امرأة على العقيدة الدينية ولو كانت هذه المرأة علوية، فحتما سيصاب هذه الشخص بعاهة أو يعاقبه الله بعقوبة ما، والتفسير أنّ المرأة غير جديره بحمل السر وهي بالأساس ناقصة عقل ودين!

كما يعتقد العلويون أن لدى السنة ديانة سرية غير الظاهرية التي تدرس بالمدارس والجوامع، ولا يمكن إقناع العلوي بغير ذلك، فهو يعتقد أنّ السني لديه دستور سري يتضمن معتقداته عن الطوائف الأخرى، والتي تدفعه لكرهه وربما حين تحين الفرصة قتله! ويكاد يجمع العلويون أنّ الطائفة السنية تكره الإمام علي! ومن الصعوبة اقتناع العلوي أنّ علياً بالنسبة للسنة هو الخليفة الراشدي الرابع وابن عم الرسول ومن أوائل من آمن برسالة محمد، وهو بنفس قيمة باقي الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان... ومن المعروف أن الطائفة العلوية تعتبر هؤلاء الخلفاء الثلاثة تآمروا على علي بعد موت الرسول ولطالما أرادوا له الموت!

قبل الإنتفاضة السورية وفيما بعد الحرب الأهلية كانت العلاقة بين مختلف الطوائف السورية ومكونات الشعب السوري تحكمها (حسب رأيي) التقية أو قل النفاق، كما هي العلاقة تماما بين النظام السياسي والشعب، فالخوف من الاستبداد يولد ما يعرف بالتقية، أي الظهور بمظهر يختلف عما يعتمل في دواخل الإنسان.

الناس تعمل مع بعض في الوظائف الحكومية وفي الشركات وفي الحقول والأراضي، وفي التجارة والتسوق، وتشرب الشاي وتأكل أحيانا مع بعض... لكن هذه العلاقة علاقة سطحية تتعلّق بالعيش المشترك الضروري ضمن جغرافية

واحدة وتحت سلطة واحدة. لكن ما إن تتعدّى هذه العلاقة إلى علاقة زواج بين الطوائف حتى تتفكك هذه العلاقة التي تبدو متينة في ظاهرها، لا بل تتحول في كثير من الأحيان إلى علاقة عداء. والقوانين السورية، وخاصة قانون الأحوال الشخصية يعزز هذه العلاقة الملتبسة والملغومة بين الطوائف السورية، فمن يريد الزواج من باقي الأديان أو من الدروز بمسلمة أو مسلم (سنة علويون اسماعيليون...) عليه\ها إعلان إسلامه\ها في المحكمة الشرعية أي على أي شخص يريد الزواج من مسلمة تغيير دينه إلى الإسلام!

وحين يقتل الأخ أخته لأنها تزوجت من رجل خارج طائفتها يعتبرها قانون العقوبات السوري (جريمة شرف)، وتخفّف العقوبة كثيرا ما يؤدي الى تعميق الطائفية والإبقاء على مفاهيم ما قبل الدولة الحديثة، والتي (في أي ظرف سياسي كما هو حاصل في سوريا الآن) قد تتحول هذه العلاقة إلى علاقة عداء وحرب مستفحل تعمل الأنظمة السياسية الاستبدادية عموما على الحفاظ عليها لاستخدامها حين الحاجة، وخاصة إذا ما فكرت الشعوب بالخروج على الحاكم والتطلع للعدالة والحرية.

من جانب آخر تعمل العقائد الطائفية والمرويات الشفاهية التي تروى في الغرف المغلقة كمخزون عاطفي نفسي يتشربه الطفل في العشر سنوات الأولى من عمره، وربما يتحكم هذا المخزون في سلوكه وأفكاره عندما ينمو، فينظر الى الآخر الطائفي بمنظور إيديولوجي عقيدي تم حشو رأسه فيه في الصغر. وهذا الأمر ينطبق على كل الطوائف في سورية، فالعقائد الطائفية تظهر في الحروب، فهي المناخ الملائم والنموذجي لزوال قشرة المحبة والسلام الكاذبين بين المكونات الطائفية، فالحرب تميط اللثام عن الأفكار التي تحدّد وتصف الآخر، وتصبح الموّجه للعنف والقتل والموت، فالآخر الطائفي هو العدو الذي يريد قتلي واغتصاب امرأتي، لذا يجب أن "أتغدّى به قبل أن يتعشّى بي"، وهذا ما تم العمل

به منذ الأشهر الأولى من عام 2011، فالأساس الإيديولوجي العقيدي للحرب الأهلية في سورية كان جاهزا حيث استمر العمل عليه لعشرات السنين فيما مضى.

وكانت أولى بروفاته عام 2004 في انتفاضة الأكراد وأحداث مصياف، ففي الأولى تفجرت الأحداث بين أهل دير الزور والكرد أثناء مباراة لكرة القدم، بينما تفجرت الثانية بعد خلاف بين سائقي باص في محطة السرافيس في مدينة مصياف، أحدهما اسماعيلي والآخر علوي، ولو أنّ الخلاف جرى بين شخصين من نفس الطائفة لكانت المشكلة مجرد شجار بين شخصين، لكن ما دام الشخصين من طائفتين مختلفتين، تطوّر الصراع في المدينة المختلطة ليصبح حالة عداء وصراع ومقاطعة بين العلويين والإسماعيليين.

إذاً، أحد أهم أسلحة الحرب السورية الآن، والتي دمرت كل شيء، وتشظّى بسببها المجتمع السوري هي العقائد المذهبية والمرويات الشفهية التي يتداولها أبناء كل طائفة عن أبناء الطوائف الأخرى، والتي في معظمها تأليف واختلاق توراثتها الأجيال وأمنت لها سلطات الاستبداد المناخ المناسب للنمو والرسوخ لتصبح بمثابة حقائق تبرر التوحش الذي نراه اليوم في أساليب القتل والمجازر المرتكبة بين الطوائف والتمثيل بالأجساد . . . وهذا العامل الطائفي، والذي برز خلال سنوات الحرب السورية تم تكريسه خلال حكم الأسدين، الأب والابن، واستخدامه في الصراعات السياسية، وخاصة خلال الصراع بين الإخوان المسلمين والسلطة (1979 وعام 1985) . وباعتقادي كان استخدام العامل الطائفي من قبل السلطة من أهم العوامل التي لعبت دورا في استمرارية حكم عائلة الأسد كل هذه الفترة، وظهر جلياً دور العصبية الطائفية خلال سنوات الحرب السورية السبع، وهذا العامل استخدمه كلا طرفي الحرب ليظهر الصراع وكأنه صراع علوي سني، وهذا المظهر غذته الدول الاقليمية والنظام على حد سواء !

والسؤال هنا: هل يمكن أن تزول صورة الآخر الشفهية من العلاقات الاجتماعية في سوريا ؟

ربما لن تزول هذه المرويات والثقافة الشفهية المكرّسة لكره الآخر إلا في ظل نظام ديمقراطي علماني تتم في ظله المكاشفة بين مكونات المجتمع السوري وإجراء دراسات وبحوث صريحة وعلنية في العقائد والمذاهب، ومن خلال وسائل الإعلام وفي المجال العام )) .

انتهت القصة ومعها انتهى محور بحثنا الثاني

## ثالثا

## الخوف

### معنى الخوف لغة واصطلاحا

واحد يدلّ على الذّعر والفزع، يقال خفت الشّيء خوفا وخيفة. الخوف لغة: تدلّ مادّة (خ وف) على الذّعر والفزع،

يقول ابن فارس .

وخاف الرّجل يخاف خوفا وخيفة ومخافة فهو خائف. والأمر منه خف بفتح الخاء . وخاوفه فخافه

يخوفه: غلبه في الخوف، أي كان أشدّ خوفا منه.

واصطلاحا: عرّفه العلماء عدّة تعريفات تبعا لاختلاف نظرة كلّ منهم، فيقول الرّاغب: الخوف:

توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويضادّه الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة.

ويقول الجرجانيّ : الخوف توقّع حلول مكروه أو فوات محبوب . وقيل: اضطراب القلب وحركته من

تذكّر المخوف، وقيل: فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته

### المعنى الفلسفي والنفسي للخوف

خَوْف أو المَخَافَة أو الخَشْيَة هو الشعور الناجم عن الخطر أو التهديد المتصور ويحدث في أنواع معينة من الكائنات الحية، ويقوم بدوره بالتسبب في تغير في وظائف الأيضية والعضوية ويفضي في نهاية المطاف إلى تغيير في السلوك، مثل الهروب، الاختباء، أو التجمد تجاه الأحداث المؤلمة التي يتصورها الفرد. وقد يحدث الخوف في البشر ردا على تحفيز معين يحدث في الوقت الحاضر، أو تحسبا كتوقع وجود تهديد محتمل في المستقبل كوجود خطر على الجسم أو الحياة عموما. وتنشأ استجابة الخوف من تصور لوجود خطر ما، مما يؤدي إلى المواجهة معه أو الهروب منه وتجنبه (المعروف أيضا باسم استجابة القتال أو الطيران)، وهذه الاستجابة في الحالات القصوى من الخوف (الرعب والرَّهْبَة) يمكن أن تؤدي إلي التجمد أو الشلل في البشر والحيوانات، يتم تعديل الخوف من خلال عملية الإدراك والتعلم. وبالتالي فيمكن الحكم على الخوف بأنه خوف عقلاني (منطقي) أو الخوف المناسب، وهناك أيضا الخوف غير العقلاني (غير منطقي) أو غير المناسب. ويسمى الخوف غير العقلاني بالرهاب.

اقترح علماء النفس مثل جون واطسون، روبرت بولتشك، وبول أيكمن أن هناك مجموعة صغيرة من العواطف الأساسية أو الفطرية وأن الخوف أحد هذه العواطف. وتشمل هذه المجموعة المفترضة مشاعر أخرى مثل تفاعل حاد للكرب، الغضب، القلق، الخوف، الرعب، الفرح، الذعر، والحزن.

يرتبط الخوف ارتباطا وثيقا بالتوتر، ولكن ينبغي أن يفرق بين الخوف والتوتر، والذي يحدث نتيجة التهديدات التي ينظر إليها على أنها لا يمكن السيطرة عليها أو لا يمكن تجنبها. وتخدم استجابة الخوف غريزة البقاء على قيد الحياة عن طريق توليد الاستجابات السلوكية المناسبة.

## الأعراض والعلامات

ترتبط العديد من التغييرات الفسيولوجية في الجسم باستجابة الخوف، نلخصها في استجابة القتال أو الطيران، وهي استجابة فطرية لمواجهة الخطر، وتعمل من خلال تسريع معدل التنفس، ومعدل ضربات القلب، انقباض الأوعية الدموية الطرفية مما يؤدي إلى احمرار وتوسع الأوعية المركزية، وزيادة توتر العضلات بما فيها عضلات المتعلقة بالبصيلات الشعرية وتسبب «القشعريرة»، والتعرق، وزيادة نسبة السكر في الدم (ارتفاع سكر الدم)، وزيادة الكالسيوم في الدم، وزيادة في خلايا الدم البيضاء، وحالة اليقظة التي تؤدي إلى اضطراب النوم و«الفراشات في المعدة» (عسر الهضم) . هذه الآلية البدائية قد تساعد الكائن الحي في البقاء على قيد الحياة إما بالهرب أو محاربة الخطر. ومع سلسلة من التغيرات الفسيولوجية يدرك العقل الواعي عاطفة الخوف.

## ثقافة الخوف عند السوريين

يتفق الكثير من علماء النفس أن تاريخ الإنسان يقدم خلاصة أخلاقية وسلوكية محوريّة يمكن التعبير عنها على النحو التالي: "الخوف هو العدو الأول للإنسان، وهو كذلك العدو الأكبر للحياة والتفكير بها بطريقة آمنة وسليمة.

وللخوف منابع كثيرة بدءاً من الكوارث الطبيعية إلى السياسية, مروراً بالاقتصادية، والخوف من المستقبل, وأهم مصادره هو الخوف من الموت. وهذا كله مفهوم ومعلوم بجدوده الطبيعية والظرفية التي تنتجه وتحكمه. لكن الخوف السياسي والخوف الثقافي، وتحولهما إلى ثقافة عامة شائعة, هو من أكبر الأخطار والكوابيس التي باتت تحكم المجتمع السوري وأبنائه, وتهدد مستقبله وتصادره.

فالخوف فعل تعطيلٍ وإحجامٍ. وسلوكٍ سلبيٍ, يمنع ويردع من القيام بالفعل والعمل والواجب, ويصيب الفكر بالشلل, وفي أحيانٍ ينتج عنه ردود أفعالٍ سلبيةٍ غير محسوبة ولا متوقعة, وهنا تكمن خطورته, وتظهر آثاره السلبية على الإنسان والمجتمع.

وربما تعود جذوره إلى الاحتلالات القديمة التي تعرض لها, وما رافقها من قمع ورعب واستلاب, ثم جاءت السلطات السياسية الوطنية, لتعمل على زرع الخوف وبثِّهِ في النفوس, لتتمكن عبر ذلك من تثبيت سلطانها, وحمايته.

ويحدث ذلك غالباً لفقدانها الشرعية, المتعارف عليها في عصرنا الحديث, وهي أن تكون سلطات دستورية منتخبة.

ولقد تطور هذا النوع من الخوف كثيراً في فترة الوحدة بين سوريا ومصر, وسمعة المكتب الثاني التي كانت تثير الرعب في نفوس السوريين وحكايا التذويب بالأسيد

ثم يأتي بعدها حكم الحزب الواحد, وتحييد معارضيه, إما بالتسريح والاستبعاد، أو السجن, وصولاً إلى ذروة الخوف, في الحرب التي مرت بها سوريا طيلة عشر سنوات, وما رافقها من قتل وقمع وخطف وتشنيع.

وبذلك، يتحول الإنسان السوري, إلى إنسان "كافكوي"، نسبة إلى الروائي كافكا, ذلك الخائف الأبدي, والذي قال في إحدى رسائله: "إنني أغرق في هذا الخوف, غير قادر على مساعدة ذاتي".

وفي تقديمه لكتابه "الخوف السائل" يقول "زيجمونت باومان": "قطعت الحداثة الغربية على نفسها وعوداً كثير, من بينها الوعد باستئصال الخوف من العالم, وإخضاعه لإدارة بشرية وعقلانية.

وكان ذلك يعني استبعاد لغة القضاء والقدر والبلاء والابتلاء, وتحويله إلى لغة الإرادة والاستحقاق والمسؤولية والمحاسبة".

بما يعني ذلك محاربة مصادر الخوف الثلاثة: جموح الطبيعة, وهشاشة جسد الإنسان وخوفه من المرض, والعدوان البشري الذي يترجم مقولة الفيلسوف توماس هوبز، بأن "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان".

وتعددت تعريفات علماء الاجتماع والفلاسفة للخوف. وذلك بحسب نظرتهم له: بأنه استجابة انفعالية في مواجهة خطر ماثل أو متوقع, فيحصل ذلك الاضطراب والقلق, وربما الإحجام والقنوط, أو الانسحاب السلبي من المواجهة, ما أمكن ذلك.

ويبدأ الخوف من الطفولة, ثم يكبر وينمو, عبر ثقافة الممنوع والحرام والخطر. فكان الحل عند "باومان" وجود" دولة قوية تهذب الرغبات الكامنة في الإنسان, دولة تعتمد جهنم الدنيوية الواقعية بدلاً من جهنم الآخروية المتخيلة".

ومن تابوات يمنع مناقشتها يبدأ الخوف الثقافي في سوريا: "الدين والجنس والسياسة"، نتيجة الخوف من السلطات الدينية والاجتماعية وما تملكانه من نفوذ وسطوة.

وسادت في سوريا "التقية" السياسية. أي إخفاء الآراء السياسية نتيجة الخوف والمحاسبة التي تراكمت على مدار سنوات وعقود, وتجارب مرعبة, بدءاً من السجن لفترات طويلة, إلى التغييب والفقدان, مما نسج عليه من القصص, الحقيقية والمبالغ فيها, لكنها كلها تحولت إلى سجلات للخوف, تكدست في لاوعي السوريين, وأُسكنت في دواخلهم خوفاً مزمناً لا فكاك منه.

## "داعش" وأفلام الرعب

ازداد الخوف بعد عاصفة الربيع العربي, وتعددت أنواعه وأسبابه, من الخوف السياسي, إلى الخوف الطائفي. إلى الخوف العرقي والمناطقي.

ولم يقتصر الخوف على المناطق المعارضة, التي كانت تخشى القصف والاقتحام, فلقد ساد نفس الرعب في المناطق الموالية, التي كانت تبيت الليالي خوفاً على أبنائها، أو خوفاً من اجتياح التنظيمات المتشددة, وما تحمله من ثقافة تطهيرية, وخاصة بعد ظهور تنظيم الدولة الإسلامية (داعش), وما بثّه من أفلام رعب هوليودية، إلى أن ينتهي بالخوف من المستقبل, والقلق الوجودي.

لقد سعى التنظيم إلى نشر نظام الرعب الذي يتّبعه خارج المشرق العربي وصولًا إلى ليبيا ومصر وسوريا وأفغانستان وإلى كل بقعة تصلها يده التي تقوم بأفعال وممارسات وحشية منحرفة تضع كلها في مأزق أخلاقي لا يتصوره أي عقلٍ.

## الهروب من الخوف

حصل في فترات كثيرة, أن كان يفر السوري من سيارة الأمن, فراره من الطاعون, حتى لو لم يكن قد ارتكب ما يستحق المحاسبة, وحين يتم استدعاؤه من قبل جهة أمنية, يحصل أن يغادر البلد نهائياً إذا فشل في تأمين واسطة, تضمن له عودة آمنة من تلك الجولة المرعبة.

ويحافظ السوري, على ذكر ألقاب التفخيم والتبجيل, حين ذكر اسم مسؤول ما, في الجلسات العامة, خشية أن يتم تصيده من قبل كاتب تقارير لا يرحم.

كل هذا، دفع معظم السوريين للهجرة، أو محاولة ذلك والتخطيط له, بعد أن استوطن الخوف نفوسهم, وأكل القلق أعصابهم. على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم, ولقد بدأ الكل يسمع الكثير من الأصوات تروي حكاياتها , بعد أن أصبحت في مأمن, في بلاد الهجرة والاغتراب, وسرديات الخوف, التي كانت تلتهمهم مثل وحشٍ خرافيٍ.

يقول محمد الماغوط

الخوف هو فقدان الحرية، وكل ما سمعتُ قرع باب بيتي أخاف"، هذا ما قاله الماغوط في مقابلته مع محطة "العربية") " في برنامج "أدب السجون". يضيف: "وكالجرافة حفر الخوف بداخلي، بعد أن تم سحبي إلى فرع الأمن للتحقيق معي، فكانت تلك الصفعة التي لثمت وجهي، بمثابة القطيعة بيني وبين العالم، ليمسي الخوف كالبترول الذي لا ينضب، ورغم تكريم الدولة لي وحمايتي وصرف راتب شهري لي مدة الحياة، ما زلت ذلك الطفل الذي ترتجف ركبتيه من الخوف، عندما يُقرع باب بيتي".

لقد كان الخوف والجوع والإهانة، ثلاثية الماغوط الحقوقية، وشعار ثورته الأدبية والفكرية ضد النظام السوري، . ( صاحب العناصر المخابراتية الذريّة

## متى بدأ الخوف عند السوريين ؟

قلنا ان الخوف يشكل أحد مكونات وبنى العقل السوري وتكوين هذه البنية ونضوجها يتطلب عدة عوامل منها الوقت والاستمرارية والعوامل المساعدة وسنعمل على دراسة هذه العوامل بالتتالي وهي :

الأول متى بدأ هاجس الخوف

الثاني ماالعوامل التي أدت لاستمراره ونضوجه

الثالث ما هي العوامل التي زادت في تقوية هاجس الخوف

## أولا

### الأول متى بدأ هاجس الخوف

ان تاريخ سوريا يمكن اختصاره في جملة واحدة وهي ( تاريخ دموي ملئ بالأحداث المأساوية والحروب والمواجهات والغزو والاستعمار والاقتتال انه المكان الذي تنازع عليه وعلى أرضه كل الامبراطوريات قديما وحديثا )

ان هذا التاريخ الدموي كما قلنا لا بد أن يزرع الخوف والرعب والقلق في قلب الانسان ووعيه ووجدانه وينتقل من جيل الى جيل عبر القصص والروايات والمؤرخين لذلك فالخوف قضية متحزرة في الذاكرة التاريخية السورية .

بالأضافة الى ذلك فلقد استقر فيها كثير من معتنقي المذاهب والفرق ( الضالة ) بعد أن تعرضوا للقتل والملاحقات ووصل فيهم المطاف الى سوريا وتحديدا في المناطق الجبلية منها أو الحدودية خذ مثلا مكان انتشار النصيريين والاسماعيليين والدروز وان مناطق استقرار هذه المذاهب جعلتهم يتنفسون الصعداء لفترة زمنية ثم يعاود خصومهم الوصول اليهم وفي مرات عديدة تصبح هذه الفرق قادرة على الإمساك بزمام المبادرة وتقوم بالهجوم على خصومها بنفس الطريقة والروح العدوانية الشريرة وترتكب الفظائع والقتل والتمثيل بجثث خصومها تماما كم فعلوا هم بها .

ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذه الجرائم الوحشية المتبادلة التي لا رحمة فيها هذا الخوف والهلع والقلق الدائم .

ولقدقلنا ان العصبية والتعصب ظاهرة مقيمة ومستقرة في المجتمع السوري وبالتالي يمكننا القول ان الخوف هو كذلك مقيم ومتجذر ومستقر لأنه أي الخوف والرعب هة أحدى النتائج الكارثية للصراعات الطائفية والقبلية والعشائرية .

الثاني ماالعوامل التي أدت لاستمراره في عصرنا الراهن

أولا : استقرار الوضع الجغرافي للطوائف : فمنذ حوالي ألف عام تقريبا لم تتغير أمكنة سكن هذه الطوائف في سوريا وهذا يعني انغلاقها عقائديا وحضاريا ومكانيا وهذا يعني بقاء هاجس الخوف من الأخر على ماهو عليه .

ثانيا : لم تستطع قوى الاختلال العثماني والفرنسي من بعدها دمج هذه الطرائف مع الأكثرية بأي صيغة من الصيغ التوافقية ولقد أطلعنا على تقرير لأحد المندوبين الساميين الذي كان قبلها حاكما على اللاذقية يقول فيه ان هناك استخالة ان يعيش العلويين مع السنة هكذا أعلمه شيوخ هذه الطائفة .

ثالثا : عدم قيام حكم وطني مستقر بعد جلاء المستعمر الفرنسي عن سوريا ورأينا ان سوريا عاشت بأوصاع عير مستقرة نتيجة الانقلابات المتكررة وخالات الصراع السياسي والعسمري ,

فلم يحدث أي حدث سياسي أو اجتماعي او ديني أو فكري , او حتى عسكري أن يغيير في الأمر شيء فلقى كل شيء على حاله .

الثالث ما هو العامل الذي أدى الى زيادة هاجس الخوف

لقد استطاع حافظ الأسد بذكاء وحنكة أن يقوم في العام 1970 بانقلابهالأبيض ولم ترق فيه الدماء وأستطاع أن يظهر كسياسي وطني عروبي محاولا أن يكون بديلا أو مشابها لعبدالناصر بالإضافة لذلك فقد ظهر نفسه كمسلم سني اعتنق من جديد الإسلام لكن الذي حدث في العام 1979 – 1980 قلب الرجل رأسا على هقب وقلب معه سوريا كلها ,

فقيام جماعة الأخوان المسلمين كحركة سنية إسلامية أصوليةتمثل سنة سوريا وفق ما أعلنوا عنه قيامها بمواجهات وعمليات عسكرية كان الشرارة الأولى في تفجير الوصع الطائفي في سوريا وأدى ذلك الى اظهار الطرف العلوي حقيقته الطائفية فكان رده على اخوان المسلمين بشكل خاث والسنة بشكل عام ردا إرهابيا عنيفا بدون رحمة وخصل الذي حصل وقتها من تدمير حماة واستباحة أموالها وأعراصها وملتبع ذلك من جرائم متعددةفي حلب وادلب وسجن تدمر وغير ذلك ,

هنا لم يعد قادرا الانسان السوري علىالفهم والاستيعاب لما حصل فدخل في نفق الخوف من جديد وبدأ عهد جديد من الرعب ,

## مظاهر الخوف عند السوريين

شكل معادلة الحقوق/ الواجبات، محور العلاقة بين الشعب وحكومته في الدولة الحديثة، المعادلة التي تعمل بهدي الدستور والقوانين النافذة. وبسبب طبيعة الأنظمة غير الديمقراطية المناقضة لهذه المعادلة، لا بد لها من اعتماد أساليب الضبط وأدواته بأشكالها كلها، الضبط الذي يضمن انصياع المحكومين وولاءهم واستكانتهم. وتبدو تقاليد الانضباط الجمعي والتنظيم العسكري أو شبه العسكري لفئات المجتمع، هي ما يساهم بشكل فعّال في إدامة هذا

الخضوع، خاصةً حين يتراكب مع شعارات كبيرة صراعية الطابع يجري تضمينها في أشكال الخطاب والثقافة والتعليم كلها .

وتُعدّ العسكرة تنميطاً وانتظاماً قسرياً للمجتمع لأداء مهامّ حربية أو شبه حربية، في حين تُمنع أشكال الانتظام الحرة والمستقلة ذات الطابع المدني، والأحزاب والنقابات والجمعيات إما أن تُقمع أو يجري تدجينها أو الاستيلاء عليها وتوظيفها وفق آلية تحاكي الانضباط العسكري.

ولعل المقدمات الأولى في سوريا كانت في ستينيات القرن الماضي، حين نجح حزب البعث في آذار/ مارس 1963، في الإمساك بالسلطة واحتكارها ، فتم ربط الجيش بالحزب الحاكم بما يعني نزعاً لحيادية الجيش السياسية كما يُفترض في الدولة المدنية، بالإضافة إلى فرض حالة الطوارئ التي تطبقها الدول عادةً في حالات الحرب أو الأخطار الكبيرة التي تهدد الكيان الوطني أو الكوارث العامة، وقد كانت شرطاً للترقي الحزبي يومها ، المساهمة في العمل الفدائي الفلسطيني. وبرغم استناد الحزب إلى قضيته القومية الأولى في وضع الاستعداد العسكري لعضو الحزب على رأس سلم الأولويات، إلا أنه يمثّل بدايةً لترسيخ فكرة أن البعثي الحقيقي هو البعثي المقاتل، وتالياً المواطن الصالح هو المواطن المقاتل.

طلائع . . . شبيبة وتدريب عسكري

يروى أن الرئيس الراحل حافظ الأسد ، أعجبته تجربة منظمة الأطفال في كوريا الشمالية خلال زيارته لها عام 1974، من بين مظاهر أخرى لقبضة حكم نظام كيم إيل سونغ آنذاك، فاستلهم التجربة لإنشاء منظمة "طلائع البعث"، التي تهدف إلى تربية الأطفال على التمسك بشعارات حزب البعث وحب الوطن والقيادة، وتالياً لا بد من لباس موحد

شبه عسكري، وفرض التنسيب التلقائي لجميع أطفال المدارس في مرحلتها الأولى في تظاهرة احتفالية كل عام دراسي، وما زال الأمر معمولاً به حتى اليوم برغم غياب النص الدستوري على قيادة البعث للدولة والمجتمع.

يروى أن حافظ الأسد، أعجبته تجربة منظمة الأطفال في كوريا الشمالية خلال زيارته لها عام 1974، من بين مظاهر أخرى لقبضة حكم نظام كيم إيل سونغ آنذاك، فاستلهم التجربة لإنشاء منظمة "طلائع البعث"

لم تكتفِ المنظمة بممارسة دورها في المدارس، فقد أقامت المعسكرات والمخيمات الصيفية لاستكمال عملها التربوي في توجيه الأطفال وتلقينهم وتدريبهم على شكل من الانضباط العسكري، يوجب على الطفل أن يؤدي التحية العسكرية "للرفيق المدرَب" كلما التقى به.

أما منظمة" اتحاد شبيبة الثورة"، التي أنشأها حزب البعث أواخر الستينيات كمنظمة رديفة له، فقد جرى استثمارها وتفعيلها بطريقة جديدة منذ اندلاع الصراع الدموي بين السلطة والإخوان المسلمين في آخر عقد في سبعينيات القرن الماضي، فظهرت "كتائب البعث المسلحة" التي شاركت جزئياً في القتال، لكن وجودها كان ملحوظاً في كل الأماكن؛ كدوريات وحواجز وحرس لبعض المنشآت، وتطور الأمر إلى إقامة الدورات العسكرية تحت عنوان "دورات الصاعقة"، وترغيب الشباب في الخضوع لها وإغرائهم ببعض المكاسب التعليمية في المعاهد والجامعات وربما فرص العمل في الوظائف الحكومية، أو التفرغ في إحدى المنظمات أو النقابات.

وفي سياق تعميم مظاهر العسكرة، لجأ النظام إلى توسيع التدريب العسكري –أو الفتوّة كما شاعت تسميتها قبل ذلك بزمن في المرحلة الثانوية فقط– وجعله مادةً دراسيةً ابتداءً من الصف السابع وحتى نهاية المرحلة الجامعية، حيث

يخضع الطالب الجامعي لمعسكرات تدريبية عدة يُعفى بمقابلها من جزء من مدة الخدمة الإلزامية، ويتلقى الطالب في الدرس الأسبوعي، أو في المعسكرات الصيفية، تدريباً على حمل السلاح والرماية وبعض المهارات الرياضية/ العسكرية والتوجيه العقائدي، والخضوع لهذه المعسكرات كان شرطاً للطالب الجامعي للتخرج، واستمر ذلك حتى تم إلغاء التدريب العسكري عام 2003، واستبدال اللباس المدرسي الموحد.

المظلة تأخذك إلى الجامعة

في أوائل الثمانينيات، وفي فترة نمو ما سُمّي بـ"سرايا الدفاع" وبروزها، والتي تشكلت في السبعينيات ويقودها شقيق "الرئيس"، كواحدٍ من تشكيلات الجيش التي لها خصوصيتها، نظمت دورات القفز المظلي لأعضاء منظمة الشبيبة، وهو ما كان يؤمّن بعض الامتيازات، أهمها منح من أنجز الدورة درجاتٍ إضافيةً في الشهادة الثانوية تؤهله لدراسة فرع جامعي أعلى، وليس المهم هنا كم تنطوي هذه الآلية على احتقار العلم والمؤسسات التعليمية ومعاييرها، وإهدار مبدأ تكافؤ الفرص، فالأولوية لأساليب كسب الولاء. حينها انتشر الرسم الكاريكاتوري المشهور لعلي فرزات، ويظهر فيه مظلّي يهبط في كلية الطب.

ولم يكن نادراً أن يمارس هؤلاء المظليون شكلاً مبكراً من أشكال "التشبيح" في الشارع، وفي بعض المؤسسات، بما فيها الدخول إلى المدارس باللباس العسكري بذريعة أن تلك أوامر "القائد"، والقائد المقصود هنا هو شقيق "الرئيس".

إن كثرة تداول مصطلحات وتسميات مثل" الجيش الشعبي" و"الحرس القومي" و"الحماية الذاتية" و"الكتائب المسلحة" و"معسكرات الفتوة" و"الدفاع الوطني" وغيرها، تعبير عميق الدلالة على نهجٍ يريد وضع المجتمع بكل فئاته ومؤسساته وثقافته في حالة تحفز واستنفار كامل لمواجهة "الأعداء الأشرار" الذين لا يكفّون عن التآمر على الوطن، ولا بد من

الحضور الدائم للأعداء ولخططهم التدميرية، ولا بد من وجود "أعداء الداخل"، وبديهي أن "أعداء الداخل" عبارة تشمل معارضي الرأي، الخونة، حيث أن اعتصاماً صغيراً من 20 شخصاً للتعبير عن مطلب ما، كان يواجَه بإنزال أضعاف هذا العدد من البعثيين قبالتهم هاتفين بفداء القيادة بالروح والدم، ولا يخفى هنا الطابع العسكري حتى لهتاف من هذا النوع، كونه يتضمن عنفاً رمزياً يستبطن إقصاء المختلفين ونفيهم من "جنة الوطنية".

الحذاء العسكري كأيقونة

كان من الواضح منذ الأيام الأولى للانتفاضة السورية، وتجرؤ السوريين على النزول إلى الشارع والتظاهر، أن النظام قد قرر مسبقاً المواجهة العسكرية وأعد خططه لها، لذلك بدأت ماكينته الإعلامية فوراً بتكرار ذكر الجيش ودوره ومكانته المقدسة التي يجب أن تكون "خطاً أحمر"، برغم أن الأمر لم يكن قد تعدّى بضعة آلاف يتظاهرون سلمياً، وقد أراد النظام بذلك التمهيد لزجّ الجيش في صراع دموي مع حالات الاحتجاج بعد إظهارها كأعمال عنف لا تخالف القانون فقط، بل تهدد وجود الدولة، أي الإيحاء لعموم السوريين –وربما لغيرهم– بأن ما سيحصل في سوريا هو اعتداء خارجي، وحرب إرهابية، وتهديد للسلم الأهلي، ومؤامرة دولية واسعة على سوريا وموقفها المقاوم، وتالياً لا بد من الاستعداد العسكري، والمواجهة بالسلاح لكل من يقبل بالانخراط في هذه المؤامرة التي تشكل المظاهرات جزءاً منها.

انتشر اللباس العسكري بين المدنيين، ووصل الأمر إلى إنجاز مجسّم كبير لحذاء عسكري، مرفوعاً على منصة تعلو فوق هامات العابرين(!)، وصور عدة لـ"مواطنين" يضعون الحذاء العسكري على رأسهم

ومنذ الأيام الأولى، عملت آلة الإشاعة والتخويف على دفع المدنيين إلى إقامة الحواجز على مداخل الأحياء والقرى، بإشراف الأجهزة الأمنية وبتسليحٍ منها، فضلاً عن تسهيل انتشار السلاح غير المرخص والتعامي عن تهريبه، ثم تشكيل المجموعات العسكرية الرديفة التي تساهم في بعض العمليات العسكرية، لكنها في الوقت نفسه دائمة الاحتكاك بالمدنيين وتقوم بأعمال التشبيح والتسلط والسطو باستخدام السلاح، بما في ذلك سرقة مؤسسات الدولة، وتكاثرت عمليات القتل والخطف حتى في المدن والقرى البعيدة عن الجبهات العسكرية من دون أي جهود لكبحها ومواجهتها من قبل السلطات المختصة.

نشطت الآلة الإعلامية للنظام في تسويق الشعارات والرموز العسكرية وتكريسها وإضفاء القداسة عليها، وهتافات التحية للجيش وتبجيله انتشرت بين أطفال المدارس بحيث صارت تُسمع في الشارع ويهتف بها أطفالٌ دون سنّ المدرسة، وانتشر اللباس العسكري بين المدنيين، ووصل الأمر إلى إنجاز مجسّم كبير لحذاء عسكري في ساحة إحدى المدن، مرفوعاً على منصة تعلو فوق هامات العابرين( ! )، وانتشرت صور عدة لـ"مواطنين" يضعون الحذاء العسكري على رأسهم، كنوعٍ من العرفان بالجميل لجيش حفظ الوطن وحدوده وحياة مواطنيه( ! )، في الوقت نفسه الذي كانت فيه معظم أراضي الدولة خارج سيطرة النظام وأعداد الضحايا بمئات الآلاف والمهجرين والنازحين بالملايين.

إذاً، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، ويجب فرز جميع المحكومين إما إلى جيشٍ كبير يدافع عن الوطن، وإما إلى أعداء يستحقون الإقصاء والمحو، ويجب التغني بقيمة الشهادة، ويجب على الأهل الافتخار بتقديم أبنائهم الشباب فداءً للوطن والقيادة، وإلباس الأطفال الزي المموّه وبالرتب العسكرية، ويجب أن تتحول جدران المدن إلى معرض كبير لصور الشهداء بلباسهم العسكري، ويجب عدّ ضابط الجيش نموذجاً للنجاح ومبعث فخر لذويه؛ هالة القداسة هنا

ليست عبثاً، ولا عرضاً جانبياً لسياسة الضبط فقط، بل توظيف ذكي يريد تطبيع الصراع العنيف مع الآخرين وعدّه من طبيعة الأشياء مقابل تهشيم الطابع المدني للدولة بما يحمل من تنافس سياسي وتنوع، وتنمية وثقافة وتداول للسلطة وحوار بين المختلفين، فالحوار الوحيد الذي تتقنه السلطة مع خصوم الداخل هو حوار السلاح، ومظاهر العسكرة تفضح آلية الإكراه المفضلة لديها .

أفضت هذه المظاهر كلها إلى اختلال عميق في علاقة المدنيين بدولتهم، فالمدني سواء كان عابرَ طريق أو واقفاً في طابور الخبز أو موظفاً أو أستاذاً جامعياً أو وزيراً، هو أضعف ما يكون في مواجهة أي عسكري في الأمن أو الكتائب المسلحة أو الدفاع الوطني أو غيرها، لتكرس دور مؤسسات العنف كأداة قمع يخشاها المحكومون ويخضعون لإرادتها، بدلاً من كونها جزءاً من تكوين دولة المؤسسات تؤدي وظيفةً مقدسةً في حفظ الأرواح وسلامة الحدود والمؤسسات والسيادة. فهل تشهد سوريا في القريب المنظور تغييراً يفضي إلى تصحيح هذا الاختلال؟

والسؤال الأساس هو، ما الذي يدعو أبناء الطائفة العلوية إلى الإمساك بالسلطة والحيلولة دون انتقالها أو تداولها سلمياً، أهو الخوف من المصير المجهول، أم هو فقط حب السلطة الذي يعتمل في قلوب كل العرب ؟ .

السؤال السابق يستبطن الإجابة ، فهو من جهة يجيب عن الخوف الذي لا يخفي نفسه ، ومن جهة أخرى يجيب عن الحب الذي يستقتل على السلطة ويتشدق بها ، لكن كما سبق وأشرنا ، أن السلطة ليست سلطة الطائفة ، وأن الطائفية المعمول بها ، طائفية سياسية يشترك فيها كل أبناء الطوائف مرغمين ، وليست بأي حال طائفية مذهبية ، وبالتالي فإن الخوف ، الذي ينتاب أبناء الطائفة الممسكين بزمام السلطة ، لا ينبغي له أن ينشر رعبه في صدور كل

أفراد الطائفة ، فخوف أبناء الطائفة ممن يتحكمون في السلطة ، شأن يعينهم ، بسبب سلوكياتهم الخاطئة في الحكم ، ولعدم وجود قانون يردعهم ، ولا يعني خوف كل الطائفة .

إن المبدأ الأساس لتوصيف واقع الطائفية في سوريا ، أنه لا يجوز قانوناً ولا عرفاً أن تحمل الطائفة العلوية مسؤولية ما يقترفه أبناءها باسمها ، وإذا ما خبرنا أن الطائفة مكون أساسي من مكونات المجتمع ، وكيان لا يستقيم المجتمع دونه ، فكيف للبعض أن يعتقد خاطئاً ،أن أخطاء السلطة ، إنما تعم على كل الطائفة ؟ .

لقد نجح أبناء الطائفة الذين يشكلون النظام الراهن ، في أن يغرسوا ثقافة الخوف والرعب في عقول وقلوب الطائفة ، وأن يرسموا المستقبل المظلم الذي ينتظرها ، وهذا الحس بالخوف ، لم ينشأ مع وصول أبناء الطائفة إلى سدة الحكم ، بل أنه حس قديم ، عبر نفسه أبان الانتداب الفرنسي ، رغم التضحيات الكبيرة التي قدمتها الطائفة آنذاك في سبيل جلاء القوات الفرنسية عن وطنها سوريا ، وقبل ذاك عبر عن نفسه بصمت أيام السلطنة العثمانية، ومع ذلك حافظت الطائفة على كيانها عبر قرون طويلة من الزمن ، دون أن تتأثر بالحروب والنزاعات بين القوى العظمى آنذاك ، أسوة بالطوائف الأخرى ( المسيحيين في لبنان ) التي حافظت على انتمائها المذهبي ، وقد كانت واقعة تحت حكم الإمبراطورية العثمانية ، كأقوى إمبراطورية قبل قرنين من الزمن ، والسؤال مرة أخرى ، هل باستطاعة أي مكون سوري أن يلغي مكون آخر ، لمجرد أخطاء سلطة زائلة ، بعد أن عجزت القوى العظمى على إلغائه ؟ .

هذا الخوف غير المبرر ، هو ما يعيق دوران عجلة السياسية في سوريا ، ويضع ستاراً حديدياً عازلاً بين كل طائفة وأخرى ، فحب السلطة والتشدق بها ، قد يبدو مفهوماً ، حتى لو كان هذا الحب وذاك التشدق على يد أبناء الطائفة ، أسوة لما هو حاصل في محيطنا العربي .

لكن ما هو غير مفهوم حتى الآن ، الحراك السياسي الذي يحصل في المحيط العربي وما يقابله من جمود وركود في سوريا ، والخوف الذي نجح النظام في بذره ، كما نجح أيضاً في إيقاظ الحس المذهبي لدى أبناء الطائفة في محاولة يائسة لتمييزهم مجتمعياً ومذهبياً عن باقي أفراد المجتمع ، وإطفاء صبغة هوياتية مخادعة ومخاتلة تعلي من شأنهم ، للحد الذي وصل فيه بعضهم ، أن يجاهر بعلويته مستخدماً في ذلك لسانه كدلالة على تميزه .

كل ذلك يجري في سبيل التفاف الطائفة حول أبناءها الآثمين ، خشية أن يأتي اليوم الذي يلفظهم ( الأبناء ) فيه أبناء المجتمع السوري ، فالطائفة بنظر النظام حصنه الأخير ، وحصن الطائفة هو الوطن ، الذي لم يسبق له أن تخلى عن إحدى طوائفه أو تنكر لها .

ونذكر في هذا المقام ، أن الصراع الأهوج بين النظام والإخوان المسلمين ، لم يمس شرره أحداً من أفراد الطائفة ، ولا من الطوائف الأخرى ، فقد كان صراعاً محصوراً بين النظام والإخوان ، ولم يكن صراعاً بين طائفة وأخرى ، وهذا ما يؤكد على أن الجزء ( النظام ) لا يمثل الكل ( الطائفة ) كما في الحالة السورية .

فلا النظام مثل الطائفة العلوية في صراعه مع الإخوان المسلمين ، ولا الإخوان مثلوا الطائفة السنية في صراعهم مع النظام ، وإذا كانت ثمة جرائم وأخطاء اقترفها النظام بحق بعض الأبرياء في أوج صراعه مع الإخوان ، فإن ذلك لا يعني مطلقاً ولا بأي حال من الأحوال ، أن الطائفة العلوية مجرمة ، والشيء نفسه ينطبق على الإخوان أو على أي فصيل آخر من أي طائفة كانت ، فما الذي يدعو إلى الخوف مجدداً ؟ .

الأكيد أن هذا الخوف مصطنع، وسيزول بمجرد أن تزول الهواجس التي تنتاب الطائفة، بفعل عبث النظام، أما إذا كان هذا الخوف حقيقياً ( لا دلائل عليه) فإن ذلك يدعونا للدفاع عن الطائفة العلوية كمكون أساسي للمجتمع كدفاعنا عن أنفسنا .

ما تقدم شرحه ، يقودنا إلى تعريف الطائفية ، تقع الطائفية في معناها الاصطلاحي ومبناها الدلالي على نقيض تام من الوطنية ، فالطائفية والوطنية ثنائيتان متناقضتان، عدا عن كونهما نقيضان في الاتجاه ، فإن لهما من الفعل المعارض لهياكل الدولة ، ما يجعل المجتمع في حالة استقطاب حاد ، لا يسلم من تأثيرهما المباشر على المدى القريب والبعيد .

ففي الواقع السوري ، وكجزء من واقع عربي وآخر إسلامي أوسع ، ثمة مَن يدعو إلى الوطنية من باب الدفاع عن الطائفية وتحصين قلاعها بما أمكن من لغة الشعارات ، وآخر يدعو إلى الطائفية اعتقاداً منه أن ذلك يسهم في استحضار الوطنية وإبراز موقعها المتقدم كخيار لا بديل عنه .

فأي تناقض هذا بين مَن يدعو إلى طائفية باسم الوطن، ومَن يدعو إلى الوطنية باسم الطائفة ؟ لا غرابة في هذا التناقض ، فهو المنطق السائد أو الملموس حتى الآن في سوريا ، وما يدلل عليه ، السلوك السياسي الذي تنتهجه السلطة ، والذي يفترض أنها تمثل الظاهرة الوطنية في أبهى أشكالها ، إزاء مكونات المجتمع من الطوائف الأخرى .

وهو سلوك قد يظهر في مراحله الأولى على أنه سلوك سياسي صرف ، بغض النظر عن الشخص أو النظام الذي يتولى القيام فيه – حركة حافظ الأسد في 16 نوفمبر عام 1970– لكنه سرعان ما يتحول بفعل عوامل الحفاظ على السلطة والالتفات إلى أعمدتها وأركانها من أبناء الطائفة ، إلى سلوك طائفي مستتر في القضايا الخارجية التي تهم الداخل ، كالتعاطي مع القضية الفلسطينية التي يتعاطف معها كل أفراد المجتمع السوري ، وسلوك طائفي ظاهر في ما يخص

القضايا الداخلية التي تنحصر في تعامل النظام مع قضايا الداخل ، وإحداها على سبيل المثال ، التعامل الطائفي الفاضح مع ما سمي بقانون الأحوال الشخصية ، وغيرها الكثير من القضايا التي تبدأ بقضية صغيرة ولا تنتهي بأخرى كبيرة .

ما تقدم ذكره، يقودنا لا محالة إلى تعريف أوضح لتلك الثنائية المتناقضة في تاريخ وحاضر الدولة السورية، فمَن هو الطائفي، ومَن هو الوطني ؟ الإجابة عن هذا التعريف تحمل الكثير من التناقض والاشتباك المفاهيمي بين معانيهما ، فالطائفي الذي يعمل بروحانية وهوى الطائفة ، كما في حالة النظام ، هو الشخص الوطني الذي لا يشق له غبار ، والوطني الذي يسعى جاهداً لإلغاء الطائفية وسد أبوابها ، وبما أن مسعاه هذا غير محمود ، ويتناقض كلياً مع مساعي النظام ، فإنه الشخص الطائفي ، لطالما أنه يدعو لإلغاء طائفية الآخرين .

من هنا ، تتضح نظرة النظام لنشطاء المجتمع المدني والحراك السياسي والحقوقي ، وهي نظرة سوداوية وتشاؤمية ، تخشى على نفسها من أي نشاط سياسي ، يمكن أن يصب في اتجاه يعاكس اتجاهها .

الاتجاه الأول ، ثقافي يسعى لتكريس ثقافة المواطنة ، كجزء من إطار وطني يتسع للجميع .

الاتجاه الثاني، سلطوي يفرض ثقافة الرعية ضمن إطار طائفي، ليتعرف من خلالها مَن هو معه من الرعية، ومَن هو ضده خارج القطيع.

أي أن هذا المنطق القائم على التلاعب ما بين الوطني والطائفي ، ينطوي على معادلة مركبة ، أساسها مَن هو مع النظام أو ضده ، وتتحدد أطراف هذه المعادلة بالاتي :

كل مَن هو مع النظام فهو وطني ، حتى وإن كان غارقاً في طائفيته ، وكل مَن هو ضد النظام فهو طائفي ، حتى وإن كان أشد وطنية من غيره ، وبهذا المعنى تتوازن أطراف المعادلة ، بحيث يغدو كل طائفي وطني ، وكل وطني طائفي ، وبغير هذا التحديد المعكوس ، لا نستطيع إعطاء تعريف دقيق لطرفيها .

ولعل السبب الذي يقف وراء شيوع هذه الظاهرة الشاذة مجتمعياً وسياسياً ، يبرز في اضمحلال الوعي الوطني لصالح تعميق الحس الطائفي ، وهي بلا شك ظاهرة لا تقل أخطارها الجسيمة عن أخطار ظاهرتي التكفير والتخوين ، إذا ما عرفنا ، أن غياب الوعي هدف أولي لكل أنظمة الاستبداد ، لأغراض تتعلق بالسيطرة والتفرد ، والمقابل الوحيد لذلك الغياب ، نمو الحس الطائفي بوجهيه المذهبي والسياسي ، كبديل أخير لغياب الوعي ، وخيار وحيد لفرض الذات .

المعنى الوحيد والأخير لثنائيتي الطائفية والوطنية في سوريا ، أن الطائفي باعتباره يمثل الاتجاه " الوطني" فإنه وبطائفيته، بات في مرحلة ما فوق الوطنية، والوطني باعتباره يمثل الاتجاه " الطائفي" فإنه وبوطنيته تعدى مرحلة ما بعد الطائفية.

فليس الوطني مَن خرج عن طائفته ولجأ إلى الوطن ، كما ليس الطائفي مَن تخلى عن وطنه ولجأ إلى الطائفة ، بل أن الطائفي الحقيقي هو مَن تجاوز معنى الوطنية ، وأصبح يعيش في مرحلة ما فوق الوطنية ، وبالتالي فوق الوطن ، والوطني الحقيقي هو مَن عَبَرَ كيان الطائفة إلى ما بعد الطائفة ، أي نحو الوطن.

وعليه فإن مخاطر الطائفية على المجتمع والدولة السورية ، أكبر من أن تحدد بثمن معين ، فليست داءً يمكن علاجه بوصفة معينة ، لمجرد أن يتم تشخيصها ، لأنها تتعدى كل التوصيفات التقليدية لتستقر على مفهوم الحالة الملازمة لبنى المجتمع والدولة في آن معاً .

ولعل استقرار وتموضعها في مؤسسات الدولة وفي فئات المجتمع ، هو ما يضفي عليها صفه الحالة الخطرة ، التي يستحيل علاجها علاجاً فردياً ولا حتى جماعياً . فالعلاج المطلوب توفره لحاله الطائفية في سوريا ، يتركب من مادتين أساسيتين. المادة الأولى : تستدعي إصلاح المنظومة السياسية الراهنة ، لطما ارتكزت الطائفية على واقع سياسي تعيشه البلاد منذ أربعه عقود ونيف ، فإن الطائفية في هذا المجال، هي نتاج ذالك الواقع السياسي ، الذي مازال مستمراً .

والإصلاح السياسي يحتاج إلى منظومة متكاملة تتحدد على إثرها الأهداف وترسم الخطوات وتتوفر الآليات والأدوات الكفيلة بإجرائه وإتمامه على أتم وجه ، وإذا ما فتشنا عن تلك المنظومة ، فإننا لن نجدها في سوريا ، وإن توفرت في ظل النظام الراهن ، فإنه لن يقبل بها لأنها تعني فيما تعني ، فتح الأبواب نحو التغير السياسي وتعزيز الممارسة السياسية في إطار الدستور، وذلك لضان تداولها السلمي ، والسؤال الذي يستدعي الطرح في هذا الحيز ، ما الذي يدعوا النظام إلى رفض الإصلاح السياسي ؟ الجواب يحدد وفقاً للواقع السياسي الذي المحنا إليه قبل قليل، كون هذا الواقع السياسي قام على سلطة ظاهرها وطني وباطنها طائفي ، وليس من خلال الطوائف التي تتركب منها تلك السلطة ، إنما من خلال الأفراد الذين يقومون عليها ، كلٌ بحسب انتمائه الطائفي بدءاً من هرم النظام حتى قاعدته.

وما يثبت ويؤكد ذلك الواقع السياسي ، مؤسسات الدولة التي جرى هيكلتها طائفياً بما يشبه الوكالة الحصرية أو الامتياز ، فإذا ما دققنا في واقع الوزارات الحكومية سنجد على سبيل المثال لا الحصر ، أن وزاره الأعلام هي من امتياز الطائفة العلوية منذ ما يزيد عن أربعين عاماً ، سواء على مستوى الكوادر أو مستوى القيادات كذالك الحال

بالنسبة لوزارة الإدارة المحلية والبلديات سنجد أن وكالتها حصرية بالطائفة الدرزية، والأمر ذاته ينطبق على وزارة الخارجية التي انحصرت بالطائفة السنية ، فهل نضبت القيادات السياسية والكفاءات العلمية .

لا توجد اجابه محدده تفي السؤال أعلاه حقه ، فقد يتذرع النظام أنه سلطته علمانية، وبالتالي لا يدقق كثيراً في أمر مَن يتولى إدارة مؤسساته ولا من أي طائفة أو منطقة انتمى ، وهو بذلك يحاول أن يعفي نفسه من المساءلة بحجة أن انتهاجه للعلمانية يلغي واقع الطائفية.

إن المساءلة المطروحة في هذا السياق ، ليست على هذا الشكل أو ذاك التصور، الذي يطرحه النظام من وجهة نظره أو حسب مفهومه ، بل المساءلة واضحة ولا تخفي نفسها للعيان أو لكل ذي عقل و بيان ، وهي أن سلطه النظام موزعة توزيعاً طائفياً باسم الحزب ومناطقياً باسم الكفاءة ، وإلا لو كان توزيعها وفقاً لما يحدده الدستور في معركة تحديد الأقلية والأغلبية السياسية ، لما وجدنا هذا التطيف المهيمن على مؤسسات الدولة.

بما أن السلطة متمركزة في قبضة النظام ولا تخرج عنه ، وبما أن الأخير يحدد أطرفها وفقاً لما يرى فيه مصلحته ، فإن توزيعه لها أقرب ما يكون على هيئته الأولى التي يجد نفسه فيها في كل مرة ، وهي الشعور بالأقلية التي لو احتكمت إلى الدستور ، لتغير واقع حالها تبعاً لتغير معادلات السلطة وموازينها ، لذا فإنه يحاول بقاء الحالة الطائفية على ما هي عليه من حيث حفاظه على التوزيع الكيفي للسلطة ضمن نفس المواقع والمراكز.

المادة الثانية : تتحدد من خلال المنظومة الاجتماعية ، التي تحتاج إلى إعاده تأهيل فقط ، وليس إلى إصلاح كما في المنظومة السياسية ، فإصلاحها يعني تغييرها ، ومن الصعب تغيير المجتمعات ، خصوصاً إذا ما كنا أمام مجتمع كالمجتمع السوري بواقعه الحالي .

فالتأهيل الاجتماعي لابد أن يكون ملازما للإصلاح السياسي ، وإلا فإن العلاج يفقد تأثيره ، بفقدانه لأحد مواده الأساسية التي يتركب منها ، وهو (التأهيل) الذي يلي الإصلاح ، لأن دوره يتحدد في تغيير الأنماط السلوكية ، التي اعتاد عليها المجتمع أثناء تعامله مع مؤسسات الدولة ، فطائفيه المؤسسات أثرت في سماته الشخصية دون أن يؤثر فيها ، وخلقت لديه حساً طائفياً دفيناً يصعب تجازوه من دون إعادة إحياء الوعي الوطني .

إحياء الوعي مرتبط بدوره بالإصلاح ، وهو الجزء الأساسي في عمليه التأهيل ، فما هو حاصل بسوريا اليوم أعاد الأفراد دفعة واحده إلى طوائفهم (منابتهم) الأولى ، بدلاً من تثبيتهم في المجتمع الذي من المفترض أن يكونوا قد تخلوا عن طوائفهم في سبيل تشكيلهم له ، بحيث أصبح الأفراد منشغلين بانتمائهم الطائفي ، وكل فرد بات مهووساً في انتماءه الطائفي وانتماء غيره من الأفراد .

إن خطر الطائفية على المجتمع أبعد من انشغال الأفراد بهويات أقرانهم ، بل أن بعضهم ونتيجة لتطيف مؤسسات الدولة، ضمن تراتبية سلطويه صنعها النظام ، انتابه شعور من القلق واليأس على مستقبل انتماءه المهني لإحدى المؤسسات التي يجد أنها لا تناسب انتماءه الطائفي ، كالمؤسسة العسكرية (الجيش) والأمنية (المخابرات) على سبيل المثال.

مما سبقت الإشارة إليه ، يدل على أن علاج الطائفية تكاملي ، ولا يتم بمركب واحد دون آخر، فالطائفية هنا ليست مرضاً بذاته ، بقدر ما هي حالة مزمنة يعانيها المجتمع السوري بسبب استفحالها في مؤسسات الدولة وبنى المجتمع ، واعتماد النظام عليها اعتماداً كاملاً . تلك هي القضية.

من المُمكن علاج الخوف سلوكياً ومعرفياً ونفسياً عن طريق المواجهة أو بالدواء، في حال كان مُسبب الخوف طبيعياً، أما في حالة السوريين ولأن مصدر الخوف ليس طبيعياً، فقد لجأوا للفكاهة والتهكم في تناول حياتهم وحوادث أصدقائهم في أجهزة الأمن، وأنا شخصياً يتلازم الآن القلق مع الخوف في رأسي ويتزاحم، فذلك العنصر الأمني الذري غذّى وحَرس الخوف داخلي سنوات عديدة، إنه جلادي الذي مَنع انتحاري، والذي حَملتُهُ وسأحمِلهُ معي، لن نتقابل ولن نفترق، وسنتقاسم معاً ما تبقى من الوطن بين اليقين والفكاهة لنتفرد بكوننا السوريون الذين ترعرعوا في جمهورية الخوف التي صار فيه الخوف يضرب فيه الأمثال

العين لا تقاوم المخرز

أبعد عن الشر وغني له

إلي بيتطلع لفوق بتنكسر رقبته

أمشي الحيط الحيط وقول ياربي السترة

لا تنام بالقبور ولا تشوف منا

## خاتمة

يتبين من كل الذي ذكرناه في هذا البحث أن لدى السوري تراكمات من الجهل والحقد والقهر والظلم، وهو يقوم باستهلاكها منذ أربع سنوات ونصف، ولم ينته استهلاكها حتى اليوم، ناهيك عن التراكمات الجديدة التي فرضها

الصراع، وأزعم أن هناك كذبة كبيرة تداولها حول السوري المتحضر، فكل أحكامنا على السوري هي أحكام فردية، لأن إنجازاته فردية وليست نتيجة عمل جماعي، ولا ناتج وعي مجتمعي متحضر.

هي ليست فقط قصة ثقافة "كل مين بيتجوز أمي بيصير عمي" و"إمشي الحيط الحيط"، فهناك ما هو أعمق وأشد تأثيراً، فالسوري يولد شوفينياً مريضاً، إذا كان دمشقياً يسمع من أمه وأبيه شتمهم لأبناء الريف، وإن كان حمصياً فهو عدو الحموي وإن كان حمويا فالعكس بالعكس، أما الدرزي فيعتبر نفسه درجة أعلى من جاره ابن درعا، في الوقت الذي يعلم الدرعاوي ابنه المثل القائل "كل عند الدرزي ونام عند المسيحي"، والديري ابن المدينة يتندر على الشاوي البسيط، فيما الشاوي يشتم مكر الديري، هذا عداك عن أمراض الطوائف والمذاهب، فالشيعي ينتظر أقل فرصة ليلعن السني، والسني يرى عن جهل أن المسيحيين هم مجرد شريحة قليلة حياء، والمسيحي ينشأ على نظرية الشك بالآخر واعتبار نفسه مستهدفاً في كل لحظة.

مهلاً . . ما ذكرته آنفاً قد يكون طبيعة عند معظم شعوب الأرض، إلا أنه يتعاظم أو يتلاشى مع القيم السائدة، فحتى الفرنسيين يحدثونك عن قصص قديمة من الاستعلاء بين "البروفانسن" و"الباريسيان"، إلا أنهم يضحكون ويفصحون، وهم اليوم يتعاملون مع بعضهم البعض بأعلى درجات الالتزام لأن القانون لا يميز بين فرنسي وآخر، ولأن قيم الجمهورية أعلى من النزعات الفردية، وهو ما ينطبق على باقي الشعوب الغرب.

"طيب" ماذا لو تركنا الدمشقي المعتد بنفسه يعيش وحيداً دون أبناء الريف، ودون أن يحظى بتجارته التي تعتمد على الآخرين، وماذا لو لم يجد ابن درعا والسويداء سوقاً لتصريف تفاحه وخضاره، وماذا لو عاش ابن حمص في جزيرة دون أبناء حماه، وكيف يمكن أيضا لابن الدير أو الرقة أن يعيش بدون ريفه المحيط.

اللحظة الوحيدة الصادقة التي عاشها السوريون منذ نحو خمسين عاماً هي استجابتهم لنداء "الفزعة" دون إحساس بالشوفينية أو الشعوبية أو المناطقية، إلا أن هذه اللحظة تلاشت عندما ركبتها موجة الطائفية، فبعد قليل نسي المسيحي شعوره بالاستلاب، ونسي الدروز شبابهم الذين قتلهم النظام، ونسي الشيعة أن بحر السنة لم يبتلعهم، ونسي السنة بغالبيتهم أن المعركة التي اندلعت هي ضد الظلم وهدر الكرامة، أما العلوي فاستفاق على رعب ما اقترف النظام من جرائم، وما ارتكب من مظالم، وما سلب من مال، فاعتبر أن المعركة هي معركة وجود.

لقد تحركت حدود الكراهية بفعل الضغط أحياناً، وبفعل الإحساس بالظلم أحياناً أخرى، وبات الحديث عن التقسيم سهلاً، لقد تكسرت خطوط الدفاع الأولى عن القيم، وبطبيعة الحال فإن الحديث عن الوطن يلزمه أدوات ومفاهيم وممارسات، وطوال سنيَ حكم البعث كان الوطن مجرد شعارات فضفاضة، وعندما حانت لحظة الحقيقية وجد السوريون جميعاً أنفسهم عراةً بلا هوية وبلا ملامح، قسم يتحدث عن أن تركيا هي الأقرب، حتى أنهم لم يعترضوا على أن يقتطع الأتراك جزءا من الأرض أو أن يقوموا باحتلالها.

حتى في توزيع القتل لم يكن النظام عادلاً، لأنه لم يُبنَ على قاعدة العدالة في السّلم، لذلك فقد استعمل أسلوب الحرق والإبادة في الريف الذي لا يستطيع استثماره سياسياً أو السيطرة عليه، بينما حاصر المدن واستبد بها وبدأ يأكل عقول أبنائها ويجمع مؤيديه ومحازبيه داخلها حتى أضحت خليطاً عجيباً من الاستغلال والضياع والأنانية.

ربما تحتاج سوريا لسنوات طويلة حتى تتخلص من أمراضها النفسية الاجتماعية، وهذا التعافي مشروط أيضاً بالحالة الاقتصادية والسياسية، إذا لا يمكن بناء مجتمع سليم في بيئة يقتلها الجوع وانعدام الفرص، لذلك فإن المعركة طويلة وصولاً إلى البدء بترسيخ قيم المواطنة.

هناك نظرية تقول بأن ترك مكونات البلاد تتحارب وتتصارع يبقى خياراً منطقياً في ظل هذا التحزب القومي والمذهبي والعرقي، لأن الحرب ستطحن الجميع وصولاً إلى قناعة هذا الجميع باستحالة الاستمرار دون إعادة الاعتبار لمنظومة القيم والتعايش على أساس العدالة والحق وكرامة الإنسان مهما كان مذهبه أو انتماؤه الديني، لكن المجموعات الأصغر ستكون الضحية الأكبر بطبيعة الحال، والنظرية الأخرى لا ترى حلاً إلا بالوصاية على هذه الجزر البشرية المفككة، وهذا يفتح على احتلال وانتداب يسخر البلاد لمصالحه، أما النظرية الأصعب فهي نشوء طليعة واعية تمثل كل الشرائح تستبعد كل أسباب الصراع، وتعمل على بناء الإنسان، وهذا الخيار يحتاج لتدريب نفسي عملي على تحمل سنوات طويلة من النضال كما فعلت شعوب أخرى صولاً إلى إلغاء كل الحدود الدينية والطبقية وأمراض الشعوبية والشوفينية، ولكن ما يجري على الأرض لا يشير إلى إمكانية غلبة الوعي في المدى المنظور، والمشكلة الأكثر تعقيداً هي تعذر إمكانية تحقيق مصالحة على أسس وطنية طالما أن هناك قوى إقليمية تتصارع بدوافع مذهبية، وتمتلك أدوات ومخالب على أرض سوريا .

ربما لا تدوم المعادلة القائمة على الأرض اليوم، لكن زوالها مرتبط بمزيد من المآسي والتراكمات التي تشكلت في السنوات الأخيرة، وهي تراكمات يحكمها الدم، والثأر، والعار .

سيدفع السوريون المزيد ثمناً لصمتهم وتواطؤهم وتعليمهم أطفالهم قيم الكراهية والأنانية والاستعلاء، وطالما أن السني يفكر بسنيته، والشيعي بمرجعيته الدينية، والمسيحي بكنيسته، والكردي بمظلوميته القومية، فنحن على موعد مع نزيف طويل، فالأوطان لا تبنى بالعقد الدينية والعرقية، والحضارة قوامها "التراب والإنسان والوقت" كما يقول المفكر

مالك بن نبي وليس الجهل والارتياب، كما أنها في وجه آخر حاصل نظرية "التحدي والاستجابة" كما يراها المفكر الإنكليزي "أرنولد توينبي".

لا أعلم إن كان السوري قادراً على تخطي الأزمة لكي يولد حضارة، إلا أنني على يقين بأنه ـالسوري ـ جزء من مشكلة أكبر، فهو محكوم بالجغرافيا والتاريخ طالما أن هناك قوى تملك المال والسلاح، ولا تحارب من أجل بناء الحضارة بقدر حربها لمشاريع دينية، أو انتقامية، وطالما أنه يختزن فكر الكراهية فسيبقى أداة لتلك المشاريع.

على السوري أن يخرج من الصراع الكلاسيكي للقوى القديمة، عليه أن يتخلص من نزعاته الذاتية الضيقة، عليه أن يفكر في زراعة شجرة عوضاً عن كل بندقية وأن تكون هذه الشجرة "لا شرقية ولا غربية" حتى يصل إلى هويته بالعدل والمساواة والعمل.

**انتهى بعون اللّه**